الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

الزمخشري

هو العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المولود في رجب عام 467 هـ / 1074م والمتوفي ليلة عرفة عام 538 هـ/ 1143م

المجلد الخامس

تتمة سورة الأعراف

فيؤدّيكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين. إذا كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ الأرض العذاة الكريمة التربة وَالَّذِي خَبُثَ الأرض السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به بِإِذْنِ رَبِّهِ بتيسيره وهو في موضع الحال ، كأنه قيل : يخرج نباته حسنا وافيا لأنه واقع في مقابلة نَكِداً والنكد الذي لا خير فيه. وقرئ : يخرج نباته، أى يخرجه البلد وينبته. وقوله وَالَّذِي خَبُثَ صفة للبلد ومعناه والبلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكداً ، فحذف المضاف الذي هو النبات ، وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى البلد مقامه ، إلا أنه كان مجرورا بارزاً ، فانقلب مرفوعا مستكنا لوقوعه موقع الفاعل ، أو يقدّر : ونبات الذي خبث.

وقرئ : نكداً ، بفتح الكاف على المصدر ، أى ذا نكد. ونكداً ، بإسكانها للتخفيف ، كقوله : نزه عن الريب ، بمعنى نزه. وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين ، ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك. وعن مجاهد: آدم وذرّيته منهم خبيث وطيب. وعن قتادة : المؤمن سمع كتاب اللّه فوعاه بعقله وانتفع به ، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت. والكافر بخلاف ذلك. وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر ، وإنزاله بالبلد الميت ، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد كَذلِكَ مثل ذلك التصريف نُصَرِّفُ الْآياتِ نردّدها ونكرّرها لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ نعمة اللّه وهم المؤمنون ، ليفكروا فيها ويعتبروا بها. وقرئ : يصرف ، بالياء أى يصرفها اللّه.

[سورة الأعراف (7) : آية 59]

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59)

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً جواب قسم محذوف. فإن قلت : ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام ، إلا مع «قد» وقلّ عنهم ، نحو قوله : حلفت لها باللّه حلفة فاجر لناموا ..... «1» ....

(1) فقالت سباك اللّه إنك فاضحى ألست ترى السمار والنار أحوالى
حلفت لها باللّه حلفة فاجر لناموا فما إن من حديث ولا صالى
فأصبحت معشوقا وأصبح يعلها عليه قتام كاسف الظن والبال
يغط غطيط البكر شد خناقه ليقتلني والمره ليس بقتال
أيقتلنى والمشرفي مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال
لامرئ القيس. يقول : ضجرت محبوبتى سلمي حين ترقبتها ليلا مع أن الرقباء حولها. والسمار : جمع سامر ، بمعنى المتحدث ليلا. وأحوال : جمع حول ، بمعنى جانب ، فيفيد كثرة الناس وانتشارهم في جوانبها. والمنقول أنه على صورة الجمع وليس جمعا ، وكذا تثنيته ، لأنه حول الشيء وحوليه وأحواله وأحواليه وحواله وحواليه ، كلها بمعنى جانبه المحيط به ، ويمكن أن يراد بالمفرد : مطلق الجانب مجازاً ، فيثنى ويجمع حقيقة ، والكثير في الماضي المجاب به القسم قرنه بقد ، بل قيل : إن لم توجد فيه قدرت قيل ، لأن الجواب مظنة للتوقع الذي هو معنى «قد» لسماع القسم أولا. و«إن» و«من» زائدتان للتوكيد ، والحديث : بمعنى المتحدث ليطابق ما بعده. والصالي : المصطلى بالنار. وهاهنا حذف دل عليه المقام. أى فسمحت فنلت منها مرادى ، فأعجبتها فأصبحت معشوقا وقد كنت عاشقاً ، وأصبح زوجها عليه قتام : وهو الغبار وسواد الوجه ، كاسف الظن : منعكسه ، فهو مجاز. وكاسف البال : حزين القلب ، أو سيئ الحال. والغطيط : ارتفاع صوت النفس عند الخنق والنعاس ونحو ذلك. والبكر : الفتى من الإبل. والخناق : حبل يخنق به كالحزام لما يتحزم به ، والاسار لما يربط به الأسير. وقوله : ليس بقتال ، أى كما يزعم أنه شجاع. والمشرفي : السيف، نسبة إلى مشارف جمع مشرف كجعفر ، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، شبهه بالمضاجع لامتداده بجانبه وملازمته له، والمسنونة النبال : المحددة الأطراف. والزرق :
جمع زرقاء ، الصافيات اللون. وشبهها بأنياب الأغوال في حدة الأطراف ، واستبشاع كل عند النفوس. وهذا لا يستلزم وجود الغول ورؤية نابها ، وإن زعمته العرب.

قلت : إنما كان ذلك لأن الجملة القسمية لاتساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها ، التي هي جوابها ، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو معنى «قد» عند استماع المخاطب كلمة القسم. قيل : أرسل نوح عليه السلام وهو ابن خمسين سنة ، وكان نجاراً وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام. وقرئ : غيره ، بالحركات الثلاث ، فالرفع على المحل ، كأنه قيل : ما لكم إله غيره. والجر على اللفظ والنصب على الاستثناء ، بمعنى : ما لكم من إله إلا إياه ، كقولك : ما في الدار من أحد إلا زيد أو غير زيد. فإن قلت : فما موقع الجملتين بعد قوله اعْبُدُوا اللَّهَ؟ قلت : الأولى بيان لوجه اختصاصه بالعبادة. والثانية : بيان للداعي إلى

عبادته لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دون اللّه. واليوم العظيم : يوم القيامة ، أو يوم نزول العذاب عليهم وهو الطوفان.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 60 إلى 62]

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (60) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (62)

الْمَلَأُ الأشراف والسادة. وقيل : الرجال ليس معهم نساء فِي ضَلالٍ في ذهاب عن طريق الصواب والحق. ومعنى الرؤية : رؤية القلب. فإن قلت : لم قال لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ ولم يقل ضلال «1» كما قالوا؟ قلت : الضلالة أخصّ من الضلال ، فكانت أبلغ في نفى الضلال عن نفسه ،

(1). قال محمود : «إن قلت لم قال ليس بى ضلالة ولم يقل ضلال ... الخ»؟ قال أحمد : تعليله كون نفيها أبلغ من نفى الضلال بأنها أخص منه ، غير مستقيم واللّه أعلم ، فان نفى الأخص أعم من نفى الأعم ، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لا يستلزم الأخص ، بخلاف العكس. ألا تراك إذا قلت : هذا ليس بإنسان ، لم يستلزم ذلك أن لا يكون حيوانا. ولو قلت : هذا ليس بحيوان ، لاستلزم أن لا يكون إنسانا ، فنفى الأعم كما ترى أبلغ من نفى الأخص.
والتحقيق في الجواب أن يقال : الضلالة أدنى من الضلال وأقل ، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه. وأما الضلال فينطلق على القليل والكثير من جنسه ، ونفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى ، لا من حيث كونه أخص ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، واللّه أعلم.

كأنه قال : ليس بى شيء من الضلال ، كما لو قيل لك : ألك تمر ، فقلت : مالى تمرة فإن قلت : كيف وقع قوله وَلكِنِّي رَسُولٌ استدراكا للانتفاء عن الضلالة؟ قلت : كونه رسولا من اللّه مبلغا رسالاته ناصحاً ، في معنى كونه على الصراط المستقيم ، فصحّ لذلك أن يكون استدراكا للانتفاء عن الضلالة. وقرئ : أبلغكم ، بالتخفيف. فإن قلت : كيف موقع قوله أُبَلِّغُكُمْ «1»؟ قلت : فيه وجهان. أحدهما : أن يكون كلاما مستأنفاً بيانا لكونه رسول رب العالمين. والثاني : أن يكون صفة لرسول. فإن قلت : كيف جاز أن يكون صفة والرسول لفظه لفظ الغائب؟ قلت: جاز ذلك لأن الرسول وقع خبراً عن ضمير المخاطب وكان معناه ، كما قال : أَنَا الَّذِى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ«2»

(1). قال محمود : «إن قلت كيف موقع قوله أُبَلِّغُكُمْ؟ قلت فيه وجهان ... الخ» قال أحمد : وقد أستدرك
ابن جنى قول أبى الطيب : أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبى
عدولا عن لفظ الغيبة لو كان إلى أدبه ، وهذه الآية والرجز العلوي كفيلان بتحسين ما ارتكبه أبو الطيب.
(2) أنا الذي سمتن أمى حيدره كليث غابات كريه المنظرة
أو فيهم بالصاع كيل السندره أضربكم ضربا يبين الفقرة
للإمام على رضى اللّه عنه حين بارز مرحبا اليهودي يوم خيبر ، فقال مرحب :
قد علمت خيبر أنى مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلتهب
فأجابه على بذلك «و كانت أمه فاطمة بنت أسد سمته كاسم أبيها ، لأن «حيدرة» من أسماء الأسد ، فلما حضر أبو طالب سماه علياً. وسمى الأسد «حيدرة» لشدة انحداره على من يصول عليه. والليث : اسم جامد له ، واشتقوا منه ، لا ينه إذا عامله معاملة الليث. والغابة : بيته الذي يغيب فيه. والسندرة : اسم امرأة كانت تبيع البر وتوفى الكيل ، أو مكيال كبير. وكان الظاهر أن يقول : الذي سمته أمه ليطابق الضمير مرجعه وهو الموصول في الغيبة. ولكن أتى بضمير التكلم ذهابا إلى المعنى. وحسنه تقدم ضمير المتكلم ، أى أنا الشجاع الذي ظهرت على أمارة الشجاعة من صغرى ، فسمتني أمى باسم الأسد ، ولا أكذبها في ظنها ، وأنا كليث غابات منظرته كريهة لعبوسى في وجه عدوى ، ثم قال :
أوفى الأعداء ، أى أعطيهم عطاء وافياً. وكيل السندرة : نصب به على المفعول المطلق ، أو بمقدر : أى أكيل لهم مثل كيل تلك المرأة في الوفاء ، أو أعطيهم بالصاع الصغير كيل المكيال الكبير. ويروى : أو فيهم بالسيف. وهذا من باب الاستعارة التمثيلية التهكمية ، شبه هيئة إيصاله الطعان إلى الأعداء بكثرة في مقابلة مكروه يفرط منهم. بهيئة إيصال البر بالكيل في مقابلة ثمنه ، وإن كان البر محبوبا والطعن مكروها ، والتفت مفسراً ذلك بقوله أضربكم ضرباً يبين ، أى يفصل الفقرة : جمعها فقار ، وفقرات. وهي عظام الظهر ، وقد علمت خيبر ، أى أهلها. وشاكي السلاح.
حاده وتلمه. يجوز أنه نعت مرحب. ويجوز أنه خبر بعد خبر. وبطل مجرب : خبر بعد خبر لا غير. واستعار الالتهاب لاشتداد الحروب على طريق التصريح.

رِسالاتِ رَبِّي ما أوحى إلىّ في الأوقات المتطاولة ، أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر. ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جدّه إدريس ، وهي ثلاثون صحيفة ، ومن صحف شيث وهي خمسون صحيفة وَأَنْصَحُ لَكُمْ يقال نصحته ونصحت له. وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبه لا غير ، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعاً ولا نصيحة أمحض من نصيحة اللّه تعالى ورسله عليهم السلام

وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ أى من صفات اللّه وأحواله ، يعنى قدرته الباهرة وشدّة بطشه على أعدائه ، وأن بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين. وقيل : لم يسمعوا بقوم حلّ بهم العذاب قبلهم فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح بوحي اللّه إليه ، أو أراد : وأعلم من جهة اللّه أشياء لا علم لكم بها قد أوحى إلىّ بها.
[سورة الأعراف (7) : آية 63]

أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63)

أَوَ عَجِبْتُمْ الهمزة للإنكار ، والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف ، كأنه قيل : أكذبتم وعجبتم أَنْ جاءَكُمْ من أن جاءكم ذِكْرٌ موعظة مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ على لسان رجل منكم ، كقوله ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وذلك أنهم يتعجبون من نبوّة نوح عليه السلام ويقولون : ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين ، يعنون إرسال البشر ، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا ليحذركم عاقبة الكفر وليوجد منكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

[سورة الأعراف (7) : آية 64]

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (64)

وَالَّذِينَ مَعَهُ قيل كانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة. وقيل : تسعة ، بنوه سام وحام ويافث ، وستة ممن آمن به. فإن قلت : فِي الْفُلْكِ بم يتعلق؟ قلت : هو متعلق بمعه ، كأنه قيل : والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك. ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء ، أى أنجيناهم في السفينة من الطوفان عَمِينَ عمى القلوب غير مستبصرين. وقرئ : عامين. والفرق بين العمّى والعامىّ ، أن العمى يدل على عمى ثابت. والعامي على عمى حادث. ونحوه قوله وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 65 إلى 69]

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (65) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (66) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (86) أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(69)

أَخاهُمْ واحداً منهم من قولك : يا أخا العرب ، للواحد منهم. وإنما جعل واحداً منهم ، لأنهم أفهم عن رجل منهم وأعرف بحاله في صدقه وأمانته ، وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وأخاهم : عطف على نوحا. وهُوداً عطف بيان له. فإن قلت : لم حذف العاطف من قوله قالَ يا قَوْمِ ولم يقل «فقال» كما في قصة نوح «1»؟ قلت : هو على تقدير سؤال سائل قال : فما قال لهم هود؟ فقيل : قال يا قوم اعبدوا اللّه ، وكذلك قالَ الْمَلَأُ. فإن قلت : لم وصف الملأ الَّذِينَ كَفَرُوا دون الملأ من قوم نوح؟ قلت : كان في أشراف قوم هود من آمن به ، منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن. ونحوه قوله تعالى : وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ، ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذمّ لا غير فِي سَفاهَةٍ في خفة حلم وسخافة عقل ، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر ، وجعلت السفاهة ظرفا على طريق المجاز : أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها. وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام - من نسبهم إلى الضلال والسفاهة ، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة ، بما قالوا لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم - أدب حسن وخلق عظيم ، وحكاية اللّه عزّ وجلّ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم ناصِحٌ أَمِينٌ أى عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة ،

(1). قال محمود : «فان قلت لم حذف العاطف من قوله تعالى في قصة هود هذه قالَ يا قَوْمِ ولم يقل «فقال»؟ قلت لأنه أخرج الكلام جوابا عن سؤال سائل ، كأنه قيل : فما قال هود حينئذ؟ قيل : يا قوم ، وكذلك قال الملأ» قالَ أحمد : وحذف العاطف من المقاولة. ألا ترى قوله في سورة الشراء حكاية عن تقاول موسى عليه السلام وفرعون ، كيف أسقط ذكر العاطف منه على كثرة الأقوال المعددة فيها. والسر في ذلك - واللّه أعلم - أن العاطف ينتظم الجمل حتى يصيرها كالجملة الواحدة «فاجتنب لارادة استقلال كل واحدة منها في معناها ، واللّه أعلم.

فما حقي أن أُتهم. أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه ، أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ أى خلفتموه في الأرض ، أو جعلكم ملوكا في الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فيما خلق من أجرامكم ذهابا في الطول والبدانة. قيل : كان أقصرهم ستين ذراعا ، وأطولهم مائة ذراع فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ في استخلافكم وبسطة أجرامكم وما سواهما من عطاياه. وواحد الآلاء «إلى» نحو إنى وإناه ، وضلع وأضلاع ، وعنب وأعناب. فإن قلت : «إذ» في قوله إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ ما وجه انتصابه؟ قلت : هو مفعول به وليس بظرف ، أى اذكروا وقت استخلافكم.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 70 إلى 72]

قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ(72)

أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة ، وترك دين الآباء .. في اتخاذ الأصنام شركاء معه ، حباً لما نشأوا عليه ، وألفاً لما صادفوا آباءهم يتدينون به. فإن قلت : ما معنى المجيء في قوله أَجِئْتَنا قلت : فيه أوجه : أن يكون لهود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه ، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء قبل المبعث «1» فلما أوحى إليه جاء قومه يدعوهم. وأن يريدوا به الاستهزاء ، لأنهم كانوا يعتقدون أنّ الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة ، فكأنهم قالوا : أجئتنا من السماء كما يجيء الملك ، وأن لا يريدوا حقيقة المجيء ، ولكن التعرّض بذلك والقصد ، كما يقال : ذهب يشتمني ، ولا يراد حقيقة الذهاب ، كأنهم قالوا : أقصدتنا لنعبد الله وحده وتعرّضت لنا بتكليف ذلك؟

فَأْتِنا بِما تَعِدُنا استعجال منهم للعذاب قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ أى حق عليكم ووجب ، أو قد نزل عليكم. جعل المتوقع الذي لا بدّ من نزوله بمنزلة الواقع. ونحوه قولك لمن طلب إليك بعض المطالب.

(1). متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها في بدء الوحي «و كان يخلو بغار حراه يتحنث فيه حتى فجأه الوحى وهو بغار حراء.

قد كان ذلك. وعن حسان أن ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور وهو طفل ، فجاء يبكى. فقال له يا بنىّ مالك؟ قال : لسعنى طوير كأنه ملتف في بردي حبرة «1» ، فضمه إلى صدره وقال له : يا بنى ، قد قلت الشعر. والرجس: العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة. ومعنى الإلهية فيها معدوم محال وجوده. وهذا كقوله تعالى : ما تدعون من دونه من شيء. ومعنى سَمَّيْتُمُوها سميتم بها من : سميته زيداً. وقطعُ دابرهم : استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم.

وقصتهم أن «عاداً» قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت. وكانت لهم أصنام يعبدونها.

صداء. وصمود ، والهباء ، فبعث الله إليهم هوداً نبياً ، وكان من أوسطهم وأفضلهم حسباً ، فكذبوه وازدادوا عتوّاً وتجبراً ، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا ، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه عند بيته المحرّم مسلمهم ومشركهم ، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وسيدهم معاوية بن بكر ، فجهزت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلا ، منهم قيل بن عنز ، ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه. فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره ، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان.

- قينتان كانتا لمعاوية - فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك وقال : قد هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء على ما هم عليه ، وكان يستحى أن يكلمهم خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه ، فذكر ذلك للقينتين. فقالتا : قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله. فقال معاوية :
ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعلّ الله يسقينا غماما

فيسقى أرض عاد إن عادا قد امسوا ما يبينون الكلاما «2»

(1). قوله «في بردي حبرة» حبرة - كعنبة - : برد بمانى. اه صحاح. (ع) [.....]

(2) ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل اللّه يسقينا غماما
فيسقى أرض عاد إن عادا قد أمسوا ما يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو لها الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم عيامى
وإن الوحش يأتيهم جهارا فلا يخشى لعادى سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما
لمعاوية بن بكر. وروى أن عادا بعثوا من قومهم : قيل بن عنز ونعيم بن هزالة ، ومرثد بن سعد بن عفير ، وجلهمة بن الحلس خال معاوية بن بكر ، ولقمان بن عاد ، كل منهم مع نفر من رهطه ليدعوا اللّه بالسقيا عند الكعبة ، فنزلوا عند معاوية بن بكر فأكرمهم وبعث إليهم الجرادتين لتغنيا لهم - وهما قينتان مغنيتان أول من غنى في نساء العرب - فنسوا قومهم من كثرة اللهو والطرب. فقال معاوية : هلك أخوالى ، ولو قلت لهم شيئا ظنوا بى بخلا. فأنشأ هذا ، وأمر الجرادتين بغنائه لهم. والهينمة : صوت خفى لا يفهم. والمراد بها دعاء اللّه بالسقيا. ويسقينا غماما : أى ماء غمام. ما يبينون الكلام ، لضعفهم من العطش. فليس نرجو» أى ليس نحن نرجو لها أى لعاد. ويروى «به» أى بسبب العطش. وحق الرواية «بها» أى في أرض عاد. الشيخ ولا الغلام. والعيمة ، شدة الشهوة إلى اللبن.
والمراد بها مطلق الفاقة. والعيامى : جمع عيم بالتشديد ، أى رثيئة الحال ، وأصله عيائم ، فقلب إلى عيامى ، كما روى أيامى ، وهو جمع أيم ، وأصله أيائم ، أى فاقدات الأزواج. فالمعنى على التشبيه. ويجوز أن المراد : نساءكم التي تركتموهن كأنهن بلا أزواج هناك. وتكرير النساء للاستعطاف عليهن. والعادي : نسبة لعاد ، وكانوا الغلاظ الشداد. والوحش : اسم جنس جمعى ، واحده وحشى ، كانس وإنسى ، وترك وتركى. فيذكر باعتبار لفظه ، ويؤنث باعتبار جمعيته. وروى «بهما» ونهاركم : نصب على الظرف ، و«من وقد قوم» تمييز مقترن بمن ، والسلام عطف على التحية ، وفيه تورية لأنه يشير إلى انقطاع الكلام ، كما أن المجتمعين يأتيان به عند المفارقة. فلما سمع القوم ذلك انطلقوا إلى للكعبة ، فلحقهم مرثد بن سعد وكان مؤمنا فأخروه ، فدعا اللّه تعالى لنفسه لا للقوم. وقال قيل: اللهم إن كان هود صادقا فاسقنا ، فأنشأ سحابة بيضاء وسحابة حمراء وسحابة سوداء. ثم نودي : يا قيل ، اختر أيها شئت. فقال : أما البيضاء فجفل ، وأما الحمراء فعارض. وأما السوداء فهيطل ، فاختارها فنودي. قد اخترت رمادا أرمدا ، لا يبقى من عاد أحدا ، لا والدا ولا ولدا. فسارت السوداء إلى عاد فأهلكتهم ، وجاء لقمان بن عاد بعد أن فرغوا من دعواتهم فقال : اللهم إنى جئتك وحدي ، فأعطنى سؤلي. وسأل عمر سبعة أنسر ، وكان عمر النسر ثمانين سنة ، فكان يأخذ النسر من وكره فلا يزال عنده حتى يموت ، وكان آخر نسوره اسمه لبد ، فلما مات مات.
ثم إن ذلك كان قبل وجود مكة وزمزم ، لأنهما إنما وجدان في زمن إبراهيم وإسماعيل ، فلعل معاوية بن بكر كان سكنه قريبا من موضع مكة ، لا في نفس موضعها ، لأنه إذ ذاك لم تكن فيه كلأ ولا ماء.

فلما غنتا به قالوا : إن قومكم يتغوثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم ، فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم ، فقال لهم مرثد بن سعد : واللّه لا تسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى اللّه سقيتم وأظهر إسلامه ، فقالوا لمعاوية : احبس عنا مرثدا لا يقدمنّ معنا مكة ، فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا ، ثم دخلوا مكة فقال قيل : اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم ، فأنشأ اللّه تعالى سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء.

يا قيل ، اختر لنفسك ولقومك ، فقال : اخترت السوداء فإنها أكثرهنّ ماء فخرجت على عاد من واد لهم يقال له المغيث ، فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا ، فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ، ونجا هود والمؤمنون معه ، فأتوا مكة فعبدوا اللّه فيها حتى ماتوا. فإن قلت : ما فائدة نفى الإيمان عنهم في قوله وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ مع إثبات التكذيب بآيات اللّه؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم كمرثد بن سعد ، ومن نجا مع هود عليه السلام ، كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم ، ليؤذن أنّ الهلاك خص المكذبين ، ونجى اللّه المؤمنين.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 73 إلى 74]

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74)

قرئ وَإِلى ثَمُودَ بمنع الصرف بتأويل القبيلة ، وإلى ثمود بالصرف بتأويل الحىّ ، أو باعتبار الأصل ، لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. وقيل : سميت ثمود لقلة مائها ، من الثمد وهو الماء القليل ، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادى القرى قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ آية ظاهرة وشاهد على صحة نبوّتى. وكأنه قيل : ما هذه البينة؟ فقال هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً وآية نصب على الحال ، والعامل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل ، كأنه قيل : أشير إليها آية. ولكم : بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود ، لأنهم عاينوها وسائر الناس أخبروا عنها وليس الخبر كالمعاينة ، كأنه قال : لكم خصوصاً ،

وإنما أضيفت إلى اسم اللّه تعظيما لها وتفخيما لشأنها ، وأنها جاءت من عنده مكوّنة من غير فحل وطروقة آية من آياته ، كما تقول : آية اللّه.

وروى أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمروا أعماراً طوالا ، حتى أن الرجل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم في حياته ، فنحتوا البيوت من الجبال ، وكانوا في سعة ورخاء من العيش ، فعتوا على اللّه وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان ، فبعث اللّه تعالى إليهم صالحا عليه السلام ، وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا ، فدعاهم إلى اللّه تعالى فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ، فقال : أية آية تريدون؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة ، فتدعوا إلهك وندعو آلهتنا ، فإن استجيب لك اتبعناك ، وإن استجيب لنا اتبعتنا ، فقال صالح : نعم ، فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة فلم تجبهم ، ثم قال سيدهم - جندع بن عمرو ، وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال لها الكاثبة - أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء - والمخترجة التي شاكلت البحت - فإن فعلت صدّقناك وأجبناك. فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمننّ ولتصدّقنّ ، قالوا : نعم ، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء. كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا اللّه تعالى ، وعظماؤهم ينظرون ، ثم نتجت ولداً مثلها في العظم فآمن به جندع ورهط من قومه ، ومنع أعقابهم ناس من رؤسهم أن يؤمنوا ، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانت ترد غبا ، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كلّ ماء فيها ، ثم تتفحج «1» فيحتلبون ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم ، فيشربون ويدخرون. قال أبو موسى الأشعرى : أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا. وكانت الناقة إذا وقع الحرّ تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان : عنيزة أمّ غنم ، وصدقة بنت المختار - لما أضرّت به من مواشيهما وكانتا كثيرتى المواشي - فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه ، فانطلق سقبها حتى رقى جبلا اسمه قارة فرغى ثلاثا وكان صالح قال لهم : أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب ، فلم يقدروا عليه وانفجت «2» الصخرة بعد رغائه فدخلها. فقال لهم صالح : تصبحون غداً ووجوهكم مصفرّة ، وبعد غد ووجوهكم محمرة ، واليوم الثالث ووجوهكم مسودّة ، ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه. فأنجاه اللّه إلى أرض فلسطين. ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ أى الأرض أرض اللّه والناقة ناقة اللّه ، فذروها تأكل في أرض ربها ، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من إنباتكم وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ لا تضربوها ولا تطردوها ولا ترييوها بشيء من الأذى إكراماً لآية اللّه.

ويروى : أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه «لا يدخلنّ أحد منكم القرية ، ولا تشربوا من مائها ، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم «3»» وقال صلى اللّه عليه وسلم «يا علىّ ، أتدري من أشقى الأوّلين»؟ قال : اللّه ورسوله أعلم. قال «عاقر ناقة صالح ، أتدرى من أشقى الآخرين»؟ قال : اللّه ورسوله أعلم. قال «قاتلك «4»» وقرأ أبو جعفر في رواية تأكل في أرض اللّه ، وهو في موضع الحال بمعنى آكلة وَبَوَّأَكُمْ ونزلكم.

(1). قوله «ثم تتفحج» أى تفرج ما بين رجليها. (ع)
(2). قوله «و انفجت الصخرة» أى انفتحت. (ع)
(3). متفق عليه من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما من طرق.
(4). أخرجه ابن إسحاق في المغازي : حدثني يزيد بن محمد بن خيثم عن محمد بن كعب القرظي عن محمد بن خيثم والد يزيد المذكور عن عمار بن ياسر قال «كنت أنا وعلى رفيقين في غزوة العسرة إلى أن قال : فقال يا علّى ، ألا أخبرك بأشقى الناس : رجلين؟ قال : بلى يا رسول اللّه. فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا على على هذه وأشار إلى رأسه - حتى يبل هذه - ووضع يده على لحيته» ومن هذا الوجه أخرجه النسائي في الخصائص والحاكم والطبري والبيهقي في الدلائل. وفي الباب عن جابر بن سمرة أخرجه الطبراني وعن صهيب أخرجه أبو يعلى والطبراني. وعن على أخرجه ابن مردويه في تفسير والشمس وضحاها «تنبيه» في رواية المذكورين «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سأل عليا ، فقال له في الأول : عاقر الناقة ، قال صدقت. وقال في الثانية «لا علم لي» وفي رواية جابر بن سمرة «اللّه أعلم».

والمباءة : المنزل فِي الْأَرْضِ في أرض الحجر بين الحجاز والشام مِنْ سُهُولِها قُصُوراً أى تبنونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص «1» واللبن والآجر. وقرأ الحسن : وتنحتون بفتح الحاء وتنحاتون بإشباع الفتحة ، كقوله : يَنْبَاعُ مِنْ ذَفْرَى أَسِيلٍ حُرَّةٍ «2»

فإن قلت : علام انتصب بُيُوتاً؟ قلت : على الحال ، كما تقول : خط هذا الثوب قميصاً وأبر هذه القصبة قلما ، وهي من الحال المقدّرة ، لأن الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت ، ولا الثوب ولا القصبة قميصاً وقلما في حال الخياطة والبرى. وقيل : كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 75 إلى 79]

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)

(1). قوله «من الرهص» هو الصخر الثابت في أسفل الحائط. ا ه من الصحاح. (ع)
(2) وكان ربا أو كحيلا معقدا حش الوقود به جوانب قمقم
ينباع من ذفرى أسيل حرة زيافة مثل الفنيق المكرم
لعنترة بن شداد العبسي من معلقته ، يصف عرق ناقته من السير ، فشبه بالرب ، وهو العصير والطلاء. أو بالكحيل وهو القطران المنعقد بالنار على جوانب القمقم. وأعقدت الدواء : أغليته حتى خثر. وحش الوقود : أشعله وأوقده. وهو هنا مبنى للمجهول وأصل «ينباع» ينبع ، فتولدت الألف للأشباع ، والذفرى : نقرة منخفضة جنب الأذن ، إذا طال سير البعير انتفخ من وسطها جلدة وارتفعت وسال منها العرق في النقرة ، وهي المشبهة بالقمقم سابقاً. وقيل الذفرى أصل الأذن. والأسيل : الناقة المستقيمة الخلق ، من قولهم : خد أسيل ، وكف أسيل ، وحر كل شيء : خالصه. زيافة : كثيرة الزيف وهو التبختر في السير. والفنيق : فحل الإبل المكرم باعفائه عن العمل لأجل الضراب ، فالمكرم : نعت مفسر. ويروى المكدم بالدال. ويقال : كدمه إذا عضه. وأما أكدمه فلم أقف عليها ، ولعلها لغة قليلة. والمكدم اسم مفعول منها ، أى الذي كدمته الفحول وعضته فأثرت فيه لتنقب جلدها من أثر الرحل والركض. وروى : من ذفرى غضوب جسرة ، أى شديدة الغضب صلبة موثقة الخلق. وقيل «ينباع» وزنه «ينفعل» من البوع ، وهو طى المسافة البعيدة ، ولا معنى له في البيت.

لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا للذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم ، ولِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بدل من الذين استضعفوا. فان قلت: الضمير في منهم راجع إلى ما ذا «1»؟ قلت : إلى قَوْمِهِ أو إلى لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا. فإن قلت : هل لاختلاف المرجعين أثر في اختلاف المعنى؟ قلت : نعم وذلك أن الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل لِمَنْ آمَنَ مفسراً لمن استضعف منهم ، فدل أن استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين ، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا لم يكن الاستضعاف مقصوراً عليهم ، ودلّ أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ شيء قالوه على سبيل الطنز والسخرية ، كما تقول للمجسمة : أتعلمون أن الله فوق العرش.

فان قلت : كيف صحّ قولهم إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ جوابا عنه «2»؟ قلت : سألوهم عن العلم بإرساله ، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً لا يدخله ريب ، كأنهم قالوا : العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه «3» ولا شبهة يدخله لوضوحه وإنارته ، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به ، فنخبركم أنا به مؤمنون ، ولذلك كان جواب الكفرة إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ «4» فوضعوا آمَنْتُمْ بِهِ موضع أُرْسِلَ بِهِ رداً لما جعله المؤمنون معلوما وأخذوه مسلماً فَعَقَرُوا النَّاقَةَ أسند العقر إلى جميعهم لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم ، وقد يقال للقبيلة الضخمة : أنتم فعلتم كذا ، وما فعله إلا واحد منهم وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين ، وأمر ربهم : ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ أو شأن ربهم وهو دينه. ويجوز أن يكون المعنى : وصدر عتوّهم عن أمر ربهم ، كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوّهم. ونحو عن هذه ما في قوله وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ائْتِنا بِما تَعِدُنا أرادوا من العذاب.

(1). قال محمود : «إن قلت الضمير في منهم راجع إلى ما ذا؟ قلت : إلى قومه ... الخ» قال أحمد : فقوله لِمَنْ على الأول بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة. وعلى الثاني بدل بعض من كل.
(2). عاد كلامه. قال محمود : «فان قلت كيف وقع قولهم إنا بما أرسل به مؤمنون جوابا ... الخ» قال أحمد :
وقولهم إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ليس إخباراً عن وجوب الايمان به ، بل عن امتثال الواجب والعمل به ، ونحن قد امتثلنا.
(3). قوله «ما لا كلام فيه» لعله : مما لا كلام فيه. (ع)
(4). عاد كلامه. قال محمود : «و لذلك كان جواب الكفرة إنا بالذي ... الخ» قال أحمد : ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون ، ولكن أبوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته وهم يجحدونها. وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم ، كما قال فرعون إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ فأثبت إرساله تهكما ، وليس هذا موضع التهكم ، فان الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله ، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الايمان بالرسالة احتياطاً للكفر وعلواً في الإصرار.

وإنما جاز الإطلاق لأنه كان معلوما.

واستعجالهم له لتكذيبهم به ، ولذلك علقوه بما هم به كافرون ، وهو كونه من المرسلين الرَّجْفَةُ الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها فِي دارِهِمْ في بلادهم أو في مساكنهم جاثِمِينَ هامدين لا يتحركون موتى. يقال : الناس جثم ، أى قعود لا حراك بهم ولا ينبسون نبسة. ومنه المجثمة التي جاء النهى عنها «1» ، وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمى. وعن جابر أنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم لما مر بالحجر قال : «لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح فأخذتهم الصيحة ، فلم يبق منهم إلا رجل واحد كان في حرم اللّه. قالوا من هو؟ قال : ذاك أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه «2»» وروى أنّ صالحاً كان بعثه إلى قوم فخالف أمره. وروى أنه عليه السلام مرّ بقبر أبى رغال فقال : «أ تدرون من هذا؟ قالوا : اللّه ورسوله أعلم. فذكر قصة أبى رغال ، وأنه دفن هاهنا ودفن معه غصن من ذهب» فابتدروه وبحثوا عنه بأسيافهم فاستخرجوا الغصن «3». فَتَوَلَّى عَنْهُمْ الظاهر أنه كان مشاهدا لما جرى عليهم ، وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين ، تولى مغتمّ متحسر على ما فاته من إيمانهم يتحزن لهم ويقول يا قَوْمِ لَقَدْ بذلت فيكم وسعى ولم آل جهداً في إبلاغكم والنصيحة لكم ولكنكم لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ويجوز أن يتولى عنهم تولى ذاهب عنهم ، منكر لإصرارهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب. وروى أنّ عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء ، ونزل بهم العذاب يوم السبت. وروى أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكى ، فالتفت فرأى الدخان ساطعاً فعلم أنهم قد هلكوا ، وكانوا ألفا وخمسمائة دار. وروى أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

فإن قلت : كيف صحّ خطاب الموتى وقوله وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ؟ قلت : قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة : يا أخى ، كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل منى؟ وقوله وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ حكاية حال ماضية.

---

(1). أما النهى فرواه أصحاب السنن وابن حيان والحاكم من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نهى عن الشرب من في السقاء ، وعن ركوب الجلالة ، وعن المجثمة» ورواه البزار من طريق الوراق عن قتادة عن أنس مثله. وكذا قال ، وأخرجه البزار وقال : إسناده حسن. ومن حديث العرباض بن سارية «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نهى عن المجثمة ، أخرجه الترمذي وحسنه من رواية سعيد بن المسيب عن أبى الدرداء قال «نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أكل المجثمة وهي التي تضرب بالنبل».

(2). أخرجه ابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق والطبري من رواية عبد اللّه بن عثمان بن خيثم عن أبى الزبير عن جابر - وزاد «في غزوة تبوك» ، فقام فخطب الناس.

(3). أخرجه أبو داود وابن حبان والطبراني والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل من رواية بجير بن أبى بجير عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص ولفظه «فابتدره الناس فاستخرجوا الغصن» وأما قوله «فبحثوا عنه بأسيافهم» فأخرجه عبد الرزاق عن معمر مرسلا. [.....]

[سورة الأعراف (7) : الآيات 80 إلى 84]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84)

وَلُوطاً وأرسلنا لوطا. وإِذْ ظرف لأرسلنا. أو واذكر لوطا ، وإذ بدل منه ، بمعنى : واذكر وقت قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أتفعلون السيئة المتمادية في القبح ما سَبَقَكُمْ بِها ما عملها قبلكم ، والباء للتعدية من قولك : سبقته بالكرة ، إذا ضربتها قبله. ومنه قوله عليه السلام «سبقك بها عكاشة «1»» مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ «من» الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق ، والثانية للتبعيض. فإن قلت : ما موقع هذه الجملة؟ قلت : هي جملة مستأنفة ، أنكر عليهم أوّلا بقوله أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ثم وبخهم عليها فقال : أنتم أوّل من عملها. أو على أنه جواب لسؤال مقدّر ، كأنهم قالوا : لم لا نأتيها؟ فقال : ما سبقكم بها أحد ، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ بيان لقوله : أتأتون الفاحشة. والهمزة مثلها في أَتَأْتُونَ للإنكار والتعظيم. وقرئ : إنكم ، على الإخبار المستأنف لتأتون الرجال ، من أتى المرأة إذا غشيها شَهْوَةً مفعول له ، أى للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلا مجرّد الشهوة من غير داع آخر ، ولا ذم أعظم منه ، لأنه وصف لهم بالبهيمية ، أنه لا داعى لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه أو حال بمعنى مشتهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماجة بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعوا إلى اتباع الشهوات وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء ، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة ، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد. ونحوه بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ. وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا يعنى ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام ، من إنكار الفاحشة ، وتعظيم أمرها ، ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله ،

(1). متفق عليه من حديث ابن عباس في قصته. ولمسلم من حديث أبى هريرة نحوه. ومن حديث عمران بن حصين رضى الله عنه.

ولكنهم جاءوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته ، من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ، ضجراً بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم. وقولهم إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف «1» ، وأريحونا من هذا المتزهد وَأَهْلَهُ ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين «2» مِنَ الْغابِرِينَ من الذين غبروا في ديارهم ، أى بقوا فهلكوا. والتذكير لتغليب الذكور على الإناث. وكانت كافرة موالية لأهل سدوم. وروى أنها التفتت فأصابها حجر فماتت. وقيل : كانت المؤتفكة خمس مدائن. وقيل : كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة ، فأمطر الله عليهم الكبريت والنار. وقيل : خسف بالمقيمين منهم ، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم. وقيل : أمطر عليهم ثم خسف بهم. وروى أن تاجراً منهم كان في الحرم فوقف له الحجر أربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه. فإن قلت : أى فرق بين مطر وأمطر؟ قلت : يقال مطرتهم السماء وواد ممطور «3». وفي نوابغ الكلم : حرى غير ممطور. حرى أن يكون غير ممطور «4» ومعنى مطرتهم : أصابتهم بالمطر ، كقولهم. غاثتهم وو بلتهم وجادتهم ورهمتهم. ويقال : أمطرت عليهم كذا ، بمعنى أرسلته عليهم إرسال المطر فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ. ومعنى وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً وأرسلنا عليهم نوعا من المطر عجيباً يعنى الحجارة. ألا ترى إلى قوله فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ.

(1). قوله «أبعدوا عنا هذا المتقشف» المنقشف : هو الذي يتبلغ بالقوت وبالمرقع ، من القشف : وهو التغير من الشمس أو الفقر ا ه. (ع)
(2). قوله «من ذويه أو من المؤمنين» يعنى أقاربه وامرأته. (ع)
(3). قال محمود : «يقال مطرتهم السماء وواد ممطور ... الخ» قال أحمد : مقصود المصنف الرد على من قول :
مطرت السماء في الخير ، وأمطرت في الشر. ويتوهم أنها تفرقة وضعية ، فبين أن أمطرت : معناه أرسالات شيئاً على نحو المطر وإن لم يكن ماء ، حتى لو أرسل الله من السماء أنواعا من الخيرات والأرزاق مثلا كالمن والسلوى ، لجاز أن يقال فيه : أمطرت السماء خيرات ، أى أرسلتها إرسال المطر. فليس الشر خصوصية في هذه الصيغة الرباعية ، ولكن اتفق أن السماء لم ترسل شيئا سوى المطر إلا وكان عذابا ، فظن الواقع اتفاقا مقصودا في الوضع فنبه على تحقيق الأمر فيه وأحسن وأجمل.
(4). قوله «حرى غير ممطور حرى أن يكون غير ممطور» حرى الأول بمعنى ناحية وجانب. والثاني بمعنى جدير وحقيق. وممطور الأول بمعنى مصاب بالمطر. والثاني بمعنى مذهوب فيه. كذا يؤخذ من الصحاح. (ع)

[سورة الأعراف (7) : الآيات 85 إلى 87]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَها عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (87)

كان يقال لشعيب عليه السلام خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ معجزة شاهدة بصحة نبوّتى أوجبت عليكم الإيمان بى والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه ، فأوفوا ولا تبخسوا. فإن قلت : ما كانت معجزته؟ قلت : قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة ، لقوله قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ.

ولأنه لا بدّ لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه ، وإلا لم تصح دعواه ، وكان متنبئاً لا نبيا غير أنّ معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه. ومن معجزات شعيب عليه السلام : ما روى من محاربة عصى موسى عليه السلام التنين «1» حين دفع إليه غنمه. وولادة الغنم الدرع خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها ، ووقوع عصى آدم عليه السلام على يده في المرات السبع ، وغير ذلك من الآيات ، لأنّ هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام ، فكانت معجزات لشعيب. فإن قلت : كيف قيل الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وهلا قيل : المكيال والميزان ، كما في سورة هود عليه السلام؟ قلت : أريد بالكيل : آلة الكيل وهو المكيال. أو سمى ما يكال به بالكيل ، كما قيل : العيش ، لما يعاش به. أو أريد : فأوفوا الكيل ووزن الميزان. ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر ، ويقال : بخسته حقه : إذا نقصته إياه. ومنه قيل للمكس البخس. وفي أمثالهم : تحسبها حمقاء وهي باخس. وقيل أَشْياءَهُمْ لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعاتهم ، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوة كما يفعل أمراء الحرمين.

وروى أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا هي زيوف فقطعوها قطاعا ، ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بدلها زيوفا بَعْدَ إِصْلاحِها بعد الإصلاح فيها ، أى لا تفسدوا فيها بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم. وإضافته كإضافة قوله بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بمعنى بل مكركم في الليل والنهار ،

(1). قوله «التنين» هو ضرب من الحيات والدرع سود الرؤوس بيض سائر الأبدان ا ه. (ع)

أو بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف ذلِكُمْ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض. أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه. ومعنى خَيْرٌ لَكُمْ يعنى في الإنسانية وحسن الأحدوثة ، وما تطلبونه من التكسب والتربح ، لأن الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والسوية إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إن كنتم مصدقين لي في قولي ذلكم خير لكم وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ ولا تقتدوا بالشيطان في قوله لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ فتقعدوا بكل صراط أى بكل منهاج من مناهج الدين. والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ومحل تُوعِدُونَ وما عطف عليه : النصب على الحال أى : ولا تقعدوا موعدين وصادّين عن سبيل الله ، وباغيها عوجاً. فإن قلت : صراط الحق واحد ، وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ فكيف قيل : بكل صراط؟

قلت : صراط الحق واحد ، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة ، فكانوا إذا رأوا أحداً يشرع في شيء منها أو عدوه وصدّوه. فإن قلت : إلام يرجع الضمير في آمَنَ بِهِ؟ قلت : إلى كل صراط. تقديره : توعدون من آمن به وتصدّون عنه ، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير ، زيادة في تقبيح أمرهم، ودلالة على عظم ما يصدّون عنه. وقيل : كانوا يجلسون على الطرق والمراصد ، فيقولون لمن مرّ بهم : إن شعيباً كذاب فلا يفتننكم عن دينكم ، كما كان يفعل قريش بمكة. وقيل : كانوا يقطعون الطرق.

وقيل : كانوا عشارين وَتَبْغُونَها عِوَجاً وتطلبون لسبيل الله عوجا ، أى تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة ، لتصدّوهم عن سلوكها والدخول فيها : أو يكون تهكما بهم ، وأنهم يطلبون لها ما هو محال ، لأنّ طريق الحق لا يعوج وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا إذ مفعول به غير ظرف. أى : واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلا عددكم فَكَثَّرَكُمْ الله ووفر عددكم.

قيل : إن مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط فولدت فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا وفشوا. ويجوز إذ كنتم مقلين فقراء فكثركم : فجعلكم مكثرين موسرين. أو كنتم أقلة أذلة فأعزكم بكثرة العدد والعدد عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم ، كقوم نوح وهود وصالح ولوط ، وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفكة فَاصْبِرُوا فتربصوا وانتظروا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا أى بين الفريقين ، بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم. وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم ، كقوله فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ أو هو عظة للمؤمنين وحثّ على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم.
ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين ، أى ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن منهم ، حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ لأنّ حكمه حق وعدل ، لا يخاف فيه الحيف.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 88 إلى 89]

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ(89)

أى ليكوننّ أحد الأمرين : إمّا إخراجكم ، وإمّا عودكم في الكفر. فإن قلت : كيف خاطبوا شعيباً عليه السلام بالعود «1» في الكفر في قولهم أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا وكيف أجابهم بقوله إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير ، فضلا عن الكبائر ، فضلا عن الكفر؟ قلت : لما قالوا لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك ، فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا : لتعودنّ ، فغلبوا الجماعة على الواحد ، فجعلوهم عائدين جميعا ،

إجراء للكلام على حكم التغليب. وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال : إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا اللّه منها ، وهو يريد عود قومه ، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم

(1). قال محمود : «إن قلت كيف خاطبوا شعيباً بصيغة العود ... الخ» قال أحمد : والزمخشري بنى هذا الكلام على أن صيغة العود تستدعى رجوع العائد إلى حال كان عليها قبل. والتحقيق في الجواب عن السؤال المذكور مع اقتضاء العود لذلك : أن هذا الفعل وإن استعمل كذلك ، إلا أنه كثيراً ما يرد بمعنى صار. وحينئذ يجوز أن يكون أخا لكان ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك وهو الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتنفة مثل صار ، وكأنهم قالوا - واللّه أعلم - : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن كفاراً مثلنا ، وحينئذ يندفع السؤال. أو يسلم استعمال العود بمعنى الرجوع إلى أمر سابق. ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ والإخراج يستدعى دخولا سابقا فيما وقع الإخراج منه ، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الايمان لم يدخل قط في ظلمة الكفر ولا كان فيها وكذلك الكافر الأصلى لم يدخل قط في نور الايمان ولا كان فيه ، ولكن لما كان الايمان والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق اللّه العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكنا منه لو أراده ، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله عنه إلى الايمان إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور.
توفيقاً من اللّه له ولطفا به. وبالعكس في حق الكافر ، وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب. وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار لاقامة حجة اللّه على عباده ، واللّه أعلم.

وإن كان بريئا من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب ، فإن قلت : فما معنى قوله وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ واللّه تعالى متعال أن يشاء ردّة المؤمنين «1» وعودهم في الكفر «2»؟ قلت : معناه إلا أن يشاء اللّه خذلاننا ومنعنا الألطاف ، لعلمه انها لا تنفع فينا وتكون عبثاً. والعبث قبيح لا يفعله الحكيم ، والدليل عليه قوله وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أى هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون ، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحوّل ، وقلوبهم كيف تتقلب ، وكيف تقسو بعد الرقة ، وتمرض بعد الصحة ، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لازدياد الإيقان. ويجوز أن يكون قوله إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ حسما لطمعهم «3» في العود ، لأن مشيئة اللّه لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة «4» أَوَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ الهمزة للاستفهام ، والواو واو الحال ، تقديره : أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا ، ومع كوننا كارهين. وما يكون لنا ، وما ينبغي لنا ، وما يصح لنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا احكم بيننا. والفتاحة ، الحكومة ، أو أظهر أمرنا حتى يتفتح ما بيننا وَبَيْنَ قَوْمِنا وينكشف بأن تنزل عليهم عذاباً يتبين معه أنهم على الباطل وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ كقوله وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ. فإن قلت : كيف أسلوب قوله قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ؟ قلت : هو إخبار مقيد بالشرط ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون كلاما مستأنفاً فيه معنى التعجب ، كأنهم قالوا : ما أكذبنا على اللّه إن عدنا في الكفر بعد الإسلام ، لأنّ المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر ، لأنّ الكافر مفتر على اللّه الكذب ، حيث يزعم أنّ للّه نداً ولا ندّ له. والمرتدّ مثله في ذلك وزائد عليه ، حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفى عليه من التمييز بين الحق والباطل.

(1). قوله «و اللّه تعالى متعال أن يشاء ردة المؤمنين» أى تنزه عن أن يشاء ... الخ ، على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد الشر. أما عند أهل السنة فيريده كالخير. (ع)
(2). قال محمود : «إن قلت اللّه تعالى مقدس عن أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم إلى الكفر ... الخ». قال أحمد : وهذا السؤال كما ترى مفرع على القاعدة الفاسدة ، في اعتقاد وجوب رعاية الصلاح والأصلح ، وهو غير موجه على قاعدة السنة ، فظاهر الآية هو المعول عليه لا يجوز تأويله ولا تبديله. وأما استدلال الزمخشري على صحة تأويله بقوله وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً فمن احتيالاته في التأويلات الباطلة ، يعضدها ويتبع الشبه ويلفقها. وموقع قوله وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة والاطلاع على الأمور الغائبة ، فان العود إلى الكفر جائز في قدرة اللّه أن يقع من العبد ، ولو وقع فبقدرة اللّه ومشيئته المغيبة عن خلقه ، فالحذر قائم والخوف لازم ، ولكن لمن وفقه اللّه تعالى للعقيدة الصحيحة والايمان السالم ، واللّه الموفق. ونظيره قول إبراهيم عليه السلام وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً لما رد الأمر إلى المشيئة وهي مغيبة بحد اللّه تعالى بالانفراد بعلم الغائبات ، واللّه أعلم.
(3). عاد كلامه. قال : ويجوز أن يكون المراد حسم طمعهم ... الخ» قال أحمد : وهذا من الطراز الأول ، فألحقه به ، وسحقا سحقا.
(4). قوله «محال خارج عن الحكمة» مبنى على مذهب المعتزلة أيضا. (ع)

والثاني أن يكون قسما على تقدير حذف اللام ، بمعنى : واللّه لقد افترينا على اللّه كذبا.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 90 إلى 92]

وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (92)

وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ أى أشرافهم للذين دونهم يثبطونهم عن الإيمان لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ لاستبدالكم الضلالة بالهدى ، كقوله تعالى أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وقيل : تخسرون باتباعه فوائد البخس والتطفيف لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية. فإن قلت : ما جواب القسم الذي وطأته اللام في لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً وجواب الشرط؟ قلت : قوله إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ سادّ مسدّ الجوابين الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً مبتدأ خبره كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا وكذلك كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص ، كأنه قيل : الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا ، كأن لم يقيموا في دارهم، لأنّ الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله ، الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم ، دون أتباعه فإنهم الرابحون. وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير : مبالغة في ردّ مقالة الملإ لأشياعهم ، وتسفيه لرأيهم ، واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم.

[سورة الأعراف (7) : آية 93]

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (93)

الأسى : شدّة الحزن. قال العجاج :

وانحلبت عيناه من فرط الأسى

اشتدّ حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال : فكيف يشتدّ حزنى على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم ويجوز أن يريد لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حلّ بكم فلم تسمعوا قولي ولم تصدقوني فكيف آسى عليكم يعنى أنه لا يأسى عليهم لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى. وقرأ يحيى بن وثاب : فكيف إيسى ، بكسر الهمزة.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 94 إلى 95]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (95)

إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ بالبؤس والفقر وَالضَّرَّاءِ بالضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ليتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر والعزة ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة والرخاء والصحة والسعة كقوله وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ حَتَّى عَفَوْا كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم ، من قولهم : عفا النبات وعفا الشحم والوبر ، إذا كثرت. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «و أعفوا اللحى» «1» وقال الحطيئة :

بِمُسْتَأْسِدِ القرْيَانِ عَافَ نَبَاتُهُ «2»

وقال : ولكنّا نعضّ السّيف منها بأسوق عافيّات الشّحم كوم «3»

---

(1). تقدم في البقرة.

(2) فان نظرت يوما بمؤخر عينها إلى علم في الغور قالت أبعد
بأرض ترى فرخ الحبارى كأنها بها راكب موف على ظهر قردد
بمستأسد القريان عاف نباته تساقطنى والرحل من صوت هدد
لحطيئة. ومؤخر العين - كمؤمن - : جانبها. والعلم : الجبل والعلامة في الطريق. والغور : الموضع الغائر المنخفض.
وقالت له «ابعد» مجاز عن تركها إياه بسرعة ، فيبعد عنها. والحبارى : طير يهوى الجبال ، وفرخها يسمى النهار.
وفرخ الكروان يسمي الليل. والموفى : المشرف. والقردد - كهدهد - المكان الغليظ المرتفع. والمستأسد : النبات القوى الغليظ الطويل ، كما سمى السبع أسداً لقوته. والقريان - بالضم - جمع قرى كفعيل : مجرى الماء الذي يجمعه إلى الروض. والعافي الكثير ، يصف ناقته بسرعة السير وأنها لخوفها في ذلك الطريق لا تتمكن من تمام النظر إلى أعلامه ، فإذا لمحت فيه شبحاً أسرعت مبعدة عنه في أرض مجهل ، كأن فرخ الحبارى فيها راكب مشرف فوق مكان مرتفع. وقوله «بمستأسد» بدل من قوله «بأرض» أو متعلق بتساقطنى. والمعنى : أنه لا فرق عندها بين الحزن والسهل في نبات الغدران حال كثرته ، ترديني مع رحلها لسرعة سيرها من خوفها من صوت هدهد واحد. وعلى الأول ، تساقطني حال من فاعل «قالت» أو جواب الشرط ، وقالت له : ابعد ، صفة علم. وعبر بالتساقط ، لأن المعنى :
كلما تمكنت حركتنى ، حتى أكاد أسقط.

(3) إذا ما درها لم يقر ضيفا ضمن له قراه من الشحوم

فلا تتجاوز العضلات منها إلى البكر المعازب والكروم
ولكنا لعض السيف منها بأسوق عافيات الشحم كوم
البيد بن ربيعة العامري. يقول : إذا لم يكف در النوق في قرى الضيف ، كان قراء من شحومها ، فأسند القرى إلى اللبن لأنه آلته أو سببه. وإسناد الضمان إلى نوق الإبل مجاز أيضاً ، لأنها محل المضمون. والفعلان في الحقيقة لمالك الإبل. والمراد : أنها معدة لذلك إما بلبنها أو شحمها. والعضلة : الحسنة السمينة. والبكر : الفتى من الإبل ذكراً أو أنثى. والمعازب المهزول ، من عزب إذا أبعد. والمعزابة والمعزاب : الذي طالت عزوبته وبعده لعدم نسله أو لبعده عن البيوت ، فكأنه بمعنى المباعد في الأصل ، ثم أريد به المهزول مجازاً. والكزم بالزاي القصير. ومنه كزم ككتف. وأكزم وكزما ، فالكزوم كصبور القصيرة. وقيل المسنة التي قصر مشفرها الأسفل عن الأعلى. أو التي لم يبق لها سن من الهرم. وكزمه أيضا إذا كسره بمقدم فمه. ويجوز أن المعازب بالفتح جمع معزاب أو معزابة ، فيكون البكر مستعملا في معنى الجمع ، أى لا تترك الوسط السمان من الإبل ذاهبين إلى الصغار المهازيل والمسنات البالغات في الهرم ، ولكنا نجعل السيف يعض منها ، بأسوق جمع ساق مضاف إلى عافيات ، أى كثيرات الشحم لتركها من العمل سنة أو سنتين. والكوم جمع كوماء ، أى عظيمات الأسنمة مرتفعاتها. [.....]

وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ يعنى وأبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا : هذه عادة الدهر ، يعاقب في الناس بين الضراء والسراء. وقد مس آباؤنا نحو ذلك ، وما هو بابتلاء من الله لعباده ، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات والحسنات إلا أن نأخذهم بالعذاب فَأَخَذْناهُمْ أشد الأخذ وأفظعه ، وهو أخذهم فجأة من غير شعور منهم.

[سورة الأعراف (7) : آية 96]

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ(96)

اللام في القرى : إشارة إلى القرى التي دل عليها قوله وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ كأنه قال : ولو أنّ أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا آمَنُوا بدل كفرهم وَاتَّقَوْا المعاصي مكان ارتكابها لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لآتيناهم بالخير من كل وجه. وقيل أراد المطر والنبات وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بسوء كسبهم ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس. فإن قلت : ما معنى فتح البركات عليهم؟ قلت : تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها. ومنه قولهم : فتحت على القارئ ، إذا تعذرت عليه القراءة فيسرتها عليه بالتلقين.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 97 إلى 98]

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ (97) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ(98)

البيات يكون بمعنى البيتوتة. يقال : بات بياتاً. ومنه قوله تعالى فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ وقد يكون بمعنى التبييت ، كالسلام بمعنى التسليم. يقال : بيته العدو بياتاً ، فيجوز أن يراد : أن يأتيهم بأسنا بائتين ، أو وقت بيات، أو مبيتاً ، أو مبيتين ، أو يكون بمعنى تبييتاً ، كأنه قيل : أن يبيتهم بأسنا بياتاً. وضُحًى نصب على الظرف. يقال : أتانا ضحى ، وضحيا ، وضحاء والضحى - في الأصل - اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت. والفاء والواو في أَفَأَمِنَ وأَ وَأَمِنَ حرفا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار. فإن قلت : ما المعطوف عليه؟ ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت : المعطوف عليه قوله فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وقوله وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى إلى يَكْسِبُونَ وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه. وإنما عطف بالفاء ، لأنّ المعنى : فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى؟ وقرئ : أو أمن ، على العطف بأو وَهُمْ يَلْعَبُونَ يشتغلون بما لا يجدى عليهم كأنهم يلعبون.

[سورة الأعراف (7) : آية 99]

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (99)

فإن قلت : فلم رجع فعطف بالفاء قوله أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟ قلت : هو تكرير لقوله أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى ومكر الله : استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر. ولاستدراجه. فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله ، كالمحارب الذي يخاف من عدوّه الكمين والبيات والغيلة. وعن الربيع بن خثيم ، أن ابنته قالت له : مالى أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ، فقال : يا بنتاه ، إنّ أباك يخاف البيات ، أراد قوله أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً

[سورة الأعراف (7) : آية 100]

أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ(100)

إذا قرئ أَوَ لَمْ يَهْدِ بالياء كان أَنْ لَوْ نَشاءُ مرفوعاً بأنه فاعله ، بمعنى : أو لم يهد للذين يخلفون ، من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن ، وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، كما أصبنا من قبلهم ، وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورّثين. وإذا قرئ بالنون ، فهو منصوب كأنه قيل : أو لم يهد اللّه للوارثين هذا الشأن ، بمعنى : أولم نبين لهم أنا لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ كما أصبنا من قبلهم. وإنما عدّى فعل الهداية باللام لأنه بمعنى التبيين. فإن قلت : بم تعلق قوله تعالى وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ «1»؟ قلت : فيه أوجه ، أن يكون معطوفا على ما دلّ عليه معنى أَوَ لَمْ يَهْدِ كأنه قيل : يغفلون عن الهداية ، ونطبع على قلوبهم.

(1). قال محمود : «إن قلت بم يتعلق قوله وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ ... الخ» قال أحمد : بل يجوز واللّه عطفه عليه ، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع ، ولا يضرهم إن كانوا كفارا أو مقترفين للذنوب ، فليس الطبع من لوازم اقتراف الذنب ولا بد ، إذ الطبع هو التمادي على الكفر والإصرار والغلو في التصميم ، حتى يكون الموصوف به مأيوسا من قبوله للحق. ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المنابة. بل إن الكافر يهدد من تماديه على كفرهم بأن يطبع اللّه على قلبه ، فلا يؤمن أبداً ، وهو مقتضى العطف على أصبناهم ، فتكون الآية قد هددتهم بأمرين ، أحدهما :
الاصابة ببعض ذنوبهم ، والآخر الطبع على قلوبهم. وهذا الثاني أشد من الأول ، وهو أيضا نوع من الاصابة بالذنوب أو العقوبة عليها ، ولكنه أنكى أنواع العذاب وأبلغ صنوف العقاب. وكثيرا ما يعاقب اللّه على الذنب بالإيقاع في ذنب أكبر منه وعلى الكفر بزيادة التصميم عليه والغلو فيه ، كما قال تعالى : فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ كما زادت المؤمنين إيمانا إلى إيمانهم. وهذا النوع من الثواب والعقاب مناسب لما كان سببا فيه وجزاء عليه ، فثواب الايمان إيمان وثواب الكفر كفر. وإنما الزمخشري يحاذو من هذا الوجه دخول الطبع في مشيئة اللّه تعالى. وذلك عنده محال ، لأنه قبيح واللّه عنه متعال ، وأنى يتم الفرار من الحق. وكم من آية صرحت بوقوع الطبع من اللّه ، فضلا عن تعلق المشيئة به.

أو على يرثون الأرض أو يكون منقطعاً بمعنى : ونحن نطبع على قلوبهم. فإن قلت : هل يجوز أن يكون وَنَطْبَعُ بمعنى وطبعنا ، كما لَوْ نَشاءُ بمعنى : لو شئنا ، ويعطف على أصبناهم؟ قلت : لا يساعد عليه المعنى؟ لأن القوم كانوا مطبوعا على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها. وهذا التفسير يؤدى إلى خلوهم عن هذه الصفة ، وأن اللّه تعالى لو شاء لا تصفوا بها.

[سورة الأعراف (7) : آية 101]

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (101)

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها كقوله هذا بَعْلِي شَيْخاً في أنه مبتدأ وخبر وحال ويجوز أن يكون الْقُرى صفة لتلك ونَقُصُّ خبرا ، وأن يكون الْقُرى نَقُصُّ خبرا بعد خبر.

فإن قلت : ما معنى تِلْكَ الْقُرى حتى يكون كلاما مفيدا؟ قلت : هو مفيد ، ولكن بشرط التقييد بالحال كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قولك : هو الرجل الكريم. فإن قلت : ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها؟ قلت : معناه أنّ تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات اللّه من قبل مجيء الرسل أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أوّلا حين جاءتهم الرسل ، أى استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرّين ، لا يرعوون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات. ومعنى اللام تأكيد النفي وأنّ الإيمان كان منافياً لحالهم في التصميم على الكفر. وعن مجاهد : هو كقوله وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ. كَذلِكَ مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين.

[سورة الأعراف (7) : آية 102]

وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (102)

وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ الضمير للناس على الإطلاق ، أى وما وجدنا لأكثر الناس من عهد يعنى أنّ أكثرهم نقض عهد اللّه وميثاقه في الإيمان والتقوى وَإِنْ وَجَدْنا وإنّ الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين ، خارجين عن الطاعة مارقين. والآية اعتراض. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين ، وأنهم كانوا إذا عاهدوا اللّه

في ضرّ ومخافة ، لئن أنجيتنا لنؤمننّ ، ثم نجاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام : لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ، إلى قوله إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ والوجود بمعنى العلم من قولك : وجدت زيداً ذا الحفاظ ، بدليل دخول «إن» المخففة واللام الفارقة. ولا يسوغ ذلك إلا في المبتدإ والخبر. والأفعال الداخلة عليهما.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 103 إلى 105]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (105)

مِنْ بَعْدِهِمْ الضمير للرسل في قوله وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ أو للأمم فَظَلَمُوا فكفروا بآياتنا. أجرى الظلم مجرى الكفر لأنهما من واد واحد إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ أو فظلموا الناس بسببها حين او عدوهم وصدّوهم عنها ، وآذوا من آمن بها ، ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلماً ، فلذلك قيل : فظلموا بها ، أى كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه ، وهو موضع الإيمان. يقال لملوك مصر : الفراعنة ، كما يقال لملوك فارس الأكاسرة ، فكأنه قال : يا ملك مصر وكان اسمه قابوس. وقيل : الوليد بن مصعب بن الريان حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ فيه أربع قراآت ، المشهورة : وحقيق علىّ أن لا أقول «1» ،

(1). قال محمود : «فيه أربع قراآت ، المشهورة : وحقيق علىّ أن لا أقول ... الخ» قال أحمد : القلب يستعمل في اللغة على وجهين ، أحدهما : قلب الحقيقة إلى المجاز لوجه من المبالغة كقوله :
وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر
وكقوله :
قد صرح السر عن كتمان وابتذلت وضع المحاجن بالمهرية الدقن
فالحقيقة أن الضياطرة تشقى بالرماح ، والمهرية تبتذل بالمحاجن ، فعدل عن ذلك تنبيهاً على أن الرماح قد تنفصل وتنقصف في أجوافهم ، فعبر عن ذلك بالشقاء ، وأن المحاجن كثيرا ما ترفع وتوضع وتستعمل في ضرب المهرية ، وربما تمزقت عن ذلك فجعل ذلك ابتذالا لها ، وقد حام أبو الطيب حول هذا النوع كثيراً في أمثال قوله :
والسيف يشقى كما تشقى الضلوع به وللسيوف كما للناس آجال
والمراد بشقاء السيف : انقطاعه في أضلاع المضروب ، كما صرح بذلك في قوله :
طوال الرديينيات يقصفها دمى وبيض السريجيات يقطعها لحمى
الوجه الثاني : قلب معرى عن هذا المعنى البليغ ، ولذلك لا يستفصح ، كقولهم : خرق الثوب المسمار وأشباهه ، وعلى الوجه الأول الأفصح جاءت الآية على هذه القراءة ، وهو الوجه الرابع من وجوه الزمخشري ، وفي طيه من المبالغة ما نبهت عليه. وأما الوجه الثاني وهو «أن ما لزمك فقد لزمته» ففيه نظر من حيث أن اللزوم قد يكون من أحد الطرفين دون الآخر ، ولزوم موسى عليه السلام لقول الحق من هذا النمط ، وأما الوجه الثالث فلا يلائم بين القراءتين ، وقد ذكر لها وجه خامس : وهو أن يكون «على» بمعنى الباء ، ونقل «رميت على القوس» بمعنى رميت بالقوس ، وهو وجه حسن ملائم ، والله أعلم. ويشهد له قراءة أبى : حقيق بأن لا أقول.

وهي قراءة نافع وحقيق أن لا أقول وهي قراءة عبد الله وحقيق بأن لا أقول وهي قراءة أبىّ وفي المشهورة إشكال ، ولا تخلو من وجوه ، أحدها : أن تكون مما يقلب من الكلام لأمن الإلباس ، كقوله : وَتَشْقَى الرِّمَاحُ بِالضَّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ «1»

ومعناه : وتشقى الضياطرة بالرماح ، وحقيق علىّ أن لا أقول ، وهي قراءة نافع. والثاني : أنّ ما لزمك فقد لزمته ، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق ، أى لازماً له.

والثالث : أن يضمن حَقِيقٌ معنى حريص ، كما ضمن «هيجنى» معنى ذكرني في بيت الكتاب.

والرابع - وهو الأوجه - الأدخل في نكت القرآن : أن يعرق موسى «2» في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام لا سيما وقد روى أنّ عدو الله فرعون قال له - لما قال إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ كذبت ،

(1) كذبتم وبيت الله حين تعالجوا قوادم حرب لا تلين ولا نمرى
نزلت بخيل لا هوادة بينها وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر
لخداش بن زهير ، يقول لقومه : كذبتم وحق بيت الله : في دعواكم إمكان الصلح ، وهذا يعلم ضمنا من قوله «حين تعالجوا ، أو استعار الكذب للخطأ في الظن أو الرأى ، أى أخطأتم في ممارستكم الجماعات القادمات الحرب لأجل الصلح. ويشبه أن يكون قوله «تعالجوا» محرفا ، وأصله بالصاد والحاء بدل العين والجيم ، وعلى كل فحذف نونه للوزن أو للتخفيف ، و«لا تلين» صفة قوادم.

وأمرت الناقة : در لبنها ، شبه الرضاء بالصلح بأمر الناقة. على طريق التصريح ، ثم نفاه وبين ذلك بقوله «نزلت بخيل» أى في أصحاب خيل. ويحتمل أن الخيل مجاز عن الفرسان ، أو كناية عنهم. وروى «و تلحق خيل» فهو عطف على «لا تلين» أى : وتسرع خيل منها. والهوادة :
الصلح والبقية من القوم يرجى بها صلاحهم ، والمعنى أنهم لا يرجى صلحهم. وتشقى : أى تتعب الرماح بسبب الضياطرة ، وهو من باب القلب لا من اللبس. والمعنى : وتشقى الضياطرة بالرماح. والضيطر : الضخم الجبان.
وقياس جمعه ضياطير ، إلا أنه عوض الهاء من الياء. والحمر عند العرب : كناية عن العجم ، لأنها تصف الحسن بالأخضر ، والقبيح بالأحمر. والمعنى : تتعب ضياطرتهم من حمل رماحهم. ويجوز أن المراد من طعن رماحنا.
ويحتمل أن لا قلب ، وأنه بالغ في ضخمهم ، حتى كأن الرماح تتعب من طعنهم ، لكن الأول هو المنقول.
والمعنى : لا تصالحوهم بل نحاربهم.
(2). قوله «أن يعرق موسى» لعله : يغرق بالمعجمة. وفي الصحاح. أغرق النازع في القوس ، أى استوفى مدها. (ع)

فيقول : أنا حقيق على قول الحق أى واجب علىّ قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به ، ولا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ فخلهم حتى يذهبوا معى راجعين إلى الأرض المقدّسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم ، وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفى وانقرضت الأسباط ، غلب فرعون نسلهم واستعبدهم ، فأنقذهم الله بموسى عليه السلام ، وكان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 106 إلى 107]

قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (107)

فإن قلت : كيف قال له فَأْتِ بِها بعد قوله إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ؟ قلت : معناه إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فأتنى بها وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك ثُعْبانٌ مُبِينٌ ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان. وروى أنه كان ثعبانا ذكراً أشعر فاغراً فاه «1» بين لحييه ثمانون ذراعا ، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر ، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب ، وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك ، وهرب الناس وصاحوا ، وحمل على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً ، ودخل فرعون البيت وصاح : يا موسى ، خذه وأنا أو من بك وأرسل معك بنى إسرائيل ، فأخذه موسى فعاد عصى. فإن قلت : بم يتعلق لِلنَّاظِرِينَ؟ قلت يتعلق ببيضاء. والمعنى : فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيباً خارجا عن العادة ، يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب ، وذلك ما يروى أنه أرى فرعون يده وقال : ما هذه؟

قال : يدك ، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها ، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانيا غلب شعاعها شعاع الشمس ، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الأدمة.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 109 إلى 112]

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (110) قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (112)

(1). قوله «فاغراً فاه» أى فاتحا فاه. (ع)

إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ أى عالم بالسحر ماهر فيه ، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه ، حتى خيل إليهم العصى حية ، والآدم أبيض. فإن قلت قد عزى هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء ، وأنه قاله للملإ وعزى هاهنا إليهم. قلت : قد قاله هو وقالوه هم ، فحكى قوله ثم وقولهم هاهنا. أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ ، فقالوه لأعقابهم. أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ ، كما يفعل الملوك ، يرى الواحد منهم الرأى فيكلم به من يليه من الخاصة ، ثم تبلغه الخاصة العامة. والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ وقرئ سحار ، أى يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة. أو بخير منه.

وكانت هذه مؤامرة مع القبط. وقولهم فَما ذا تَأْمُرُونَ من أمرته فأمرنى بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأى. وقيل: فما ذا تأمرون؟ من كلام فرعون ، قاله للملإ لما قالوا له : إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم ، كأنه قيل : فما ذا تأمرون؟ قالوا : أرجئه وأخاه ، ومعنى أرجئه وأخاه أخرهما وأصدرهما عنك ، حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما. وقيل : احبسهما.

وقرئ : أرجئه ، بالهمزة. وأرجه ، من أرجأه وأرجاه.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 113 إلى 114]

وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (113) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114)

فإن قلت : هلا قيل : وجاء السحرة فرعون فقالوا؟ قلت : هو على تقدير سائل سأل : ما قالوا إذ جاءوه؟ فأجيب بقوله قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً أى جعلا على الغلبة : وقرئ : إن لنا لأجراً ، على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه : كأنهم قالوا : لا بد لنا من أجر ، والتنكير للتعظيم ، كقول العرب : إنّ له لإبلا ، وإنّ له لغنما ، يقصدون الكثرة. فإن قلت : وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ما الذي عطف عليه؟ قلت : هو معطوف على محذوف سدّ مسدّه حرف الإيجاب ، كأنه قال إيجابا لقولهم : إن لنا لأجراً : نعم إن لكم لأجراً ، وإنكم لمن المقرّبين ، أراد : إنى لأقتصر بكم على الثواب وحده ، وإنّ لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب ، وهو التقريب والتعظيم ، لأنّ المثاب إنما يتهنأ بما يصل إليه ويغتبط به إذا نال معه الكرامة والرفعة.

وروى أنه قال لهم : تكونون أول من يدخل وآخر من يخرج. وروى أنه دعا برؤساء السحرة ومعلميهم فقال لهم: ما صنعتم؟ قالوا قد علمنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض ، إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به. وروى أنهم كانوا ثمانين ألفاً. وقيل : سبعين ألفاً وقيل : بضعة وثلاثين ألفاً. واختلفت الروايات فمن مقل ومن مكثر. وقيل : كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى. وقيل : قال فرعون : لا نغالب موسى إلا بما هو منه ، يعنى السحر.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 115 إلى 122]

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ (119)

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (120) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (122)

تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين ، قبل أن يتخاوضوا في الجدال ، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع. وقولهم وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر ، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل ، وقد سوّغ لهم موسى ما تراغبوا فيه ازدراء لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم ، وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي ، وأنّ المعجزة لن يغلبها سحر أبداً سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ أروها بالحيل والشعوذة «1» وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه ، كقوله تعالى يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى . روى أنهم ألقوا حبالا غلاظاً وخشبا طوالا ، فإذا هي أمثال الحيات ، قد ملأت الأرض وركب بعضها بعضا وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وأرهبوهم إرهابا شديداً ، كأنهم استدعوا رهبتهم بِسِحْرٍ عَظِيمٍ في باب السحر. روى أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يوهم الحركة. قيل : جعلوا فيها الزئبق ما يَأْفِكُونَ ما موصولة أو مصدرية ،

(1). قال محمود : «معناه أروها بالحيل والشعوذة ... الخ» قال أحمد : معتقد المعتزلة إنكار وجود السحر والشياطين والجن في خبط طويل لهم. ومعتقد أهل السنة إقرارها الظواهر على ما هي عليه ، لأن العقل لا يحيل وجود ذلك.
وقد ورد السمع بوقوعه ، فوجب الإقرار بوجوده ، ولا يمنع عند أهل السنة أن يرقى الساحر في الهواء ، ويستدق فيتولج في الكوة الضيقة ، ولا يمنع أن يفعل الله عند إرشاد الساحر ما يستأثر الاقتدار عليه ، وذلك واقع بقدرة الله تعالى عند إرشاد الساحر. هذا هو الحق والمعتقد الصدق ، وإنما أجريت هذا الفصل لأن كلام الزمخشري لا يخلو من رمز إلى إنكاره ، إلا أن هذا النص القاطع بوقوعه يلجمه عن التصريح بالدفاع وكشف القناع ، ولا يدعه التصميم على اعتقاد المعتزلة من التنفيس عما في نفسه ، فيسميه شعوذة وحيلة. وبالقطع يعلم أن الشعوذة لا تعلم في يد ابن عمر رضى الله عنه حتى بكوعها ، ولا تؤثر في سيد البشر حتى يخيل اليه أنه يأتى نساءه وهو لا يأتيهن.
وقد ورد ذلك وأمثاله مستفيضا واقعا ، فالعمدة أن كل واقع فبقدرة الله تعالى ، فلا يمتنع أن يوقع تعالى بقدرته عند إرشاد الساحر أعاجيب يضل بها من يشاء ويهدى من يشاء ، والله الموفق.

بمعنى : ما يأفكونه أى يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزوّرونه. أو إفكهم ، تسمية للمأفوك بالإفك ، روى أنها لما تلقفت ملء الوادي من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصى كما كانت ، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة أو فرّقها أجزاء لطيفة قالت للسحرة : لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا فَوَقَعَ الْحَقُّ

فحصل وثبت. ومن بدع التفاسير : فوقع قلوبهم ، أى فأثر فيها من قولهم. قاس وقيع وَانْقَلَبُوا صاغِرِينَ وصاروا أذلاء مبهوتين وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ وخرّوا سجدا : كأنما ألقاهم ملق لشدّة خرورهم. وقيل : لم يتمالكوا مما رأوا ، فكأنهم ألقوا. وعن قتادة : كانوا أول النهار كفاراً سحرة ، وفي آخره شهداء بررة. وعن الحسن. تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا ، وهؤلاء كفار نشأوا في الكفر ، بذلوا أنفسهم للّه.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 123 إلى 124]

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124)

آمَنْتُمْ بِهِ على الإخبار ، أى فعلتم هذا الفعل الشنيع ، توبيخا لهم وتقريعاً. وقرئ : أآمنتم ، بحرف الاستفهام ، ومعناه الإنكار والاستبعاد إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ إن صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم ، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بنى إسرائيل ، وكان هذا الكلام من فرعون تمويها على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان. وروى أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر : أتؤمن بى إن غلبتك؟ قال لآتين بسحر لا يغلبه سحر.

وإن غلبتني لأومنن بك ، وفرعون يسمع ، فلذلك قال ما قال فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وعيد أجمله ثم فصله بقوله لَأُقَطِّعَنَّ وقرئ لأقطعن بالتخفيف ، وكذلك ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ مِنْ خِلافٍ من كل شق طرفا. وقيل : إن أوّل من قطع من خلاف وصلب لفرعون.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 125 إلى 126]

قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (125) وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (126)

إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ

فيه أوجه ، أن يريدوا : إنا لا نبالى بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلاصنا منك ومن لقائك. أو ننقلب إلى اللّه يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد القطع والصلب ، أو إنا جميعاً يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى اللّه فيحكم بيننا. أو إنا لا محالة ميتون منقلبون إلى اللّه ، فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات اللّه ، أرادوا : وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلّها ، وهو الإيمان. ومنه قوله : ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم «1»

أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا ، حتى يفيض علينا ويغمرنا ، كما يفرغ الماء فراغا. وعن بعض السلف : إن أحدكم ليفرغ على أخيه ذنوباً ثم يقول : قد مازحتك ، أى يغمره بالحياء والخجل. أو صب علينا ما يطهرنا من أوضار الآثام ، وهو الصبر على ما توعدنا به فرعون ، لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا كان ذلك مطهرة لهم وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ ثابتين على الإسلام.

[سورة الأعراف (7) : آية 127]

وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (127)

وَيَذَرَكَ عطف على لِيُفْسِدُوا لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم ، وكان ذلك مؤدّيا إلى ما دعوه فساداً وإلى تركه وترك آلهته ، فكأنه تركهم لذلك. أو هو جواب للاستفهام بالواو كما يجاب بالفاء ، نحو قول الحطيئة : ألم أك جاركم ويكون بيني وبينكم المودّة والإخاء «2»

والنصب بإضمار «أن» تقديره : أيكون منك ترك موسى ، ويكون تركه إياك وآلهتك. وقرئ : ويذرك وآلهتك بالرفع عطفا على أتذر موسى ، بمعنى : أتذره وأ يذرك ، يعنى : تطلق له ذلك.

أو يكون مستأنفا أو حالا على معنى : أتذره وهو يذرك وآلهتك. وقرأ الحسن : ويذرك بالجزم ،

(1) على عرفات للطعان عوابس بهن كلوم بين دام وجالب
إذا استنزلوا للطعن عنهن أرقلوا إلى الموت إرقال الجمال المصاعب
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
النابغة الذبياني يصف فرسانا على أفراس عارقات صابرات عوابس كوالح ، فيهن جروح رطبة بالدم ، وأخر يابسة ، عليها جلبة ، أى قشرة. وإذا التحم القتال واقتضى الحال نزولهم عن الخيل ، أسرعوا نازلين عنهن بائعين أعمارهم ، كاسراع الجمال المصاعب ، جمع مصعب. تقول : أصعبت الجمل إذا تركته عن العمل حتى صار صعبا شديدا. والفلول انثلامات في حد السيف. والقراع : المضاربة. والكتائب : الجماعات ، والبيت من استتباع المدح بما يشبه الذم ، أى إن كانت فلول السيف من ذلك عيباً ، فأثبته ، وهي ليست عيبا فلا عيب فيهم قط ، وهو مبالغة في المدح.

(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 578 فراجعه إن شئت ا ه مصححه

كأنه قيل : يفسدوا ، كما قرئ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ كأنه قيل : أصدّق. وقرأ أنس رضى اللّه عنه : ونذرك ، بالنون والنصب ، أى يصرفنا عن عبادتك فنذرها. وقرئ : ويذرك وإلاهتك ، أى عبادتك. وروى أنهم قالوا له ذلك ، لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس ، فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك وخافوا أن يغلبوا على الملك ، وقيل : صنع فرعون لقومه أصناما وأمرهم أن يعبدوها تقربا إليه كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام ، ويقولون : ليقربونا إلى اللّه زلفى ، ولذلك قال : أنا ربكم الأعلى سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ يعنى سنعيد عليهم ما كنا محناهم به من قتل الأبناء ، ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر ، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا ، وأن غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا ، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي أخبر المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده ، فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه ، وأنه منتظر بعد.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 128 إلى 129]

قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)

قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ قال لهم ذلك - حين قال فرعون : سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضجروا - يسكنهم ويسلبهم ، ويعدهم النصرة عليهم ، ويذكر لهم ما وعد اللّه بنى إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم. فإن قلت : لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على التي قبلها؟ قلت : هي جملة مبتدأة مستأنفة. وأمّا وَقالَ الْمَلَأُ فمعطوفة على ما سبقها من قوله قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وقوله إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يجوز أن تكون اللام للعهد ويراد أرض مصر خاصة ، كقوله وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر لأنها من جنس الأرض ، كما قال ضمرة : إنما المرء بأصغريه ، فأراد بالمرء الجنس ، وغرضه أن يتناوله تناولا أوليا وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط ، وأن المشيئة متناولة لهم. وقرأ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ بالنصب : أبىّ وابن مسعود ، عطفا على الأرض.

أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه السلام إلى أن استنبئ ، وإعادته عليهم بعد ذلك ، وما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن ويمسون به من العذاب عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل. وكشف عنه ، وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم. وعن عمرو بن عبيد رحمه اللّه أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان ، فطلب زيادة لعمرو فلم توجد ، فقرأ عمرو هذه الآية ، ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال : قد بقي فينظر كيف تعملون.

[سورة الأعراف (7) : آية 130]

وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130)

بِالسِّنِينَ بسنى القحط. و«السنة» من الأسماء الغالبة كالدابة والنجم ونحو ذلك ، وقد اشتقوا منها فقالوا : أسنت القوم ، بمعنى أقحطوا. وقال ابن عباس رضى اللّه عنه : أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم. وأمّا نقص

الثمرات فكان في أمصارهم. وعن كعب : يأتى على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمرة لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فيتنبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر «1» وتكذيبهم لآيات اللّه ، ولأن الناس في حال الشدّة أضرع خدودا وألين أعطافا وأرق أفئدة.

وقيل : عاش فرعون أربعمائة سنة ولم ير مكروها في ثلاثمائة وعشرين سنة ، ولو أصابه في تلك المدّة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية.

[سورة الأعراف (7) : آية 131]

فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (131)

فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ من الخصب والرخاء قالُوا لَنا هذِهِ أى هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها ولم نزل في النعمة والرفاهية ، واللام مثلها في قولك. الجل للفرس وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ من ضيقة وجدب يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ يتطيروا بهم ويتشاءموا ويقولوا : هذه بشؤمهم ، ولولا مكانهم لما أصابتنا ، كما قالت الكفرة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هذه من عندك. فإن قلت : كيف. قيل : فإذا جاءتهم الحسنة بإذا وتعريف الحسنة «2» ، وإن تصبهم سيئة بإنّ وتنكير السيئة؟

(1). قال محمود : «معنى لعلهم يذكرون : يتنبهون لأن ذلك كان لاصرارهم ... الخ» قال أحمد : دلت اللام على دعواهم استحقاق الحسنة. وأما دعوى اختصاصها بهم حتى لا يشركهم فيها أحد فدل عليه تقدير الخبر الذي هو لنا ، وقد علمت طريقة المصنف في إسناده الحصر من تقديم ما حقه أن يؤخر كالمفعول والخبر ونحوه.
(2). عاد كلامه. قال : فان قلت : «كيف قيل فإذا جاءتهم الحسنة ... الخ» قال أحمد : وقد ورد : إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ فلم يراع فرق ما بينهما ، ولعل بين سياق الآيتين اختلافا أوجب في كل واحد منهما ما ذكر فيه.

قلت : لأنّ جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه. وأمّا السيئة فلا تقع إلا في الندرة ، ولا يقع إلا شيء منها. ومنه قول بعضهم : قد عددت أيام البلاء ، فهل عددت أيام الرخاء طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أى سبب خيرهم وشرهم عند اللّه ، وهو حكمه ومشيئته ، واللّه هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة ، وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه ، كقوله تعالى قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ويجوز أن يكون معناه : ألا إنما سبب شؤمهم عند اللّه وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجرى عليهم ما يسوءهم لأجله ، ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم اللّه في قوله سبحانه النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها الآية. ولا طائر أشأم من هذا. وقرأ الحسن : إنما طيركم عند اللّه ، وهو اسم لجمع طائر غير تكسير ، ونظيره : التجر ، والركب. وعند أبى الحسن : هو تكسير.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 132 إلى 133]

وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (133)

مَهْما هي «ما» المضمنة معنى الجزاء «1» ، ضمت إليها «ما» المزيدة المؤكدة للجزاء في قولك : متى ما تخرج أخرج ،

(1). قال محمود : «مهما هي «ما» المضمنة معنى الجزاء ضمت إليها «ما» المزيدة المؤكدة للجزاء ... الخ» قال أحمد : والذي عده أولا من كلام سيبويه ، وسنذكره : قال سيبويه : وسألت الخليل عن مهما فقال : هي «ما» أدخلت معها «ما» ، بلغو بمنزلتها مع متى ، إذا قلت : متى ما تأتنى حدثتك. انتهى كلام سيبويه. وكأن هذا القائل - واللّه أعلم - اغتر بتشبيه الخليل لها بمتى ما ، فظنها في معناها. وإنما شبه الخليل بالثانية من مهما في لحاقها زائدة مؤكدة للأولى بما اللاحقة لمتى. عاد كلام سيبويه قال : ولكنهم استقبحوا تكرير لفظ واحد ، فأبدلوا الهاء من الألف التي في الأولى انتهى نقله عن الخليل. قال سيبويه : ويجوز أن تكون كذا ضمت اليها ما انتهى كلامه. قال أحمد : ومعنى تشبيه سيبويه لها بإذما أن الجزاء بجملة الكلمة لا بالجزء الأول منها خاصة وإلا لكان عين مذهب الخليل. والذي يحقق ذلك أن سيبويه قال أول هذا الباب : وأما «حيث» و«إذ» فلا يجازى بهما حتى يضم اليهما ما ، فتصير إذ مع ما بمنزلة إنما وكأنما ، وليست ما فيهما بلغو ، ولكن كل واحدة منهما مع ما بمنزلة حرف واحد ، فانظر قوله : وليست ما فيهما بلغو ، يعنى ليست زائدة مؤكدة ، ولكن لها حظ في اقتضاء الجزاء حتى لا يفيده إلا اجتماع جزئى الكلمة ويبقى وراء ذلك نظر في أن سيبويه هل أراد أن «ما» ضمت إلى «مه» التي هي الصوت ، أو إلى «ما» الجزائية.
والظاهر من مراده أن انضمامها إلى الصوت ، لأنها لو كانت منضمة إلى «ما» الجزائية ، لكانت مستقلة بافادة الجزاء قبل انضمام «ما» إليها ، ولا تكون مثل إذا وحيث ، ولا يكون تنظير سيبويه مطابقا. وهذا الذي فهمه ابن طاهر وتبعه فيه تلميذه ابن خروف.

وعزا ابن خروف هذا المذهب إلى سيبويه ، ورد قول ابن بابشاذ أن هذا المذهب للخليل خاصة ، وقد تواطأ ابن بابشاذ والزمخشري على نفى هذا المذهب عن سيبويه ، وإعزائه إلى غيره.
وأظهر ما قوى به مذهب الخليل - والله أعلم - أن هذه الكلمة استعملت في الاستفهام حسب استعمالها في الجزاء وأنشدوا :
مهما لي الليلة مهما ليه أودى بنعلي وسر ماليه
أراد : مالى الليلة ، ولا إشكال هاهنا أنها «ما» الاستفهامية كررت تأكيداً ، كما يقولون : لا لا ، ونعم نعم ، ثم استكره تكرار اللفظ بعينه ، فقلبت ألف الأولى هاء. وقد جاء قلب الاستفهامية وإن لم يكن تكرار ، فهو معه أجدر. وإذا وضح أن «مهما» الواقعة في الاستفهام أصلها «ما» مكررة ، كان ذلك أوضح دليل على أن الواقعة في الجزاء كذلك ، والاستشهاد بالنظائر أمين حجج العربية ، والله أعلم. وأما رد الزمخشري على من زعم أنها بمعنى «متى ما» فرد صحيح ، والآية أصدق شاهد على رده ، فان الضمير المجرور فيها عائد إلى مهما حتما ، وقد اتصل به مفسراً له قوله مِنْ آيَةٍ دل على أن الضمير واقع على الآية ، فلزم وقوع «مهما» عليها ضرورة إيجاد المرجع في المضمر ومظهره ، فذهاب هذا القائل إلى إيقاع «مهما» على الوقت زاعما أنها بمعنى «متى ما» ذهاب عن الصواب.
وعذر الزمخشري واضح في الرد على تسجيله وإغلاظ النكير عليه ، وتفويق سهام التشنيع إليه. فتأمل هذا الفصل ، ففيه إنارة للسبيل، وشفاء للغليل ، والله الموفق.

أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ، فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ إلا أنّ الألف قلبت هاء استثقالا لتكرير المتجانسين وهو المذهب السديد البصري ، ومن الناس من زعم أن «مه» هي الصوت الذي يصوت به الكاف ، و«ما» للجزاء ، كأنه قيل : كف ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين. فإن قلت : ما محل مهما؟ قلت : الرفع بمعنى : أيما شيء تأتنا به. أو النصب ، بمعنى : أيما شيء تحضرنا «1» تأتنا به. ومن آية : تبيين لمهما. والضميران في بِهِ وبِها راجعان إلى مهما ، إلا أنّ أحدهما ذكر على اللفظ ، والثاني أنث على المعنى ، لأنه في معنى الآية. ونحوه قول زهير :

ومهما يكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على النّاس تعلم «2»

وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له في علم العربية ، فيضعها غير موضعها ، ويحسب مهما بمعنى متى ما ، ويقول مهما جئتني أعطيتك ، وهذا من وضعه ، وليس من كلام واضع العربية في شيء ، ثم يذهب فيفسر مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ بمعنى الوقت ، فيلحد في آيات الله وهو لا يشعر ، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثوّ بين يدي الناظر في كتاب سيبويه. فإن قلت : كيف سموها آية ، ثم قالوا لتسحرنا بها؟ قلت : ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية ، وإنما سموها اعتباراً لتسمية موسى ، وقصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي الطُّوفانَ ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل. قيل : طغى الماء فوق حروثهم ، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة ، لا يرون شمساً ولا قمراً ،

(1). قوله «أيما شيء تحضرنا» لعله تحضر فقط. (ع)
(2). لزهير بن أبى سلمى من معلقته. ومهما : اسم شرط بمعنى أى شيء على المختار ، فلذلك يعود عليه الضمير ، ثم إن كان المراد به مؤنثا كما هنا ، فتارة يعود عليه الضمير مذكراً باعتبار اللفظ كما في قوله «يكن» وتارة مؤنثا باعتبار المعنى كما في قوله «و إن خالها» ولم يجعل هذا عائداً على الخليقة ، لأن «مهما» هو المحدث عنه ، و«من خليقة» بيان له. ولما بين بالمؤنث حسن تأنيث ضميره بعد بيانه. يقول : أى طبيعة وسجية تكون في الإنسان تعلم الناس بأماراتها ، وإن ظنها خافية عليهم.

ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره. وقيل أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا يهلكون ، وبيوت بنى إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة ، فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ، فمن جلس غرق ، ولم تدخل بيوت بنى إسرائيل قطرة ، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف ، ودام عليهم سبعة أيام. وعن أبى قلابة : الطوفان الجدري ، وهو أوّل عذاب وقع فيهم ، فبقى في الأرض. وقيل : هو الموتان «1» وقيل : الطاعون ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك ، فدعا فرفع عنهم ، فما آمنوا ، فنبت لهم تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يعهد بمثله ، فأقاموا شهراً ، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت عامة زروعهم وثمارهم ، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل منها شيء ، ففزعوا إلى موسى ووعدوه التوبة ، فكشف عنهم بعد سبعة أيام : خرج موسى عليه السلام إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب ، فرجع الجراد إلى النواحي التي جاء منها ، فقالوا : ما نحن بتاركي ديننا ، فأقاموا شهراً ، فسلط الله عليهم القمل وهو الحنان في قول أبى عبيدة كبار القردان. وقيل : الدبا وهو أولاد الجراد. قيل : نبات أجنحتها. وقيل : البراغيث. وعن سعيد بن جبير : السوس ، فأكل ما أبقاه الجراد، ولحس الأرض ، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه ، وكان يأكل أحدهم طعاماً فيمتلئ قملا ، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا يسيرا. وعن سعيد ابن جبير. أنه كان إلى جنبهم كثيب أعفر ، فضربه به موسى بعصاه فصار قملا ، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ، ولزم جلودهم كأنه الجدري ، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فرفع عنهم ، فقالوا : قد تحققنا الآن أنك ساحر ، وعزة فرعون لا نصدقك أبدا ، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع ، فدخلت بيوتهم وامتلأت منها آنيتهم

وأطعمتهم ، ولا يكشف أحد شيئا من ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع ، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فيه ، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرقاد ، وكانت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلى ، وفي التنانير وهي تفور ، فشكوا إلى موسى وقالوا : ارحمنا هذه المرة ، فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود ، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف اللّه عنهم ، ثم نقضوا العهد ، فأرسل اللّه عليهم الدم فصارت مياههم دماً ، فشكوا إلى فرعون فقال : إنه سحركم فكان يجمع بين القبطي والاسرائيلى على إناء واحد ، فيكون ما يلي الإسرائيلى ماء

(1). قوله «و قيل هو الموتان» في الصحاح : الموتان - بالضم : موت يقع في الماشية. وفيه أيضا : الطاعون الموت الوحى من الوباء. وفيه. الوحي ، على فعيل : السريع. (ع) [.....]

وما يلي القبطي دماً ، ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبطي الدم وللإسرائيلى الماء ، حتى إن المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية : اجعلي الماء في فيك ثم مجيه في فىّ ، فيصير الماء في فيها دماً.

وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك ، فكان يمص الأشجار الرطبة ، فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحاً أجاجا. وعن سعيد بن المسيب : سال عليهم النيل دما. وقيل : سلط اللّه عليهم الرعاف وروى أنّ موسى عليه السلام مكث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات ، وروى أنه لما أراهم اليد والعصا ونقص النفوس والثمرات قال : يا رب ، إنّ عبدك هذا قد علا في الأرض فخذه بعقوبة تجعلها له ولقومه نقمة ، ولقومي عظة ، ولمن بعدي آية. فحينئذ بعث اللّه عليهم الطوفان ، ثم الجراد ، ثم ما بعده من النقم. وقرأ الحسن : والقمل، بفتح القاف وسكون الميم ، يريد القمل المعروف آياتٍ مُفَصَّلاتٍ نصب على الحال. ومعنى مفصلات : مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات اللّه التي لا يقدر عليها غيره ، وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم. أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم ، وينظر أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم ، أم ينكثون إلزاماً للحجة عليهم؟

[سورة الأعراف (7) : الآيات 134 إلى 136]

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (136)

بِما عَهِدَ عِنْدَكَ ما مصدرية. والمعنى بعهده عندك وهو النبوّة والباء إمّا أن تتعلق بقوله ادْعُ لَنا رَبَّكَ على وجهين: أحدهما أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد اللّه وكرامته بالنبوّة. أو ادع اللّه لنا متوسلا إليه بعهده عندك. وإمّا أن يكون قسما مجاباً بلنؤمنن ، أى أقسمنا بعهد اللّه عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننّ لك إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إلى حدّ من الزمن هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ جواب لما ، يعنى : فلما كشفناه عنهم فاجئوا النكث وبادروا لم يؤخروه ولكن كما كشف عنهم نكثوا فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فأردنا الانتقام منهم فَأَغْرَقْناهُمْ. واليهم : البحر الذي لا يدرك قعره. وقيل : هو لجة البحر ومعظم مائه ، واشتقاقه من التيمم ، لأن المستنفعين به يقصدونه بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا أى كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها.

[سورة الأعراف (7) : آية 137]

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ (137)

الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ هو بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه. والأرض : أرض مصر والشام ، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة ، وتصرفوا كيف شاءوا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية بارَكْنا فِيها بالخصب وسعة الأرزاق كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى قوله وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ إلى قوله ما كانُوا يَحْذَرُونَ والحسنى : تأنيث الأحسن صفة للكلمة. ومعنى تمت على بنى إسرائيل : مضت عليهم واستمرت من قولك : تمَّ على الأمر إذا مضى عليه بِما صَبَرُوا بسبب صبرهم ، وحسبك به حاثاً على الصبر ، ودالا على أنّ من قابل البلاء بالجزع وكله اللّه إليه ، ومن قابله بالصبر وانتظار النصر ضمن اللّه له الفرج. وعن الحسن : عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله. وتلا الآية.

ومعنى خف : طاش جزعا وقلة صبر ، ولم يرزن رزانة أولى الصبر. وقرأ عاصم في رواية : وتمت كلمات ربك الحسنى. ونظيره مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى . ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ما كانوا يعملون ويسوّون من العمارات وبناء القصور وَما كانُوا يَعْرِشُونَ من الجنات هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ أو وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء. كصرح هامان وغيره.
وقرئ : يعرشون ، بالكسر والضم. وذكر اليزيدي أن الكسر أفصح. وبلغني أنه قرأ بعض الناس. يغرسون ، من غرس الأشجار. وما أحسبه إلا تصحيفا منه.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 138 إلى 140]

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (139) قالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (140)

وهذا آخر ما اختصّ اللّه من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات اللّه وظلمهم ومعاصيهم ثم أتبعه اقتصاص نبأ بنى إسرائيل وما أحدثوه - بعد إنقاذهم من ملكة فرعون واستعباده ، ومعاينتهم الآيات العظام ، ومجاوزتهم البحر - من عبادة البقر وطلب رؤية اللّه جهرة ، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي ، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفه ظلوم كفار جهول كنود ، إلا من عصمه اللّه وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ وليسلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مما رأى من بنى إسرائيل بالمدينة. وروى أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك اللّه تعالى فرعون وقومه ، فصاموه شكراً للّه تعالى فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ فمرّوا عليهم يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ يواظبون على عبادتها ويلازمونها. قال ابن جريج : كانت تماثيل بقر ، وذلك أوّل شأن العجل وقيل : كانوا قوماً من لخم. وقيل: كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم وقرئ : وجوّزنا ، بمعنى أجزنا. يقال : أجاز المكان وجوزه وجاوزه بمعنى جازه ، كقولك : أعلاه وعلاه وعالاه. وقرئ : يعكفون ، بضم الكاف وكسرها اجْعَلْ لَنا إِلهاً صنما نعكف عليه كَما لَهُمْ آلِهَةٌ أصنام يعكفون عليها. «و ما» كافة للكاف ، ولذلك وقعت الجملة بعدها وعن على رضى اللّه عنه أنّ يهوديا قال له : اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجفّ ماؤه. فقال : قلتم اجعل لنا إلها قبل أن تجفّ أقدامكم إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى ، فوصفهم بالجهل المطلق وأكده ، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع إِنَّ هؤُلاءِ يعنى عبدة تلك التماثيل مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ مدمّر مكسر ما هم فيه ، من قولهم إناء متبر ، إذا كان فضاضا «1». ويقال لكسار الذهب : التبر ، أى يتبر اللّه ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدىّ ، ويحطم أصنامهم هذه ويتركها رضاضاً وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلا وهو باطل مضمحل لا ينتفعون به وإن كان في زعمهم تقربا إلى اللّه كما قال تعالى وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً وفي إيقاع هؤُلاءِ اسما لإن ، وتقديم خبر المبتدإ من الجملة الواقعة خبراً لها وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار ، وأنه لا يعدوهم البتة ، وأنه لهم ضربة لازب ، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً ، وهو فعل بكم ما فعل دون غيره ، من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحداً غيركم ، لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره. ومعنى الهمزة : الإنكار والتعجب من طلبتهم - مع كونهم مغمورين في نعمة اللّه - عبادة غير اللّه.

[سورة الأعراف (7) : آية 141]

وَإِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)

يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يبغونكم شدّة العذاب ، من سام السلعة إذا طلبها. فإن قلت : ما محل يسومونكم؟

(1). قوله «فضاضا» أى فتاتا كالرضاض. أفاده الصحاح. (ع)

قلت : هو استئناف لا محلّ له. ويجوز أن يكون حالا من المخاطبين أو من آل فرعون.

وذلِكُمْ اشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب. والبلاء : النعمة أو المحنة. وقرئ : يقتلون. بالتخفيف.

[سورة الأعراف (7) : آية 142]

وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)

وروى أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك اللّه عدوّهم ، أتاهم بكتاب من عند اللّه فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذى القعدة ، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فسوك ، فقالت الملائكة : كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك. وقيل : أوحى اللّه تعالى إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ، فأمره اللّه تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك. وقيل : أمره اللّه أن يصوم ثلاثين يوماً ، وأن يعمل فيها بما يقرّبه من اللّه ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها. ولقد أجمل ذكر الأربعين في سورة البقرة ، وفصلها هاهنا. ومِيقاتُ رَبِّهِ ما وقته له من الوقت وضربه له. وأَرْبَعِينَ لَيْلَةً نصب على الحال أى تمَّ بالغاً هذا العدد. وهارُونَ عطف بيان لأخيه. وقرئ بالضم على النداء اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي كن خليفتي فيهم وَأَصْلِحْ وكن مصلحاً. أو أصلح ما يجب أن يصلح من أمور بنى إسرائيل ، ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه.

[سورة الأعراف (7) : آية 143]

وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)

لِمِيقاتِنا لوقتنا الذي وقتنا له وحدّدنا. ومعنى اللام الاختصاص ، فكأنه قيل : واختص مجيئه بميقاتنا ، كما تقول : أتيته لعشر خلون من الشهر وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ من غير واسطة «1» كما يكلم الملك ،

(1). قال محمود : «معناه كلمه من غير واسطة ... الخ» قال أحمد : وهذا تصريح منه بخلق الكلام ، كما هو معتقد المعتزلة ، والذي يخص به هذه الآية من وجره الرد عليه : أنها سيقت مساق الامتنان على موسى باصطفاء اللّه له وتخصيصه إياه بتكليمه ، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ فلو كان تكليم اللّه له بمعنى خلق الحروف والأصوات في بعض الأجرام واستماع موسى لذلك ، لكان كل أحد يساوى موسى عليه السلام في ذلك ، بل كان آحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام آثر بهذه المزية وأحق بالخصوصية من موسى عليه السلام ، لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأزكاها خلقاً في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكانت مزيتهم أظهر وخصوصيتهم أوفر. ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تمييز موسى عليه الصلاة والسلام بهذه المزية ، فلا يحمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات اللّه سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها ، وكما أجزنا من المعقول أن ترى ذات الباري سبحانه وتعالى وإن لم يكن جسما ، فكذلك نجيز أن يسمع كلامه وإن لم يكن حرفا ولا صوتا.
والكلام في هذه العقيدة طويل ، والشوط بطين. وهذه النكتة هي الخاصة بهذه الآية ، واللّه الموفق.

وتكليمه : أن يخلق الكلام «1» منطوقا به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطا في اللوح وروى : أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : كلمه أربعين يوما وأربعين ليلة ، وكتب له الألواح. وقيل إنما كلمه في أول الأربعين أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ثانى مفعولي أرنى محذوف «2» أى أرنى نفسك أنظر إليك. فإن قلت : الرؤية عين النظر ، فكيف قيل : أرنى أنظر إليك؟

(1). قوله «و تكليمه أن يخلق الكلام» هذا على مذهب المعتزلة : أن كلامه تعالى ألفاظ يخلقها اللّه في بعض الأجرام. أما على مذهب أهل السنة ، فان كلامه تعالى صفة قديمة قائمة بذاته ، فتكليمه لعبده أن يكشف له عنها ، كما تقرر في علم التوحيد. (ع)
(2). عاد كلامه. قال : «و قوله أرنى أنظر إليك محذوف المفعول الأول مذكور الثاني ، والتقدير أرنى نفسك أنظر إليك ... الخ» قال أحمد : ما أشد ما اضطرب كلامه في هذه الآية ، لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة ، ويشين بكفه وجه الغزالة ، هيهات قد تبين الصبح لذي عينين ، فالحق أبلج لا يمازجه ريب إلا عند ذى رين. أما حظ المعقول من إجازة رؤية اللّه تعالى فوظيفة علم الكلام ، وأخصر وجه في إجادة ذلك : أن الوجود مصحح الرؤية ، بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححاً. وقد شمل الجواز الجوهر والعرض ، ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححاً سوى الوجود ، وإذا كان الوجود هو المصحح فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده. وأما استبعاد أن يرى ما ليس في جهة فأمر وهمي مثله عرض للمعطلة فعميت بصائرهم ، حتى أنكروا موجوداً لا في جهة ، ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال وهام ، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرئي لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف ، ولا خلاف أنه سبحانه يعرف لا في جهة ، فكذلك يرى لا في جهة ، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه ، لعلمه بجواز ذلك على اللّه تعالى ، والقدرية يجبرهم الطمع ويجرؤهم حتى يرووا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم ، وما هم حينئذ إلا ممن آذوا موسى فبرأه اللّه مما قالوا وكان عند اللّه وجيها «و أما قوله عليه السلام :
أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا تبريا من أفاعيلهم وتسفيها لهم وتضليلا لرأيهم ، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى عليه السلام لجواز الرؤية ، فان الذي كان الإهلاك بسببه إنما هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين ثم. وإن كان السبب طلبهم الرؤية ، فليس لأنها غير جائزة على اللّه. ولكن لأن اللّه تعالى أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا والخبر صدق ، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية فلما

سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها ، كان طلبهم خلاف المعلوم تكذيباً للخبر ، فمن ثم سفههم موسى عليه السلام وتبرأ من طلب ما أخبر الله أنه لا يقع ثم ، ولو كان سؤالهم الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها ، فإنما سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة ، وتوقيفهم الايمان عليها حيث قالوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ألا ترى أن قولهم لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً إنما سألوا فيه جائزاً ، ومع ذلك قرعوا به لاقتراحهم على الله مالا يتوقف وجوب الايمان عليه ، فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى وعمايته عن سبيل الهدى ، والله الموفق.

قلت : معنى أرنى نفسك ، اجعلنى متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك ، فإن قلت : فكيف قال لَنْ تَرانِي ولم يقل لن تنظر إلىّ ، لقوله أَنْظُرْ إِلَيْكَ؟ قلت : لما قال أَرِنِي بمعنى اجعلنى متمكناً من الرؤية التي هي الإدراك ، علم أن الطلبة هي الرؤية «1» لا النظر الذي لا إدراك معه ، فقيل : لن تراني ، ولم يقل لن تنظر إلىّ. فإن قلت : كيف طلب موسى عليه السلام ذلك - وهو من أعلم الناس بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز ، وبتعاليه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس ، وذلك إنما يصحّ فيما كان في جهة. وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة. ومنعُ المجبرة إحالته «2» في العقول غير لازم ، لأنه ليس بأوّل مكابرتهم وارتكابهم ، وكيف يكون طالبه وقد قال - حين أخذت الرجفة الذين قالوا أرنا الله جهرة - أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إلى قوله تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء وضلالا - ؟ قلت : ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالا. وتبرأ من فعلهم ، وليلقمهم الحجر ، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق ، فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا : لا بدَّ ، ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك ، وهو قوله لَنْ تَرانِي ليتيقنوا وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة ، فلذلك قال : رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ. فإن قلت : فهلا قال : أرهم ينظروا إليك «3»؟ قلت : لأنّ الله سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسماعون ، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه ، كما أسمعه كلامه فسمعوه معه ، إرادة مبنية على قياس فاسد. فلذلك قال موسى :

(1). قوله «أن الطلبة هي الرؤية» في الصحاح «الطلبة» بكسر اللام : ما طلبته من شيء. (ع)

(2). قوله «و منع المجبرة إحالته» يعني أهل السنة ، حيث ذهبوا إلى جواز رؤيته تعالى ومنعوا اشتراط كون المرئي في جهة. قال تعالى وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ والجائز قد ينتفي في بعض الأوقات ويقع في بعض.
والحديث كما سيأتي «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» ومحل الكلام علم الكلام. (ع)

(3). عاد كلامه. قال : فان قلت : هلا قال أرهم ينظروا إليك ... الخ»؟ قال أحمد : وهذا الكلام الآخر من الطراز الأول ، وأقرب شاهد على رده أنه لو كان طلب الرؤية لهم حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان طلبها عبثا غير مفيد لهذا الغرض، لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم. إما أن يكونوا مؤمنين بموسى ، أو كفاراً به ، فان كانوا مؤمنين به ، فاخباره إياهم بأن الله تعالى لا يرى ولا يجوز عليه ذلك ، كان في حصول المقصود من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن ير به ذاته ، على علم بأن ذلك محال. وإن كانوا كفاراً بموسى عليه السلام فلا يحصل الغرض من ذلك أيضا ، لأن الله تعالى إذا منعه مسؤله من الرؤية ، فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى أنه منعه ذلك ، وهم كفار بموسى عليه السلام ، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك؟ فهذا أوضح مصداق ، لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً لجوازهاعلى الله تعالى ، فأخبره الله أن ذلك لا يقع في الدنيا وإن كان جائزاً.

أرنى أنظر إليك ، ولأنه إذا زجر عما طلب ، وأنكر عليه في نبوّته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى ، وقيل له: لن يكون ذلك : كان غيره أولى بالإنكار ، ولأنّ الرسول إمام أمته ، فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب راجعاً إليهم. وقوله أَنْظُرْ إِلَيْكَ وما فيه من معنى المقابلة «1» التي هي محض التشبيه والتجسيم ، دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم ، وجل صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه ، مقابلا بحاسة النظر ، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، والنظام ، وأبى الهذيل والشيخين ، وجميع المتكلمين؟ فإن قلت : ما معنى لَنْ؟ قلت : تأكيد النفي الذي تعطيه «لا» «2» وذلك أن «لا» تنفى المستقبل. تقول : لا أفعل غداً ، فإذا أكدت نفيها قلت : لن أفعل غداً. والمعنى : أنّ فعله ينافي حالى ، كقوله لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ فقوله لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ نفى للرؤية فيما يستقبل. ولن تراني تأكيد وبيان ، لأنّ المنفي مناف لصفاته. فإن قلت : كيف اتصل الاستدراك في قوله وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ بما قبله؟ قلت : اتصل به على معنى أنّ النظر إلىّ محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر : وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم ، كيف أفعل به وكيف أجعله دكا بسبب طلبك الرؤية؟ لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره ، كأنه عزّ وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد «3» إليه في قوله وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً.

(1). عاد كلامه. قال : و«قوله أنظر إليك وما فيه من معنى المقابلة ... الخ» قال أحمد : ودعواه أن النظر يستلزم الجسمية قد سلف ردها. وأما تنزيهه موسى عليه السلام بنسبة اعتقاد استحالة الرؤية إليه فهو غنى عنه.
وأما إقناعه في تفصيله برجحانه عليه السلام في العلم بالله وبصفاته على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام وأبى الهذيل والشيخين ، فهو نقص عن منصبه العلي ، وأقل العوام المقلدين لأهل السنة ، راجح عند الله على أصحاب البدع والأهواء ، وإن ملؤوا الأرض نفاقا ، وشحنوا مصنفاتهم عناداً لأهل السنة وشقاقا ، فكيف بكليم الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

(2). عاد كلامه. قال : «فان قلت ما معنى لن؟ قلت تأكيد النفي الذي تعطيه لا ... الخ» قال أحمد. «لن» كما قال تشارك «لا» في النفي وتمتاز بمزية تأكيده. وأما استنباط الزمخشري من ذلك منافاة الرؤية لحال الباري عز وجل ، ثم إطلاق الحال على الله تعالى مما

يستحرز عنه ، واستشهاده على أن «لن» تشعر باستحالة المنفي بها عقلا ، مردود كثيراً بكثير من الآي ، كقوله تعالى فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً فذلك لا يحيل خروجهم عقلا ، ولَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ، لَنْ تَتَّبِعُونا. فهذه كلها جائزات عقلا ، لولا أن الخبر منع من وقوعها ، فالرؤية كذلك.

(3). عاد كلامه. قال : «ثم حقق تعالى عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد ... الخ» قال أحمد : نسبة جواز الرؤية إلى اللّه تعالى عند الزمخشري كنسبة الولد إليه ، وهذا مفرع على المعتقد السالف بطلانه ، وليس له في هذا الفصل وظيفة إلا تتبع الشبه لامتناع الرؤية ، تلقفها من كل فج. والحق أن دك الجبل إنما كان لأن اللّه عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء. ولا تستقر الدنيا لإظهار شيء من ملكوت السماء. وهذا هو المأثور عن السلف في هذه الآية. ومعناه عند أبى الحسن رحمه اللّه فعل فعلا سماه تجليا ، وكان الغضب إما لأنهم طلبوا رؤية جسمانية في جهة ، وإما لأنهم كتموا الخبر. بأنه لا يرى في الدنيا ، وإما لأنهم كفروا بالاقتراح أو بالمجموع.

فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً «1» في جهاته فَسَوْفَ تَرانِي تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه دكا ويسويه بالأرض ، وهذا كلام مدمج بعضه في بعض ، وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع. ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك؟ ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية؟ أعنى قوله فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي. فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته جَعَلَهُ دَكًّا أى مدكوكا مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير. والدكّ والدقّ أخوان ، كالشك والشق. وقرئ دكاء. والدكاء : اسم للرابية الناشزة من الأرض ، كالدكة أو أرضاً دكاء مستوية. ومنه قولهم : ناقة دكاء متواضعة السنام ، وعن الشعبي : قال لي الربيع بن خثيم: ابسط يدك دكاء ، أى مدّها مستوية. وقرأ يحيى بن وثاب : دكا ، أى قطعاً دكا جمع دكاء وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً من هول ما رأى. وصعق من باب : فعلته ففعل. يقال صعقته فصعق. وأصله من الصاعقة. ويقال لها الصاقعة ، من صقعه إذا ضربه على رأسه ومعناه : خرّ مغشياً عليه غشية كالموت ، وروى أنّ الملائكة مرّت عليه وهو مغشى عليه «2» فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون : يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة؟ فَلَمَّا أَفاقَ من صعقته قالَ سُبْحانَكَ أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها تُبْتُ إِلَيْكَ من طلب الرؤية وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بأنك لست بمرئىّ ولا مدرك بشيء من الحواس. فإن قلت : فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته، فممّ تاب «3»؟ قلت : من إجرائه تلك المقالة العظيمة وإن كان لغرض صحيح على لسانه ،

---

(1). عاد كلامه. قال : «و معنى فان استقر مكانه : فان ثبت كما كان ذاهبا ... الخ» قال أحمد : وهذا من حيل القدرية في إحالة الرؤية يقولون : قد علقها اللّه على شرط محال وهو استقرار الجبل حال دكه ، والمعلّق على المحال محال. وهذه حيلة باطلة ، فان المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار ، وذلك ممكن جائز ، وتعلق العلم بأنه لا يستقر له ، لا يرفع إمكان استقراره ، وتعلق العلم لا يغير المعلوم ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع ولا العكس. وحينئذ يتوجه دليلا لأهل السنة فنقول : استقرار الجبل ممكن ، وقد علق عليه وقوع الرؤية ، والمعلق على الممكن ممكن ، والمعتزلة يعتقدون أن خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدوراً ونحن نقول مقدور ، ولكن ما تعلقت المشيئة بإيجاده. وقولنا أقعد بالآداب ، وأسعد بالإجلال في الخطاب.

(2). عاد كلامه. قال : «و معنى وخر موسى صعقا : وخر مغشيا عليه غشية كالموت وروى أن الملائكة مرت عليه ... الخ» قال أحمد ، وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عونا وظهراً على المعتقد الفاسد. والوجه التورك بالغلط على ناقلها وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى كليم اللّه بالوكز بالرجل والغمص في الخطاب.

(3). عاد كلامه. قال : «فان قلت إن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته فمم تاب ... الخ»؟ قال أحمد :
أما دك الجبل ، فقد سلف الكلام على سره. وأما تسبيح موسى عليه السلام فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا، واللّه تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه وعن الخلف في خبره الحق وقوله الصدق ، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبح اللّه وقدس علمه وخبره عن الخلف. وأما التوبة في حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب ، لأن منصبهم الجليل ينبغي أن يكون منزهاً مبرا من كل ما ينحط به ، ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية عن الاذن كان أكمل. وقد ورد : سيئات المقربين حسنات الأبرار.

من غير إذن فيه من اللّه تعالى ، فانظر إلى إعظام اللّه تعالى أمر الرؤية في هذه الآية ، وكيف أرجف الجبل بطالبيها وجعله دكا ، وكيف أصعقهم ولم يخل كليمه من نفيان «1» ذلك مبالغة في إعظام الأمر ، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه ، وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه وقال أنا أول المؤمنين ، ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة «2» كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبا. ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة ، فإنه من منصوبات أشياخهم! والقول ما قال بعض العدلية «3» فيهم :

لجماعة سموا هواهم سنّة وجماعة حمر لعمري موكفه

قد شبّهوه بخلقه وتخوّفوا شنع الورى فتستّروا بالبلكفه «4»

وتفسير آخر : وهو أن يريد بقوله أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ عرّفني نفسك تعريفاً واضحاً جلياً ، كأنها إرادة في جلائها بآية مثل آيات القيامة التي تضطر الخلق إلى معرفتك أَنْظُرْ إِلَيْكَ أعرفك معرفة اضطرار ، كأنى أنظر إليك ، كما جاء في الحديث «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» «5»

(1). قوله «و لم يخل كليمه من نفيان ذلك» قوله «نفيان» هو ما يتطاير من قطر المطر ، وقطر الدلو ، ومن الرمل عند الوطء ، ومن الصوف عند النفش ، ونحو ذلك. كذا في شرح المعلقات العلامة الزوزنى. (ع) [.....]
(2). عاد كلامه. قال : «ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة ... الخ» قال أحمد رحمه اللّه : وقد انتقل الزمخشري في هذا الفصل إلى ما تسمعه من هجاء أهل السنة. ولولا الاستناد بحسان بن ثابت الأنصارى صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وشاعره والمنافح عنه وروح القدس معه ، لقلنا لهؤلاء المتلقبين بالعدلية وبالناجين سلاما ، ولكن كما نافح حسان عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعداءه ، فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعداءهم فنقول :
وجماعة كفروا برؤية ربهم حقاً ووعد اللّه ما لن يخلفه
وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بربهم فحسبهمو سفه
وتلقبوا الناجين كلا إنهم إن لم يكونوا في لظى فعلى شفه
(3). قوله «و القول من قال بعض العدلية» غفر اللّه للمصنف ما لوث به لسانه وقلبه في ذكر هذه الأبيات. (ع)
(4). الزمخشري في أهل السنة ، أى هم جماعة سموا هوى أنفسهم سنة ، ولكن من عرف أن مستند المعتزلة العقل ، ومستند الجماعة النقل عرف الهوى من الهدى. وحمر أى كالحمر. موكفة : أى موضوع عليها الاكاف ، مبالغة في التشبيه.
قد شبهوه : أى اللّه عز وجل بخلقه حيث قالوا : إنه يرى بالعين ، فخافوا تشنيع الناس عليهم فتستروا بقولهم : إنه يرى بلا كيف. فالبلكفة منحوتة من ذلك.
(5). متفق عليه من حديث جرير بن عبد اللّه البجلي قال كنا جلوساً عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر. فقال : أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر - الحديث» وللبخاري من رواية «إنكم سترون ربكم عيانا» واتفقا عليه من حديث أبى سعيد وأبى هريرة بمعناه.

بمعنى : ستعرفونه معرفة جلية هي في الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى قالَ لَنْ تَرانِي أى لن تطيق معرفتي على هذه الطريقة ، ولن تحتمل قوّتك تلك الآية المضطرة ولكن انظر إلى الجبل ، فإنى أورد عليه وأظهر له آية من تلك الآيات ، فإن ثبت لتجليها واستقرّ مكانه ولم يتضعضع فسوف تثبت لها وتطيقها ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً لعظم ما رأى فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ مما اقترحت وتجاسرت وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بعظمتك وجلالك ، وأن شيئاً لا يقوم لبطشك وبأسك.

[سورة الأعراف (7) : آية 144]

قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144)

اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ اخترتك على أهل زمانك وآثرتك عليهم بِرِسالاتِي وهي أسفار التوراة وَبِكَلامِي وبتكليمى إياك فَخُذْ ما آتَيْتُكَ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم. وقيل : خرّ موسى صعقاً يوم عرفة ، وأعطى التوراة يوم النحر. فإن قلت : كيف قيل : اصطفيتك على الناس وكان هرون مصطفى مثله ونبيا؟ قلت : أجل ، ولكنه كان تابعاً له ورداً ووزيراً. والكليم : هو موسى عليه السلام ، والأصيل في حمل الرسالة.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 145 إلى 147]

وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (145) سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ (146) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (147)

ذكروا في عدد الألواح وفي جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح. وقيل : سبعة. وقيل : لوحين ، وأنها كانت من زمرّد جاء بها جبريل عليه السلام. وقيل : من زبر جدة خضراء وياقوتة حمراء. وقيل : أمر اللّه موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له ، فقطعها بيده وشقها بأصابعه. وعن الحسن : كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة ، وأن طولها كان عشرة أذرع. وقوله مِنْ كُلِّ شَيْءٍ في محل النصب مفعول كتبنا. ومَوْعِظَةً وتفصيلا بدل منه. والمعنى : كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام. وقيل أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير ، يقرأ الجزإ منه في سنة لم يقرأها إلا أربعة نفر : موسى ، ويوشع ، وعزير ، وعيسى عليهم السلام. وعن مقاتل : كتب في الألواح : إنى أنا اللّه الرحمن الرحيم ، لا تشركوا بى شيئا ، ولا تقطعوا السبيل ، ولا تحلفوا باسمي كاذبين ، فإنّ من حلف باسمي كاذبا فلا أزكيه ، ولا تقتلوا ولا تزنوا ولا تعقوا الوالدين فَخُذْها فقلنا له : خذها ، عطفاً على كتبنا. ويجوز أن يكون بدلا من قوله فَخُذْ ما آتَيْتُكَ والضمير في فَخُذْها للألواح ، أو لكل شيء ، لأنه في معنى الأشياء ، أو الرسالات ، أو للتوراة.

ومعنى بِقُوَّةٍ بجدّ وعزيمة فعل أولى العزم من الرسل يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها أى فيها ما هو حسن وأحسن ، كالاقتصاص ، والعفو ، والانتصار ، والصبر. فمرهم أن يحملوا على أنفسهم في الأخذ بما هو أدخل في الحسن وأكثر للثواب ، كقوله تعالى وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وقيل : يأخذوا بما هو واجب أو ندب ، لأنه أحسن من المباح. ويجوز أن يراد : يأخذوا بما أمروا به ، دون ما نهوا عنه ، على قولك : الصيف أحرّ من الشتاء سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ يريد دار فرعون وقومه وهي مصر ، كيف أقفرت منهم ودمّروا لفسقهم ، لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم. وقيل منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم اللّه لفسقهم في ممرّكم عليها في أسفاركم. وقيل : دار الفاسقين : نار جهنم. وقرأ الحسن : سأوريكم وهي لغة فاشية بالحجاز. يقال : أورنى كذا ، وأوريته. ووجهه أن تكون من أوريت الزند ، كأن المعنى : بينه لي وأنره لأستبينه.

وقرئ : سأورثكم ، وهي قراءة حسنة يصححها قوله وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ. سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم ، فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها ، غفلة وانهماكا فيما يشغلهم عنها من شهواتهم. وعن الفضيل بن عياض : ذكر لنا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إذا عظمت أمّتى الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام ، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرمت بركة الوحى «1». وقيل : سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أن يبطل آية موسى ، بأن جمع لها السحرة ، فأبى اللّه إلا علو الحق وانتكاس الباطل. ويجوز :

(1). لم أجده من هذا الوجه. وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادره من حديث أبى هريرة مثله ، وزاد «و إذا تسابت أمتى سقطت من أعين الناس» ذكره في الخامس والسبعين يعد المائة ، وفي إسناده البختري بن عبيد.
وهو ضعيف.

سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها. وتسميتها سحراً بإهلاكهم. وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن الآيات لتكبرهم وكفرهم بها ، لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم بِغَيْرِ الْحَقِّ فيه وجهان : أن يكون حالا بمعنى يتكبرون غير محقين ، لأنّ التكبر بالحق للّه وحده. وأن يكون صلة لفعل التكبر ، أى يتكبرون بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ من الآيات المنزلة عليهم لا يُؤْمِنُوا بِها وقرأ مالك بن دينار : وإن يروا بضم الياء. وقرئ : سبيل الرشد والرشد والرشاد ، كقولهم : السقم والسقم والسقام. وما أسفه من ركب المفازة ، فإن رأى طريقاً مستقيما أعرض عنه وتركه ، وإن رأى معتسفا مرديا أخذ فيه وسلكه ، ففاعل نحو ذلك في دينه أسفه ذلِكَ في محل الرفع أو النصب على معنى : ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم اللّه ذلك الصرف بسببه. وَلِقاءِ الْآخِرَةِ يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به ، أى ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها ، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى : ولقاء ما وعد اللّه في الآخرة.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 148 إلى 149]

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ (148) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (149)

مِنْ بَعْدِهِ من بعد فراقه إياهم إلى الطور. فإن قلت : لم قيل : واتخذ قوم موسى عجلا ، والمتخذ هو السامري؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن ينسب الفعل إليهم ، لأن رجلا منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم ، كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا ، والقائل والفاعل واحد ، ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به ، فكأنهم أجمعوا عليه. والثاني : أن يراد واتخذوه إلها وعبدوه. وقرئ مِنْ حُلِيِّهِمْ بضم الحاء والتشديد ، جمع حلى ، كثدي وثدىّ ، ومن حليهم - بالكسر - للإتباع كدلى. ومن حليهم ، على التوحيد. والحلي : اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة. فإن قلت : لم قال : من حليهم ، ولم يكن الحلىّ لهم ، إنما كانت عوارى في أيديهم؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة ، وكونها عوارى في أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم. ألا ترى إلى قوله عزّ وعلا فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ ، جَسَداً بدناً ذا لحم ودم كسائر الأجساد. والخوار : كما اتبعه مصاحبين لَهُ فِي أتباعه. فإن قلت : كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه؟ قلت : لما دعا لنفسه ولبنى إسرائيل ، أجيب بما هو منطو على توبيخ بنى إسرائيل على استجازتهم الرؤية على اللّه تعالى وعلى كفرهم بآيات اللّه العظام التي أجراها على يد موسى ، وعرّض بذلك في قوله وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وما جاء به كعبد اللّه بن سلام وغيره من أهل الكتابين ، لطفاً لهم وترغيباً في إخلاص الإيمان والعمل الصالح ، وفي أن يحشروا معهم ولا يفرّق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة اللّه «1» التي وسعت كل شيء.

[سورة الأعراف (7) : آية 158]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)

إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً قيل : بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد صلى اللّه عليه وسلم إلى كافة الإنس وكافة الجن. وجميعاً : نصب على الحال من إليكم. فإن قلت : الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ما محله؟ قلت : الأحسن أن يكون منتصباً بإضمار أعنى ، وهو الذي يسمى النصب على المدح. ويجوز أن يكون جرا على الوصف ، وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله إليكم. إِلَيْكُمْ جَمِيعاً وقوله لا إِلهَ إِلَّا هُوَ بدل من الصلة التي هي له ملك عن حقائق غوامض التنزيل ، ج 2 ، ص : 161

(1). قوله «عن رحمة اللّه» لعله «في رحمة اللّه». أو ضمن التفريق معنى الابعاد ، فعدى بعن. (ع) [.....]

غير اللّه. فإن قلت : أين ما تقتضيه بئس من الفاعل والمخصوص بالذم؟ قلت : الفاعل مضمر يفسره ما خلفتموني. والمخصوص بالذم محذوف تقديره : بئس خلافة خلفتمونيها من بعد خلافتكم. فإن قلت : أى معنى لقوله مِنْ بَعْدِي بعد قوله خَلَفْتُمُونِي؟ قلت : معناه من بعد ما رأيتم منى ، من توحيد اللّه ، ونفى الشركاء عنه ، وإخلاص العبادة له. أو من بعد ما كنت أحمل بنى إسرائيل على التوحيد ، وأكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر ، حين قالوا اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه. ونحوه فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أى من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة يقال : عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ، ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره ، ويضمن معنى سبق فيعدّى تعديته ، فيقال عجلت الأمر ، والمعنى أعجلتم عن أمر ربكم ، وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به ، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم ، فحدَّثتم أنفسكم بموتى ، فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم. وروى أنّ السامري قال لهم- حين أخرج لهم العجل وقال هذا إلهكم وإله موسى- : إن موسى لن يرجع ، وإنه قد مات وروى أنهم عدّوا عشرين يوما بلياليها فجعلوها أربعين ، ثم أحدثوا ما أحدثوا وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وطرحها لما لحقه من فرط الدهش وشدّة الضجر عند استماعه حديث العجل ، غضبا للّه وحمية لدينه ، وكان في نفسه حديداً شديد الغضب ، وكان هارون ألين منه جانبا ولذلك كان أحب إلى بنى إسرائيل من موسى.

وروى أن التوراة كانت سبعة أسباع ، فلما ألقى الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباعها وبقي منها سبع واحد ، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقي الهدى والرحمة وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ أى بشعر رأسه يَجُرُّهُ إِلَيْهِ بذؤابته ، وذلك لشدّة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب بفطنته ، وظنا بأخيه أنه فرط في الكف ابْنَ أُمَّ قرئ بالفتح تشبيها بخمسة عشر ، وبالكسر على طرح ياء الإضافة. وابن أمى ، بالياء. وابن إمِّ ، بكسر الهمزة والميم. وقيل: كان أخاه لأبيه وأمّه ، فإن صح فإنما أضافه إلى الأم ، إشارة إلى أنهما من بطن واحد. وذلك أدعى إلى العطف والرقة ، وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنة فاعتدّ بنسبها ، ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي يعنى أنه لم يأل جهدا في كفهم بالوعظ والإنذار. وبما بلغته طاقته من بذل القوة في مضادّتهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ فلا تفعل بى ما هو أمنيتهم من الاستهانة بى والإساءة إليّ ، وقرئ. فلا يشمت بى الأعداء ، على نهى الأعداء عن الشماتة. والمراد أن لا يحل به ما يشمتون به لأجله وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ولا تجعلني في موجدتك علىّ وعقوبتك لي قرينا لهم وصاحبا. أو ولا تعتقد أنى واحد من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم. لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ليرضى أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم ، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة. وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة.

[سورة الأعراف (7) : آية 152]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152)

غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ الغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم. والذلة : خروجهم من ديارهم لأنّ ذل الغربة مثل مضروب. وقيل : هو ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير ، من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء ، ومن الذلة بضرب الجزية الْمُفْتَرِينَ المتكذبين على الله ، ولا فرية أعظم من قول السامري : هذا إلهكم وإله موسى. ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالذلة وحدها ويراد : سينالهم غضب في الآخرة ، وذلة في الحياة الدنيا ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله.

[سورة الأعراف (7) : آية 153]

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153)

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ من الكفر والمعاصي كلها ثُمَّ تابُوا ثم رجعوا مِنْ بَعْدِها إلى الله واعتذروا إليه وَآمَنُوا وأخلصوا الإيمان إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها من بعد تلك العظائم لَغَفُورٌ لستور عليهم محاء لما كان منهم رَحِيمٌ منعم عليهم بالجنة. وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم. عظم جنايتهم "1" أولا ثم أردفها تعظيم رحمته ، ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ، ولكن لا بدّ من حفظ الشريطة : وهي وجوب التوبة "2" والإنابة ، وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة "3" ، لا يلتفت إليها حازم.

(1). قال محمود : "عظم جناية متخذي العجل أولا ، ثم أردفها بحكم عام ... الخ" قال أحمد : يعرض بوجوب وعيد الفساق وأن مغفرة الذنب بدون التوبة منه من المحال الممتنع ، وقد تقدم عد ذلك من الأهواء والبدع ، بل الحق أن المغفرة لما عدا الشرك موكوله إلى المشيئة ، غير ممتنعة عقلا ، ثم واقعة نقلا ، والله الموفق.
(2). قوله : "من حفظ الشريطة وهي وجوب التوبة" مذهب المعتزلة أن الكبيرة لا تغفر إلا بالتوبة. ومذهب أهل السنة أنها قد تغفر بمجرد الفضل. (ع)
(3). قوله "و أشعبية باردة" خصلة منسوبة إلى أشعب ، وهو رجل كان طماعا. ويضرب به المثل في الطمع ، كما في الصحاح. (ع)

[سورة الأعراف (7) : آية 154]

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَفِي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ هذا مثل ، كأن الغضب كان يغريه "1" على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا وألق الألواح ، وجرّ برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ، ولأنه من قبيل شعب البلاغة. وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة : ولما سكن عن موسى الغضب ، لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهمزة ، وطرفا من تلك الروعة. وقرئ: ولما سكت. وأسكت : أى أسكته الله ، أو أخوه باعتذاره إليه وتنصله ، والمعنى : ولما طفئ غضبه أَخَذَ الْأَلْواحَ التي ألقاها وَفِي نُسْخَتِها وفيما نسخ منها ، أى كتب. والنسخة فعلة بمعنى مفعول كالخطبة لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ دخلت اللام لتقدم المفعول ، لأن تأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً. ونحوه لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ وتقول : لك ضربت.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 155 إلى 157]

وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (155) وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)

(1). قال محمود : "هذا مثل ، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وخذ برأس أخيك ... الخ" قال أحمد : وهو من النمط الذي قدمته من قلب الحقيقة إلى المجاز ، وكان الأصل : ولما سكت موسى عن الغضب ، ولذلك عده بعض أهل العربية من المقلوب ، وسلكه في نمط خرق الثوب المسمار. والتحقيق أنه ليس منه وأن هذا القلب أشرف وأفصح ، لأنه بماله على معنى بليغ وهو أن الغضب كان متمكنا من موسى حتى كان كأنه يصرفه في أوامره ، وكل ما وقع منه حينئذ فعن الغضب صادر

، حتى كأنه هو الذي أمره به. ومثل هذه النكتة الحسناء لا تلفى في خرق الثوب المسمار ، بل هي موجودة في قوله تعالى حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ على خلاف قراءة نافع. وقد تقدم ذلك آنفا ، والله الموفق.

وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ أى من قومه ، فحذف الجار وأوصل الفعل ، كقوله :

ومنّا الّذى اختير الرّجال سماحة "1"

قيل اختار من اثنى عشر سبطا ، من كل سبط ستة حتى تناموا اثنين وسبعين ، فقال : ليتخلف منكم رجلان ، فتشاحوا ، فقال : إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج ، فقعد كالب ويوشع.

وروى أنه لم يصب إلا ستين شيخنا ، فأوحى الله تعالى إليه أن تختار من الشبان عشرة ، فاختارهم فأصبحوا شيوخا. وقيل : كانوا أبناء ما عدا العشرين ، ولم يتجاوزوا الأربعين ، قد ذهب عنهم الجهل والصبا ، فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ، ثم خرج بهم إلى طور سينا لميقات ربه ، وكان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بنى إسرائيل ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم : ادنوا ، فدنوا ، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجدا ، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه : افعل ، ولا تفعل.

ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه ، فطلبوا الرؤية فوعظهم وزجرهم وأنكر عليهم ، فقالوا : يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فقال : رب أرنى أنظر إليك ، يريد : أن يسمعوا الردّ والإنكار من جهته ، فأجيب بلن تراني ، ورجف بهم الجبل فصعقوا. ولما كانت الرجعة قالَ موسى رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ وهذا تمنّ منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية ، كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبة : لو شاء الله لأهلكنى قبل هذا أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا يعني أتهلكنا جميعاً. يعنى نفسه وإياهم ، لأنه إنما طلب الرؤية زجراً للسفهاء ، وهم طلبوها سفها وجهلا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ أى محنتك وابتلاؤك حين كلمتنى وسمعوا كلامك ، فاستدلوا بالكلام على الرؤية استدلالا فاسداً ، حتى افتتنوا وضلوا تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ تضلّ بالمحنة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك ، وتهدى العالمين بك الثابتين بالقول الثابت.

(1).ومنا الذي اختير الرجال سماحة وجوداً إذا هب الرياح الزعازع
المعنى : ومنا الذي اختاره الناس من بين الرجال ، فالرجال نصب على نزع الخافض. وسماحة : تمييز لبيان جهة الاختيار. ووجوداً عطف عليه ، إذا هب الرياح ، كناية عن دخول الشتاء ، فتهيج الرياح الزعازع ، أى الشديدة المحركة للأشياء ، وإذا جاد زمن انقطاع الميرة ، فكيف بالصيف.

وجعل ذلك إضلالا من الله وهدى منه ، لأن محنته لما كانت سبباً "1" لأن ضلوا واهتدوا فكأنه أضلهم بها وهداهم على الاتساع في الكلام أَنْتَ وَلِيُّنا مولانا القائم بأمورنا وَاكْتُبْ لَنا وأثبت لنا واقسم فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً عافية وحياة طيبة وتوفيقاً في الطاعة وَفِي الْآخِرَةِ الجنة هُدْنا إِلَيْكَ تبنا إليك. وهاد اليه يهود إذا رجع وتاب. والهود : جمع هائد ، وهو التائب. ولبعضهم : يا راكب الذّنب هدهد واسجد كأنّك هدهد "2"

وقرأ أبو وجرة السعدي : هدنا إليك ، بكسر الهاء ، من هاده يهيده إذا حرّكه وأماله. ويحتمل أمرين ، ان يكون مبنيا للفاعل والمفعول بمعنى حركنا إليك أنفسنا وأملناها أو حرّكنا إليك وأملنا على تقدير : فعلنا ، كقولك : عدت يا مريض بكسر العين ، فعلت من العيادة. ويجوز : عدت بالإشمام.

وعدت ، بإخلاص الضمة فيمن قال : عود المريض. وقول القول. ويجوز على هذه اللغة أن يكون هُدْنا بالضم فعلنا من هاده يهيده عَذابِي من حاله وصفته أنى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ أى من وجب علىّ في الحكمة "3" تعذيبه ، ولم يكن في العفو عنه مساغ لكونه مفسدة. وأمّا رَحْمَتِي فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شي ء ، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في نعمتي. وقرأ الحسن : من أساء ، من الإساءة. فسأكتب هذه الرحمة كتبة خاصة منكم يا بنى إسرائيل للذين يكونون في آخر الزمان من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، الذين هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون ، لا يكافرون بشيء منها الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الذي نوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن النَّبِيَّ صاحب المعجزات الَّذِي يَجِدُونَهُ يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بنى إسرائيل مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ ..... وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة ، كالشحوم وغيرها. أو ما طاب في الشريعة والحكم ، مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح ، وما خلى كسبه من السحت وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير ، وما أهلّ لغير الله به أو ما خبث في الحكم ، كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيئة. الإصر : الثقل الذي يأصر صاحبه ، أى يحبسه من

الحراك لثقله أو واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه. فإن قلت : كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه؟ قلت : لما دعا لنفسه ولبنى إسرائيل ، أجيب بما هو منطو على توبيخ بنى إسرائيل على استجازتهم الرؤية على اللّه تعالى وعلى كفرهم بآيات اللّه العظام التي أجراها على يد موسى ، وعرّض بذلك في قوله وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وما جاء به كعبد اللّه بن سلام وغيره من أهل الكتابين ، لطفاً لهم وترغيباً في إخلاص الإيمان والعمل الصالح ، وفي أن يحشروا معهم ولا يفرّق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة اللّه "1" التي وسعت كل شيء.

[سورة الأعراف (7) : آية 158]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)

إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً قيل : بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد صلى اللّه عليه وسلم إلى كافة الإنس وكافة الجن. وجميعاً : نصب على الحال من إليكم. فإن قلت : الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ما محله؟ قلت : الأحسن أن يكون منتصباً بإضمار أعنى ، وهو الذي يسمي النصب على المدح. ويجوز أن يكون جرا على الوصف ، وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله إليكم. إِلَيْكُمْ جَمِيعاً وقوله لا إِلهَ إِلَّا هُوَ بدل من الصلة التي هي له ملك

(1). قوله "لأن محنته لما كانت سببا" صرف الكلام عن ظاهره ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عندهم. أما على مذهب أهل السنة فلا حاجة إلى ذلك. (ع)
(2). للزمخشري ، شبه ملازمته للذنب بملازمة الراكب للمركوب. وهاد يهود ، إذا تاب ورجع. وهد : أمر منه ، وكرر للتوكيد. ثم قال : واسجد كأنك هدهد ، فشبهه به لكثرة ما يطرق برأسه إلى الأرض لا في السرعة ، فالمعنى : اسجد كثيراً.
(3). قوله "أى من وجب على في الحكمة" هذا عند المعتزلة. وأما أهل السنة فلا يجب على اللّه تعالى عندهم شيء. (ع)

وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته ، نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم. وكذلك الأغلال ، مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة ، نحو : بت القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأ من غير شرع الدية ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب.

وإحراق الغنائم ، وتحريم العروق في اللحم ، وتحريم السبت. وعن عطاء : كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلى لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم. وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة. وقرئ آصارهم ، على الجمع وَعَزَّرُوهُ ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدوّ. وقرئ بالتخفيف. وأصل العزر : المنع. ومنه التعزير للضرب دون الحدّ ، لأنه منع عن معاودة القبيح. ألا ترى إلى تسمية الحدّ ، والحدّ هو المنع. والنُّورَ القرآن. فإن قلت : ما معنى قوله أُنْزِلَ مَعَهُ وإنما أنزل مع جبريل؟ قلت : معناه أنزل مع نبوّته ، لأنّ استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعا به. ويجوز أن يعلق باتبعوا. أى : واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه.

(1). قوله «عن رحمة اللّه» لعله «في رحمة اللّه». أو ضمن التفريق معنى الابعاد ، فعدى بعن. (ع) [.....]

السموات والأرض ، وكذلك يُحيِي وَيُمِيتُ وفي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ بيان للجملة قبلها ، لأنّ من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة. وفي يحيى ويميت : بيان لاختصاصه بالإلهية ، لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره وَكَلِماتِهِ وما أنزل عليه وعلى من تقدّمه من الرسل من كتبه ووحيه. وقرئ وكلمته على الإفراد وهي القرآن. أو أراد جنس ما كلم به. وعن مجاهد : أراد عيسى ابن مريم.

وقيل : هي الكلمة التي تكوّن منها عيسى وجميع خلقه ، وهي قوله كُنْ وإنما قيل إن عيسى كلمة اللّه ، فخص بهذا الاسم ، لأنه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة ، ولم يكن من نطفة تمنى لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إرادة أن تهتدوا. فإن قلت : هلا قيل : فآمنوا باللّه وبى ، بعد قوله : إنى رسول اللّه إليكم؟ قلت : عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجرى عليه الصفات التي أجريت عليه ، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة ، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمى الذي يؤمن باللّه وكلماته ، كائناً من كان ، أنا أو غيرى ، إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه.

[سورة الأعراف (7) : آية 159]

وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159)

وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ هم المؤمنون التائبون من بنى إسرائيل ، لما ذكر الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين عبادة العجل واستجازة رؤية اللّه تعالى ، ذكر أنّ منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ، ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم. وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون. أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي صلى اللّه عليه وسلم وآمن به من أعقابهم. وقيل : إنّ بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثنى عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا ، وسألوا اللّه أن يفرق بينهم وبين إخوانهم ، ففتح اللّه لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين ، وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا. وذكر عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أن جبريل ذهب به ليلة الاسراء نحوهم ، فكلمهم فقال لهم جبريل : هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا : لا. قال : هذا محمد النبي الأمى ، فآمنوا به وقالوا : يا رسول اللّه ، إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد ، فليقرأ عليه منى السلام فردّ محمد على موسى عليهما السلام السلام ، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة ، وأمرهم أن يقيموا مكانهم ، وكانوا يسبتون ، فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت. وعن مسروق. قرئ : بين يدي عبد اللّه فقال رجل : إنى منهم. فقال عبد اللّه : يعنى لمن كان في مجلسه من المؤمنين : وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئاً من يهدى بالحق وبه يعدل. وقيل : لو كانوا في طرف من الدنيا متمسكين بشريعة ولم يبلغهم نسخها كانوا معذورين.

وهذا من باب الفرض والتقدير وإلا فقد طار الخبر بشريعة محمد صلى اللّه عليه وسلم إلى كل أفق ، وتغلغل في كل نفق ، ولم يبق اللّه أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا برّ ولا بحر في مشارق الأرض ومغاربها ، إلا وقد ألقاه إليهم وملأ به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة.

[سورة الأعراف (7) : آية 160]

وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160)

وَقَطَّعْناهُمُ وصيرناهم قطعا ، أى فرقا وميزنا بعضهم من بعض لقلة الألفة بينهم. وقرئ وقطعناهم بالتخفيف اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً كقولك اثنتي عشرة قبيلة. والأسباط : أولاد الولد ، جمع سبط وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثنى عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام. فإن قلت : مميز ما عدا العشرة مفرد ، فما وجه مجيئه مجموعا؟ وهلا قيل : اثنى عشر سبطا؟ قلت : لو قيل ذلك لم يكن تحقيقا لأنّ المراد : وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة ، وكل قبيلة أسباط لا سبط ، فوضع أسباطا موضع قبيلة. ونظيره : بين رماحى مالك ونهشل «1»

(1) تبقلت في أول التبقل بين رماحي مالك ونهشل
في حبة حرف وحمض هيكل مستأسد ذبانه في عيطل
يقلن للرائد أعشبت انزل لأبى النجم ، يصف رمكة باعتيادها الحروب واقتحامها المكاره من أول أمرها. يقال : تبقلت الغنم وغيرها : رعت البقل وهو النبات الرطب. شبه اقتحام تلك الفرس للحروب من صغرها حتى اعتادتها برعي الدابة للكلأ واعتيادها عليه ، يجامع التمرن والاعتياد والسهولة ، بل والاستلذاذ ، ثم استعار التبقل لذلك على طريق التصريحية ، وبلغ في ذلك حيث أسند الفعل إليها ، كأنه لا دخل له فيه. ويروى : من أول التبقل ، بين رماحى مالك ونهشل : أى بين رماح مالك بن ضبيعة ورماح نهشل بن دارم من أمراء العرب ، فثنى الرماح دلالة على التنويع والتمايز. وقال أبو حنيفة : الحبة بالكسر اليبس المنكسر المتراكم. وقال الأزهرى : هي البذور الساقطة مع الأوراق في آخر الصيف والحرن : اليابسة الدقيقة. والحمض نوع من النبات. والهيكل : الطويل الضخم. والمستأسد : الطويل الغليظ أيضا.
وذبان جمع ذباب ، كغربان وغراب. والعيطل - بالعين المهملة - : الأصوات المختلطة. والرائد : هو الذي يتقدم القوم لطلب الخصب. يقلن ، أى الذبان. وأعشب الرجل : وجد العشب ، وصف النبات بالكثرة والالتفاف حتى كثر ذبابه وصارت له أصوات مختلطة ، فكان يدعو الرائد ويحمله على النزول في هذا المكان عند سماع صوته ، فاستعار القول لذلك على سبيل التصريح. وروى : مستأسد أذنابه في عيطل. تقول للرائد ، فالأذناب جمع ذنب ، أى أطرافه تصوت بالريح بقول ذلك النبات والمجاز كما تقدم. هذا ، وحق الرواية : بين رماكى مالك ونهشل.
والرمكة : الأنثى من البراذين والخيل ، وجمعها رماك وأرماك ورمكات ، كثمرة وثمار وأثمار وثمرات. يصف فرسه بأنها رعت البقل حقيقة مع تلك الخيول والبراذين ، فلا مجاز هنا.

وأُمَماً بدل من اثنتي عشرة. بمعنى : وقطعناهم أمما لأنّ كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد ، وكل واحدة كانت تؤمّ خلاف ما تؤمّه الأخرى ، لا تكاد تأتلف. وقرئ اثنتي عشرة بكسر الشين فَانْبَجَسَتْ فانفجرت. والمعنى واحد ، وهو الانفتاح بسعة وكثرة : قال العجاج : وكيف غربي دالج تبجّسا «1»

فإن قلت : فهلا قيل : فضرب فانبجست؟ قلت : لعدم الإلباس ، وليجعل الانبجاس مسبباً عن الإيحاء بضرب الحجر للدلالة على أنّ الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر ، وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به. من قوله كُلُّ أُناسٍ نظير قوله : اثنتي عشرة أسباطاً ، يريد كل أمّة من تلك الأمم الثنتى عشرة. والأناس ، اسم جمع غير تكسير ، نحو. رخال وتناء وتوام «2» وأخوات لها. ويجوز أن يقال : إن الأصل الكسرة والتكسير ، والضمة بدل من الكسرة ، كما أبدلت في نحو. سكارى وغيارى «3» من الفتحة وَظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وجعلناه ظليلا عليهم في التيه ، وكُلُوا على إرادة القول وَما ظَلَمُونا وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم ، ولكن كانوا يضرون أنفسهم. ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 161 إلى 162]

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (162)

(1) وانحلبت عيناه من فرط الأسى وكيف غربي دالج تبجسا
فرط الاسى : شدة الحزن. والوكيف : مصدر نصب بانحلبت ، لأن معناه : وكفت. والغرب : الدلو العظيم.
والدالج : من يأخذ الدلو من البئر فيفرغه في الحوض. والتبجس. اتساع الانفجار. يقول : انصبت دموع عينيه من شدة الحزن ، كانصباب دلوي رجل مفرغ لهما في الحوض تفجرا بسعة. وفيه تشبيه العينين بالغربين.
(2). قوله : «نحو رخال وتناء وتؤام» رخال : هي الإناث من أولاد الضأن. والتناء : القاطنون بالبلد.
والتؤام - بالمد - واحدة توأم ، وزان كوكب. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله : «نحو سكارى وغيارى» غار الرجل على أهله فهو غيور. وجمعه غير وغيران. وجمعه غيارى وغيارى ، كذا في الصحاح. (ع)

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ واذكر إذ قيل لهم. والقرية : بيت المقدس. فإن قلت : كيف اختلفت العبارة هاهنا وفي سوره البقرة؟ قلت : لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض ، ولا تناقض بين قوله ، اسكنوا هذه القرية وكلوا منها، وبين قوله فكلوا لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها ، فقد جمعوا في الوجود بين سكناها والأكل منها. وسواء قدّموا الحطة على دخول الباب أو أخروها ، فهم جامعون في الإيجاد بينهم ، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته ، وقوله نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ موعد بشيئين : بالغفران ، وبالزيادة ، وطرح الواو لا يخلّ بذلك ، لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل : وما ذا بعد الغفران؟ فقيل له : سنزيد المحسنين ، وكذلك زيادة مِنْهُمْ زيادة بيان ، وأرسلنا ، وأنزلنا. ويَظْلِمُونَ ويفسقون من واد واحد. وقرئ : يغفر لكم خطيئاتكم ، وتغفر لكم خطاياكم. وخطيئاتكم ، وخطيئتكم ، على البناء للمفعول.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 163 إلى 166]

وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (166)

وَسْئَلْهُمْ وسل اليهود. وقرئ : واسألهم. وهذا السؤال معناه التقرير والتقريع بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود اللّه والإعلام بأنّ هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم ، علم أنه من جهة الوحى. ونظيره همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك : أعدوتم في السبت؟ والقرية أيلة. وقيل : مدين. وقيل : طبرية. والعرب تسمى المدينة قرية. وعن أبى عمرو بن العلاء. ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج ، يعنى رجلين من أهل المدن حاضِرَةَ الْبَحْرِ قريبة منه راكبة لشاطئه إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إذ يتجاوزون حدّ اللّه فيه ، وهو اصطيادهم في يوم السبت ، وقد نهوا عنه. وقرئ : يَعدّون بمعنى يعتدون ، أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين ، ويُعدّون من الإعداد ، وكانوا يعدّون آلات الصيد يوم السبت ، وهم

مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة. والسبت : مصدر سبتت اليهود ، إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد ، فمعناه : يعدون في تعظيم هذا اليوم ، كذلك قوله يَوْمَ سَبْتِهِمْ معناه يوم تعظيمهم أمر السبت. ويدل عليه قوله وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ قراءة عمر بن عبد العزيز : يوم إسباتهم. وقرئ : لا يسبتون ، بضم الباء. وقرأ على : لا يسبتون بضم الياء ، من أسبتوا. وعن الحسن : لا يسبتون على البناء للمفعول ، أى لا يدار عليهم السبت ، ولا يؤمرون بأن يسبتوا ، فإن قلت : إذ يعدون ، وإذ تأتيهم ، ما محلهما من الإعراب؟ قلت : أمّا الأوّل فمجرور بدل من القرية ، والمراد بالقرية أهلها ، كأنه قيل : واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت ، وهو من بدل الاشتمال. ويجوز أن يكون منصوباً بكانت ، أو بحاضرة. وأمّا الثاني فمنصوب بيعدون. ويجوز أن يكون بدلا بعد بدل. والحيتان السمك ، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة شُرَّعاً ظاهرة على وجه الماء. وعن الحسن : تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض. يقال : شرع علينا فلان إذا دنا منا وأشرف علينا. وشرعت على فلان في بيته فرأيته يفعل كذا كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ أي مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم وَإِذْ قالَتْ معطوف على إذ يعدون ، وحكمه حكمه في الإعراب أُمَّةٌ مِنْهُمْ جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم ، حتى أيسوا من قبولهم ، لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أى مخترمهم ومطهر الأرض منهم أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً لتماديهم في الشر. وإنما قالوا ذلك ، لعلمهم أن الوعظ لا ينفع فيهم قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ أى موعظتنا إبلاء عذر إلى الله ، ولئلا نسب في النهى عن المنكر إلى بعض التفريط وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ولطمعنا في أن يتقوا بعض الاتقاء.

وقرئ مَعْذِرَةً بالنصب ، أى وعظناهم معذرة إلى ربكم ، أو اعتذرنا معذرة فَلَمَّا نَسُوا يعنى أهل القرية ، فلما تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الظالمين الراكبين للمنكر. فإن قلت : الأمة الذين قالوا لِمَ تَعِظُونَ من أى الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم المعذبين؟ قلت : من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين. وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضا صحيحاً لعلمهم بحال القوم. وإذا علم الناهي حال المنهي وأن النهى لا يؤثر فيه ، سقط عنه النهى. وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث. ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر «1» والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه ،

(1). قوله «على المآصر» المآصر هي المحابس ، من أصره الله حبسه. كذا في الصحاح. (ع)

كان ذلك عبثا منك ، ولم يكن إلا سببا للتلهى بك. وأما الآخرون فإنما لم يعرضوا عنهم إمّا لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم ، أو لفرط حرصهم وجدّهم في أمرهم كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ وقيل : الأمة هم الموعوظون ، لما وعظوا قالوا للواعظين : لم تعظون منا قوما تزعمون أنّ الله مهلكهم أو معذبهم؟ وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : يا ليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا : لم تعظون قوما؟ قال عكرمة : فقلت جعلني الله فداك ، ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا ، لم تعظون قوما الله مهلكهم ، فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا. وعن الحسن : نجت فرقتان وهلكت فرقة ، وهم الذين أخذوا الحيتان. وروى أنّ اليهود أُمروا باليوم الذين أُمرنا به وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا يوم السبت ، فابتلوا به وحرّم عليهم فيه الصيد ، وأمروا بتعظيمه ، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعا بيضا سمانا كأنها المخاض ، لا يرى الماء من كثرتها ، ويوم لا يستبون لا تأتيهم ، فكانوا كذلك برهة من الدهر ، ثم جاءهم إبليس فقال لهم : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا تسوقون الحيتان إليها يوم السبت ، فلا تقدر على الخروج منها. وتأخذونها يوم الأحد ، وأخذ رجل منهم حوتا وربط في ذنبه خيطا إلى خشبة في الساحل ، ثم شواه يوم الأحد ، فوجد جاره ريح السمك فتطلع في تنوره فقال له : إنى أرى الله سيعذبك ، فلما لم يره عذب أخذ في السبت القابل حوتين ، فلما رأوا أنّ العذاب لا يعاجلهم، صادوا وأكلوا وملحوا وباعوا ، وكانوا نحوا من سبعين ألفاً ، فصار أهل القرية أثلاثا ، ثلث نهوا وكانوا نحواً من اثنى عشر ألفاً ، وثلث قالوا : لم تعظون قوما؟ وثلث هم أصحاب الخطيئة. فلما لم ينتهوا قال المسلمون : إنا لا نساكنكم ، ففسموا القرية بجدار : للمسلمين باب ، وللمعتدين باب. ولعنهم داود عليه السلام ، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إن للناس شأنا ، فعلوا الجدار فنظروا فإذا هم قردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القرود أنسباءها من الإنس ، والإنس لا يعرفون أنسباءهم من القرود ، فجعل القرد يأتى نسيبه فيشم ثيابه ويبكى ، فيقول : ألم ننهك فيقول برأسه : بلى. وقيل : صار الشباب قردة ، والشيوخ خنازير. وعن الحسن : أكلوا والله أو خم أكلة أكلها أهلها ، أثقلها خزيا في الدنيا وأطولها عذابا في الآخرة ، هاه وايم الله ، ماحوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم. ولكن الله جعل موعدا ، والساعة أدعى وأمرّ بَئِيسٍ شديد.

يقال : بؤس يبؤس بأسا ، إذا اشتدّ ، فهو بئيس. وقرئ : بئس ، بوزن حَذِر. وبئس على تخفيف العين ونقل حركتها إلى الفاء ، كما يقال : كبد في كبد. وبيس على قلب الهمزة ياء ، كذيب في ذئب ، وبيئس على فيعل ، بكسر الهمزة وفتحها. وبيس ، بوزن ريس ، على قلب همزة بيئس ياء وإدغام الياء فيها ،

وبيس على تخفيف بيس ، كهين في هين. وبائس على فاعل فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه ، كقوله وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً عبارة عن مسخهم قردة ، كقوله إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ والمعنى : أنّ اللّه تعالى عذبهم أوّلا بعذاب شديد ، فعتوا بعد ذلك فمسخهم. وقيل : فلما عتوا ، تكرير لقوله فَلَمَّا نَسُوا والعذاب البئيس : هو المسخ.

[سورة الأعراف (7) : آية 167]

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(167)

تَأَذَّنَ رَبُّكَ عزم ربك ، وهو تفعل من الإيذان وهو الإعلام ، لأنّ العازم على الأمر يحدّث نفسه به ويؤذنها بفعله، وأجرى مجرى فعل القسم ، كعلم اللّه ، وشهد اللّه. ولذلك أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله لَيَبْعَثَنَّ والمعنى : وإذ حتم ربك وكتب على نفسه ليبعثنَّ على اليهود إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ فكانوا يؤدّون الجزية إلى المجوس ، إلى أن بعث اللّه محمدا صلى اللّه عليه وسلم فضربها عليهم ، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر. ومعنى ليبعثنّ عليهم ليسلطنّ عليهم ، كقوله : بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 168 إلى 169]

وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (169)

وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً وفرقناهم فيها ، فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ الذين آمنوا منهم بالمدينة ، أو الذين وراء الصين وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه ، وهم الكفرة والفسقة. فإن قلت : ما محل دون ذلك؟ قلت : الرفع ، وهو صفة لموصوف محذوف ، معناه : ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ، ونحوه وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ بمعنى : وما منا أحد إلا له مقام وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ بالنعم والنقم لَعَلَّهُمْ ينتهون فينيبون فَخَلَفَ من بعد المذكورين خَلْفٌ وهم الذين كانوا في زمن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وَرِثُوا الْكِتابَ التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم يقرءونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم ، ولا يعملون بها يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى أى حطام هذا الشيء الأدنى ، يريد الدنيا وما يتمتع به منها. وفي قوله هذَا الْأَدْنى تخسيس وتحقير. والأدنى : إما من الدنوّ بمعنى القرب ، لأنه عاجل قريب ، وإما من دنوّ الحال وسقوطها وقلتها ، والمراد : ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا لا يؤاخذنا اللّه بما أخذنا. وفاعل سَيُغْفَرُ الجار والمجرور ، وهو لَنا ويجوز أن يكون الأخذ الذي هو مصدر يأخذون وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ الواو للحال ، أى يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم ، غير تائبين. وغفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة ، والمصر لا غفران له أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ يعنى قوله في التوراة : من ارتكب ذنبا عظيما فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة وَدَرَسُوا ما فِيهِ في الكتاب من اشتراط التوبة في غفران الذنوب ، والذي عليه المجبرة «1» هو مذهب اليهود بعينه كما ترى. وعن مالك بن دينار رحمه اللّه ، يأتى على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به ، قالوا : سيغفر لنا ، لأنا لم نشرك باللّه شيئا ، كل أمرهم إلى الطمع ، خيارهم فيهم المداهنة ، فهؤلاء من هذه الأمّة أشباه الذين ذكرهم اللّه ، وتلا الآية. وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ من ذلك العرض الخسيس لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ الرشا ومحارم اللّه. وقرئ : ورّثوا الكتاب. وألا تقولوا ، بالتاء. وادّارسوا ، بمعنى تدارسوا. وأفلا تعقلون ، بالياء والتاء. فإن قلت : ما موقع قوله أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ؟ قلت : هو عطف بيان لميثاق الكتاب. ومعنى ميثاق الكتاب. الميثاق المذكور في الكتاب.

وفيه أن إثبات المغفرة بغير توبة خروج عن ميثاق الكتاب وافتراء على اللّه.

وتقوّل عليه ما ليس بحق. وإن فسر ميثاق الكتاب بما تقدم ذكره كان أَنْ لا يَقُولُوا مفعولا له. ومعناه : لئلا يقولوا. ويجوز أن تكون إِنْ مفسرة ، ولا يَقُولُوا نهياً ، كأنه قيل : ألم يقل لهم لا تقولوا على اللّه إلا الحق؟ فإن قلت : علام عطف قوله وَدَرَسُوا ما فِيهِ؟ قلت : على أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ لأنه تقرير ، فكأنه قيل : أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه.

[سورة الأعراف (7) : آية 170]

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170)

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون مرفوعا بالابتداء وخبره إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ والمعنى : إنا لا نضيع أجرهم ، لأنّ المصلحين في معنى الذين يمسكون بالكتاب ،

(1). قوله «في غفران الذنوب والذي عليه المجبرة» يعنى أهل السنة ، ومذهبهم تجويز المغفرة بمجرد الفضل ، لا الطمع فيها مع الإصرار على المعصية. (ع)

كقوله إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا والثاني : أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون ، ويكون قوله إِنَّا لا نُضِيعُ اعتراضا. وقرئ : يمسكون ، بالتشديد. وتنصره قراءة أبىّ. والذين مسكوا بالكتاب. فإن قلت : التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة. ومنها إقامة الصلاة ، فكيف أفردت؟ قلت : إظهارا لمزية الصلاة لكونها عماد الدين ، وفارقة بين الكفر والإيمان. وقرأ ابن مسعود رضى اللّه عنه. والذين استمسكوا بالكتاب.

[سورة الأعراف (7) : آية 171]

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171)

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ قلعناه ورفعناه ، كقوله : ورفعنا فوقهم الطور. ومنه : نتق السقاء ، إذا نفضه ليقتلع الزبدة منه. والظلة : كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب. وقرئ بالطاء ، من أهل عليه إذا أشرف وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ وعلموا أنه ساقط عليهم ، وذلك أنهم أبوا.

أن يقبلوا أحكام التوراة. لغلظها وثقلها ، فرفع اللّه الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم ، وكان فرسخا في فرسخ. وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم ، فلما نظروا إلى الجبل خرّ كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من سقوطه ، فلذلك لا ترى يهوديا يسجد إلا على حاجبه الأيسر ، ويقولون : هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة. ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب اللّه. لم يبق جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز ، فلذلك لا ترى يهوديا تقرأ عليه التوراة إلا اهتز وأنغض لها رأسه «1» خُذُوا ما آتَيْناكُمْ على إرادة القول. أى : وقلنا خذوا ما آتيناكم ، أو قائلين : خذوا ما آتيناكم من الكتاب بِقُوَّةٍ وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه وَاذْكُرُوا ما فِيهِ من الأوامر والنواهي ولا تنسوه.

أو واذكروا ما فيه من التعريض للثواب العظيم فارغبوا فيه. ويجوز أن يراد : خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوّة إن كنتم تطيقونه ، كقوله إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فانفذوا. وَاذْكُرُوا ما فِيهِ من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ما أنتم عليه. وقرأ ابن مسعود : وتذكروا. وقرئ : واذّكروا ، بمعنى. وتذكروا.

(1). قوله «و أنغض لها رأسه» أى حرك رأسه كالمتعجب. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة الأعراف (7) : الآيات 172 إلى 174]

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174)

مِنْ ظُهُورِهِمْ بدل من بنى آدم بدل البعض من الكل. ومعنى أخذ ذرّياتهم من ظهورهم : إخراجهم من أصلابهم نسلا وإشهادهم على أنفسهم. وقوله أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالُوا : بَلى شَهِدْنا من باب التمثيل والتخييل «1»! ومعنى ذلك

أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم : ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك. وباب التمثيل واسع في كلام اللّه تعالى ورسوله عليه السلام ، وفي كلام العرب.
ونظيره قوله تعالى إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ وقوله :

إِذْ قَالَتِ الأَنْسَاعُ لِلْبَطْنِ الْحَقِ «2»

قَالَتْ لَهُ رِيحُ الصَّبَا قَرْقَارِ «3»

(1). قال محمود : «هذا من باب التمثيل والتخييل ... الخ» قال أحمد : إطلاق التمثيل أحسن ، وقد ورد الشرع به. وأما إطلاقه التخييل على كلام اللّه تعالى فمردود ، ولم يرد به سمع ، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة. ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف المعقول يجب إقراره على ما هو عليه ، فلذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته ولم يجعلوه مثالا. وأما كيفية الإخراج والمخاطبة فاللّه أعلم بذلك.
(2). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 181 فراجعه هناك إن شئت اه مصححه.
(3) قالت له ريح الصبا قرقار واختلط المعروف بالإنكار
لأبى النجم العجلى. و«قرقار» اسم فعل بمعنى قرقر : أمر للسحاب لتنزيله منزلة العاقل ، أى : صوت بالرعد.
هذا قول سيبويه. وقال المبرد تبعاً للمازنى : هو حكاية صوت الرعد ، وهو على كل مبنى على الكسر على أصل التخلص من التقاء الساكنين ، لكنه على الأول متحمل للضمير ، فهو مركب. وعلى الثاني : لا ضمير فيه ، فهو مفرد ، لكن فيه أن حكاية الأصوات لا تفيد حثا ولا زجراً. وهنا يفيد الحث لقرينة المقام ولا فعل لها ، وهذا له فعل. يقال : قرقرت الدجاجة إذا صوتت ، إلا أن يقال إن المعنى : صوت يا رعد قرقار. وقولهم. قرقرت الدجاجة ، مأخوذ من قرقار ، كما أخذوا العياط من عيط بكسرتين بينهما سكون ، حكاية لصوت المتلاعبين. واختلط يحتمل أنه أمر وهو أنسب بما قبله. ويحتمل أنه ماض. والمراد بالإنكار المنكر ، ولا قول للريح. وإنما شبهها حيث تسوق السحاب بمن يصح منه القول ، على طريق المكنية والقول تخييل. ويجوز أن يستعار القول لصوب السحاب ، على طريق التصريح. ويجوز أنه من باب الكناية. وعلى هذا النحو قوله في ناقة صالح : فأتاها أحيمر كأخى السهم بغضب ، فقال كوني عقيراً. وصرف الممنوع الضرورة. وأضاف الملقى لغير الملقى ، ليدل على الملازمة لوجه شبه العاقر بالمبهم. أى قالت الصبا للسحب : قرقر بالرعد. واختلط الأماكن التي اعتدت سقيها بالتي كنت لا تبلغها بالسقى ، أى سو بين الجميع فيه. ويحتمل أن المعروف المطر والمنكر الرعد والبرق والصواعق ، أى افعل الجميع على أنه ماض ، فهو عطف على قالت. وليس من قول الريح. وعليه فيجوز أيضاً رفع المعروف ، ويكون الفعل لازما. وهذا البيت من أبيات الكتاب.

ومعلوم أنه لا قول ثم ، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى أَنْ تَقُولُوا مفعول له ، أى فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول ، كراهة أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ لم ننبه عليه أَوْ كراهة أن تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ فاقتدينا بهم ، لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم ، فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاقتداء بالآباء. كما لا عذر لآبائهم في الشرك - وأدلة التوحيد منصوبة لهم - فإن قلت : بنو آدم وذرّياتهم من هم «1»؟ قلت : عنى ببني آدم : أسلاف اليهود الذين أشركوا باللّه ، حيث قالوا : عزير ابن اللّه. وبذرّياتهم : الذين كانوا في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أخلافهم المقتدين بآبائهم. والدليل على أنها في المشركين وأولادهم : قوله أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ والدليل على أنها في اليهود : الآيات التي عطفت عليها هي ، والتي عطفت عليها وهي على نمطها وأسلوبها ، وذلك قوله وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ، إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ ، وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ، وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ، وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا. أَفَتُهْلِكُنا بما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ أى كانوا السبب في شركنا ، لتأسيسهم الشرك ، وتقدّمهم فيه ، وتركه سنة لنا وَكَذلِكَ ومثل ذلك التفصيل البليغ نُفَصِّلُ الْآياتِ لهم وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وإرادة أن يرجعوا عن شركهم نفصلها. وقرئ : ذريتهم ، على التوحيد. وأن يقولوا : بالياء.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 175 إلى 176]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)

(1). عاد كلامه. قال : «فان قلت بنو آدم وذرياتهم من هم ... الخ»؟ قال أحمد : والأظهر أنها شاملة لجملة بنى آدم فتدخل اليهود في عمومها ، لأن كل واحد من بنى آدم يصدق عليه الأمران جميعاً أنه ابن آدم وأنه ذريته ، ولا يخرج من هذا إلا آدم عليه السلام ، وإنما لم يذكر لظهوره ، ولا يخلو الكلام عن النوع المسمى في فن البلاغة باللف اختصاراً وإيجازاً.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ على اليهود نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها هو عالم من علماء بنى إسرائيل. وقيل : من الكنعانيين ، اسمه بلعم بن باعوراء أوتى علم بعض كتب اللّه فَانْسَلَخَ مِنْها من الآيات ، بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فلحقه الشيطان وأدركه وصار قرينا له. أو فأتبعه خطواته. وقرئ : فاتبعه ، بمعنى فتبعه فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ فصار من الضالين الكافرين. روى أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى وقال : كيف أدعو على من معه الملائكة ، فألحوا عليه ولم يزالوا به حتى فعل وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها لعظمناه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ مال إلى الدنيا ورغب فيها. وقيل : مال إلى السفالة. فإن قلت : كيف علق رفعه بمشيئة اللّه تعالى ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع؟ قلت : المعنى : ولو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها. وذلك أن مشيئة اللّه تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات فذكرت المشيئة. والمراد : ما هي تابعة له ومسببة عنه ، كأنه قيل : ولو لزمها لرفعناه بها. ألا ترى إلى قوله وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله ، فوجب أن يكون وَلَوْ شِئْنا في معنى ما هو فعله ، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال : ولو شئنا لرفعناه ولكنا لم نشأ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهث «1» به واتصاله ، سواء حمل عليه - أى شدّ عليه وهيج فطرد - أو ترك غير متعرّض له بالحمل عليه. وذلك أنّ سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا هيج منه وحرّك ، وإلا لم يلهث ، والكلب يتصل لهثه في الحالتين جميعاً ، وكان حق الكلام أن يقال : ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته ، فوضع قوله فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ موضع حططناه أبلغ حط ، لأنّ تمثيله بالكلب في أخس أحواله وأذلها في معنى ذلك. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه ، الكلب منقطع الفؤاد ، يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل عليه. وقيل : معناه إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال ، كالكلب إن طردته فسعى لهث ، وإن تركته على حاله لهث. فإن قلت : ما محل الجملة الشرطية؟ قلت : النصب على الحال ، كأنه قيل : كمثل الكلب ذليلا دائم الذلة لاهثاً في الحالتين. وقيل : لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره ، وجعل يلهث كما يلهث الكلب ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا من اليهود بعد ما قرءوا نعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في التوراة ،

(1). قوله «دوام اللهث به» في الصحاح لهث الكلب إذا خرج لسانه من التعب أو العطش. وقوله تعالى إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ لأنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هاربا. وإن تتركه شد عليك ونبح ، فيتعب نفسه في الحالين فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان. (ع)

وذكر القرآن المعجز وما فيه ، وبشروا الناس باقتراب مبعثه ، وكانوا يستفتحون به فَاقْصُصِ قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فيحذرون مثل عاقبته ، إذ ساروا نحو سيرته ، وزاغوا شبه زيغه ، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحى فيزدادوا إيقاناً بك وتزداد الحجة لزوماً لهم.

[سورة الأعراف (7) : آية 177]

ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (177)

ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ أى مثل القوم. أو ساء أصحاب مثل القوم. وقرأ الجحدري ساء مثل القوم. وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ إما أن يكون معطوفا على كذبوا ، فيدخل في حيز الصلة بمعنى : الذين جمعوا بين التكذيب ، بآيات اللّه وظلم أنفسهم. وإما أن يكون كلاما منقطعا عن الصلة ، بمعنى : وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب ، وتقديم المفعول به للاختصاص ، كأنه قيل : وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدّها إلى غيرها.

[سورة الأعراف (7) : آية 178]

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (178)

فَهُوَ الْمُهْتَدِي حمل على اللفظ. وفَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ حمل على المعنى.

[سورة الأعراف (7) : آية 179]

وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (179)

كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ هم المطبوع على قلوبهم الذين علم اللّه أنه لا لطف لهم. وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق ، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق اللّه نظر اعتبار ، ولا يسماعون ما يتلى عليهم من آيات اللّه سماع تدبر ، كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الآذان ، وجعلهم - لإعراقهم «1» في الكفر وشدّة شكائمهم فيه ، وأنه لا يأتى منهم إلا أفعال أهل النار - مخلوقين للنار ، دلالة على توغلهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار ومنه كتاب عمر رضى اللّه عنه إلى خالد بن الوليد : بلغني أن أهل الشام اتخذوا لك دلوكا «2»

(1). قوله «لاعراقهم» يقال أعرق الشجر والنبات - بالعين المهملة - إذا امتدت عروقه في الأرض. وأغرق النازع في القوس - بالمعجمة - أى استوفى مدها اه من الصحاح. (ع)
(2). قوله «دلوكا» في الصحاح : الدلوك ما يدلك به من طيب وغيره. (ع) [.....]

عجن بخمر وإنى لأظنكم آل المغيرة ذره النار «1». ويقال لمن كان عريقا في بعض الأمور : ما خلق فلان إلا لكذا. والمراد وصف حال اليهود «2» في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، مع علمهم أنه النبي الموعود. وأنهم من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم ، كأنهم خلقوا للنار أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبر بَلْ هُمْ أَضَلُّ من الأنعام عن الفقه والاعتبار والتدبر أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ الكاملون في الغفلة. وقيل : الأنعام تبصر منافعها ومضارّها فتلزم بعض ما تبصره ، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار.

[سورة الأعراف (7) : آية 180]

وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (180)

وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى التي هي أحسن الأسماء «3» ، لأنها ندل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك فَادْعُوهُ بِها فسموه بتلك الأسماء وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى ، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه ، كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم «4» : يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه ، يا نخىّ. أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى ، نحو أن يقولوا : يا اللّه ، ولا يقولوا : يا رحمن وقد قال اللّه تعالى قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ ، أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى ويجوز أن يراد : وللّه الأوصاف الحسنى «5» ، وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق فصفوه بها ،

(1). أخرجه أبو عبيد في غريبه : حدثني إسماعيل بن عياش عن حميد بن ربيعة عن سليمان بن موسى : أن عمر كتب إلى خالد - فذكره منقطعا.
(2). قوله «و المراد وصف حال اليهود» إنما فسره بذلك لأنه تعالى يجب عليه الأصلح العبد عند المعتزلة ، وخلقه لجهنم ليس أصلح له. وعند أهل السنة لا يجب عليه شيء. (ع)
(3). قال محمود : «معنى الحسنى التي هي أحسن الأسماء ... الخ» قال أحمد : أى مما يجوز عليه وإن لم يرد إطلاقه شرعا ، كالشريف والعارف ، ونحو ذلك.
(4). قال محمود : «كما سمعنا البدو يقولون يجهلهم ... الخ» قال أحمد : وفي هذا التأويل بعد ، لأن ترك الدعاء ببعض الأسماء لا يطلق عليه إلحاد في العرف ، وإنما يطلق على فعل لا على ترك ، ولكن يتميز عن الوجه السالف بأنه أضاف الأسماء الملحد فيها إلى ذاته ، وهذا أدل على الرحمن منه على مثل أبيض الوجه ونحوه ، فان هذا ليس من أسمائه ، إلا أن يقال : أضافه إليه تنزيلا على زعمهم.
(5). قال محمود : «و يجوز أن يراد : وللّه الأوصاف الحسنى ، وهي الوصف بالعدل والخير ... الخ» قال أحمد :
لا يدع حشو العقائد الفاسدة في غير موضع يسعها ، فان يكن المراد الأوصاف ، فالحسنى منها وصف اللّه بعموم القدرة والانفراد بالمخلوقات ، حتى لا يشرك معه عباده في خلق أفعالهم. ويعظم اللّه تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل ، وأن كل قضائه عدل ، وانه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم ، وأن وعده الصدق وقوله الحق ، وقد وعد رؤيته فوجب وقوعها ، إلى غير ذلك من أوصافه الجليلة ، وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيجحدونها ، ثم يزعمون أنه لا تشمل قدرته المخلوقات ، بل هي مقسومة بينه وبين عباده ، ويوجبون عليه رعاية ما يتوهمونه مصلحة ، ويحجرون واسعاً من مغفرته وعفوه وكرمه على الخطائين من موحديه ، إلى غير ذلك من الإلحاد المعروف بالطائفة المتلقبين عدلية ، المزكين لأنفسهم وهو أعلم بمن اتقى.

وذروا الذين يلحدون «1» في أوصافه فيصفونه بمشيئة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها وقيل : إلحادهم في أسمائه : تسميتهم «2» الأصنام آلهة ، واشتقاقهم اللات من اللّه ، والعزى من العزيز.

[سورة الأعراف (7) : آية 181]

وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181)

لما قال وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً فأخبر أنّ كثيراً من الثقلين عاملون بأعمال أهل النار ، أتبعه قوله وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يقول إذا قرأها «هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها «3»» وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وعنه صلى اللّه عليه وسلم «إنّ من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى عليه السلام «4»» وعن الكلبي : هم الذين آمنوا من أهل الكتاب. وقيل : هم العلماء والدعاة إلى الدين.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 182 إلى 185]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183) أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (184) أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185)

(1). قوله «و ذر الذين يلحدون» يريد أهل السنة القائلين : كل كائن فهو مراد ومخلوق له تعالى ولو شرا ، وتجوز رؤيته ، خلافا للمعتزلة في كل ذلك ، كما تقرر في محله. (ع)
(2). قال محمود : «و قيل إلحادهم في أسمائه : تسميتهم ... الخ» قال أحمد : وهذا تفسير حسن ملائم ، واللّه أعلم.
(3). ذكره الثعلبي عن قتادة وابن جريج. وإسناده إليها مذكور في أول كتابه.
(4). ذكره الثعلبي عن الربيع بن أنس ، وإسناده إليه في أول كتابه. رواه أحمد من حديث عمران بن حصين بلفظ «لا تزال طائفة من أمتى على الحق حتى يأتى أمر اللّه ، وينزل عيسى ابن مريم» وفي تاريخ البخاري عن عبد الطغاوى عن جابر نحوه ، ورواه أبو يعلى من وجه آخر ، وزاد «فيقول إمامهم : تقدم يا روح اللّه فيقول : أنتم أحق أمر كرم به هذه الأمة».

الاستدراج : استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد ، أو الاستنزال درجة بعد درجة.

قال الأعشى : فلو كنت في جبّ ثمانين قامة ورقيت أسباب السّماء بسلّم ليستدر جنك القول حتّى تهرّه وتعلم أنّى عنكم غير مفحم «1»

ومنه : درج الصبى إذا قارب بين خطاه. وأدرج الكتاب : طواه شيئاً بعد شيء. ودرج القوم : مات بعضهم في أثر بعض. ومعنى سَنَسْتَدْرِجُهُمْ سنستدنيهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ما يراد بهم. وذلك أن يواتر اللّه نعمه عليهم مع انهماكهم في الغىّ ، فكلما جدّد عليهم نعمة ازدادوا بطراً وجدّدوا معصية ، فيتدرّجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ، ظانين أنّ مواترة النعم أثرة من اللّه وتقريب ، وإنما هي خذلان منه وتبعيد ، فهو استدراج اللّه تعالى ، نعوذ باللّه منه وَأُمْلِي لَهُمْ عطف على سَنَسْتَدْرِجُهُمْ وهو داخل في حكم السين إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ سماه كيداً لأنه شبيه بالكيد ، من حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان ما بِصاحِبِهِمْ بمحمد صلى اللّه عليه وسلم مِنْ جِنَّةٍ من جنون ، وكانوا يقولون شاعر مجنون. وعن قتادة أنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم علا الصفا فدعاهم فخذاً فخذاً يحذرهم بأس اللّه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون ، بات يهوّت «2» إلى الصباح «3» أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا نظر استدلال فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فيما تدلان عليه من عظم الملك. والملكوت : الملك العظيم وَما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وفيما خلق اللّه مما يقع عليه اسم الشيء ، من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف وَأَنْ عَسى أن مخففة من الثقيلة ، والأصل : وأنه عسى ، على أن الضمير ضمير الشأن. والمعنى : أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ولعلهم يموتون عما قريب ، فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم. قبل مغافصة الأجل «4» وحلول العقاب. ويجوز أن يراد باقتراب الأجل : اقتراب الساعة ، ويكون من «كان» التي فيها ضمير الشأن.

فإن قلت : بم يتعلق قوله فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ؟ قلت : بقوله عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ كأنه قيل : لعلّ أجلهم قد اقترب ، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت ، وما ذا ينتظرون بعد وضوح الحقّ ، وبأىّ حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا.

(1). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 395 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). قوله «بات يهوت» أى يضيح. (ع)
(3). أخرجه الطبري بإسناد صحيح إلى قتادة قال «ذكر لنا - فذكره. فأنزل اللّه أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ الآية
(4). قوله «قبل مغافصة الأجل» أى أخذه إياهم على حين غفلة. اه من الصحاح. (ع)

[سورة الأعراف (7) : آية 186]

مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)

قرئ وَيَذَرُهُمْ بالياء والنون ، والرفع على الاستئناف ، ويذرهم ، بالياء والجزم عطفا على محل فَلا هادِيَ لَهُ كأنه قيل : من يضلل الله لا يهده أحد ويذرهم.

[سورة الأعراف (7) : آية 187]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (187)

يَسْئَلُونَكَ قيل إن قوما من اليهود قالوا : يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً ، فإنا نعلم متى هي ، وكان ذلك امتحاناً منهم ، مع علمهم أن الله تعالى قد استأثر بعلمها. وقيل : السائلون قريش. والسَّاعَةِ من الأسماء الغالبة ، كالنجم للثريا. وسميت القيامة بالساعة ، لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها ، أو على العكس لطولها ، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق. أَيَّانَ بمعنى متى. وقيل : اشتقاقه من أىّ فعلان منه ، لأن معناه أىّ وقت وأى فعل ، من أويت إليه ، لأن البعض آو إلى الكل متساند إليه ، قاله ابن جنى ، وأبى أن يكون من «أين» لأنه زمان ، «و أين» مكان. وقرأ ا لسلمى : إيان ، بكسر الهمزة «1» مُرْساها إرساؤها ، أو وقت إرسائها ، أى إثباتها وإقرارها. وكل شيء ثقيل رسوّه ثباته واستقراره. ومنه : رسى الجبل وأرسى السفينة. والمرسى : الأنجر الذي ترسى به ، ولا أثقل من الساعة ، بدليل قوله ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ والمعنى : متى يرسيها الله إِنَّما عِلْمُها أى علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به ، لم يخبر به أحداً من ملك مقرّب ولا نبىّ مرسل ، يكاد يخفيها من نفسه ، ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو وقت الموت لذلك لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ أى لا تزال خفية ، لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة ، لا يجليها «2» بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه ، لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أى كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة ،

(1). قوله «و قرأ السلمى إيان بكسر الهمزة» في الصحاح «أيان» سؤال عن زمان و«إيان» بكسر الهمزة لغة سليم. وبه قرأ السلمى أَيَّانَ يُبْعَثُونَ. (ع) [.....]
(2). قوله «بغتة لا يجليها» لعله : وقيل لا يجليها ، بل لعله «أو لا يجليها». (ع)

ويودّه أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه. أو ثقلت فيها لأن أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدها وأهوالها. أو لأن كل شيء لا يطيقها ولا يقوم لها فهي ثقيلة فيها إِلَّا بَغْتَةً إلا فجأة على غفلة منكم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه «1» والرجل يسقى ماشيته ، والرجل يقوّم سلعته في سوقه ، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه «2»» كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها كأنك عالم بها. وحقيقته : كأنك بليغ في السؤال عنها «3» ، لأن من بالغ في المسألة عن الشيء والتنقير عنه ، استحكم علمه فيه ورصن «4» وهذا التركيب معناه المبالغة. ومنه : إحفاء الشارب. واحتفاء البقل : استئصاله. وأحفى في المسألة ، إذا ألحف «5». وحفى بفلان وتحفى به : بالغ في البرّ به.

(1). قوله «و الرجل يصلح حوضه» في البخاري : يليط حوضه. وروى «يلوط» أى يصلحه اه (ع)
(2). أخرجه الطبري بالإسناد المذكور إلى قتادة قال ذكر لنا - فذكره ، وفي الصحيحين عن أبى هريرة رفعه «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه - الحديث».
(3). قال محمود «معناه كأنك بليغ في السؤال عنها ... الخ» قال أحمد وفي هذا النوع من التكرير نكتة لا تلفى إلا في الكتاب العزيز، وهو أجل من أن يشارك فيها ، وذاك أن المعهود في أمثال هذا التكرير أن الكلام إذا بنى على مقصد ، واعترض في أثنائه عارض فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول وقد بعد عهده ، طرى بذكر المقصد الأول لتتصل نهايته ببدايته ، وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال ، وسيأتى وهذا منها ، فانه لما ابتدأ الكلام بقوله يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي إلى قوله بَغْتَةً أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم ، وهو المضمن في قوله كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها وهو شديد التعلق بالسؤال ، وقد بعد عهده فطري ذكره تطرية عامة ، ولا نراه أبدا يطرى إلا بنوع من الإجمال كالتذكرة للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدم ، فمن ثم قيل يَسْئَلُونَكَ ولم يذكر المسئول عنه وهو الساعة ، اكتفاء بما تقدم ، فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضا مجملا فقال قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ ويلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد بسطه. ومن أدق ما وقفت عليه العرب في هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد تطرية للذكر قوله :
عجل لنا هذا وألحقنا بذا ال الشحم إنا قد مللناه يجل

أى فقط ، فذكر الألف واللام خاتمة للأول من الرجزين ، ثم لما استفتح الرجز الثاني استبعد العهد بالأولى ، فطري ذكرها وأبقى الأولى في مكانها. ومن ثم استدل ابن جنى على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء فهو بيت كامل وليس بنصف ، كما ذهب إليه أبو الحسن ، قال : ولو كان بيتا واحدا لم يكن عهد الأولى متباعدا ، فلم يكن محتاجا إلى تكريرها. ألا ترى أن عبيداً لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات وجعل آخر المصراع الأول ألل ، لم يعدها أول المصراع الثاني ، لأنها بيت واحد ، فلم ير عهدها بعيدا ، وذلك قوله :

يا خليلي أربعا واستخبرا ال منزل الدارس من أهل الحلال
مثل سحق البرد عنى بعدك ال قطر مغناه وتأويب الشمال

ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتا ، فانظر هذه النكتة كيف بالغت العرب في رعايتها حتى عدت القريب بعيدا والمتقاصر مديدا ، فتأملها فإنها تحفة إنما تنفق عند الحذاق الأعيان في صناعتي العربية والبيان ، والله المستعان.

(4). قوله «و رصن» أى : ثبت وتمكن اه. (ع)

(5). قوله «إذا ألحف» أى ألح وعنف اه. (ع)

وعن مجاهد : استحفيت عنها السؤال حتى علمت. وقرأ ابن مسعود : كأنك حفىّ بها ، أى عالم بها بليغ في العلم بها. وقيل عَنْها متعلق بيسئلونك : أى يسئلونك عنها كأنك حفىّ أى عالم بها. وقيل : إن قريشاً قالوا له إن بيننا وبينك قرابة ، فقل لنا متى الساعة؟ فقيل : يسئلونك عنها كأنك حفىّ تتحفى بهم فتختصهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوى علمها عن غيرهم ، ولو أحبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في إخبارك به ، لكنت مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص ، كسائر ما أوحى إليك.

وقيل : كأنك حفىّ بالسؤال عنها تحبه وتؤثره ، يعنى أنك تكره السؤال عنها لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به ولم يؤته أحداً من خلقه. فإن قلت : لم كرر يسئلونك وإنما علمها عند الله؟

قلت : للتأكيد ، ولما جاء به من زيادة قوله كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة ، منهم محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة رحمهما الله وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أنه العالم بها ، وأنه المختص بالعلم بها.

[سورة الأعراف (7) : آية 188]

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي هو إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب : أى أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كالمماليك والعبيد إِلَّا ما شاءَ ربى ومالكى من النفع لي والدفع عنى وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لكانت حالى على خلاف ما هي عليه ، ومن استكثار الخير ، واستغزار المنافع ، واجتناب السوء والمضارّ ، حتى لا يمسني شيء منها. ولم أكن غالباً مرة ومغلوبا أخرى في الحروب ، ورابحا وخاسرا في التجارات ، ومصيبا مخطئا في التدابير إِنْ أَنَا إِلَّا عبد أرسالات نذيراً وبشيراً ، وما من شأنى أنى أعلم الغيب لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعاً ، لأن النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم.

أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفا أى إلا نذير للكافرين ، وبشير لقوم يؤمنون.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 189 إلى 190]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190)

مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وهي نفس آدم عليه السلام وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها وهي حواء ، خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه. أو من جنسها كقوله جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً.

لِيَسْكُنَ إِلَيْها ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر ، لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس ، وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه. وقال لِيَسْكُنَ فذكر بعد ما أنث في قوله : واحدة. منها زوجها ، ذهابا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم. ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها ، فكان التذكير أحسن طباقا للمعنى. والتغسى : كناية عن الجماع ، وكذلك الغشيان والإتيان حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً خف عليها ، ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى ، ولم

تستثقله كما يستثقلنه ، وقد تسمع بعضهن تقول في ولدها : ما كان أخفه على كبدي حين حملته فَمَرَّتْ بِهِ فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق «1» وقيل حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً يعنى النطفة فَمَرَّتْ بِهِ فقامت به وقعدت. وقرأ ابن عباس رضى الله عنه : فاستمرت به ، وقرأ يحيى بن يعمر : فمرت به ، بالتخفيف. وقرأ غيره : فمارت به ، من المرية ، كقوله أَفَتُمارُونَهُ وأ فتمرونه. ومعناه : فوقع في نفسها ظن الحمل ، فارتابت به فَلَمَّا أَثْقَلَتْ حان وقت ثقل حملها كقولك : أقربت «2». وقرئ : أثقلت ، على البناء المفعول : أى أثقلها الحمل دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه فقالا لَئِنْ آتَيْتَنا لئن وهبت لنا صالِحاً ولداً سوياً قد صلح بدنه وبريء «3». وقيل. ولداً ذكراً ، لأن الذكورة من الصلاح والجودة. والضمير في آتَيْتَنا ولَنَكُونَنَّ. لهما ولكل من يتناسل من ذرّيتهما «4»

(1). قوله «من غير إخداج ولا إزلاق» إخداج : أى نقصان. ولا إزلاق : أى إسقاط. (ع)
(2). قوله «كقولك أقربت» أى قرب ولادها. (ع)
(3). قوله «و بري ء» لعله : وبريء من الآفات. (ع)
(4). قال محمود : «الضمير في آتَيْتَنا ولَنَكُونَنَّ لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما ... الخ» قال أحمد وأسلم من هذين التفسيرين وأقرب - والله أعلم - أن يكون المراد جنسى الذكر والأنثى ، لا يقصد فيه إلى معين ، وكان المعنى - والله أعلم - خلقكم جنسا واحدا ، وجعل أزواجكم منكم أيضا لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الآخر الذي هو الأنثى جرّى من هذين الجنسين كيت وكيت. وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون ، لأن المشركين منهم أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا وقُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ كما أنه كذلك على التفسير الأول أضاف الشرك إلى أولاد آدم وحواء وهو واقع من بعضهم وعلى التفسير الثاني أضافه إلى قصى وعقبه ، والمراد البعض ، فهذا السؤال وارد على التأويلات الثلاثة ، وجوابه واحد ويسلم هذا الثالث من حذف المضاف المضطر إليه في التأويل الأول. ومما ينصرف إلى التأويل الثاني من استبعاد تخصيص قصى بهذا الأمر المشترك في الجنس ، وهو جعل زوجته منه وكون المراد بذلك أن يسكن إليها لأن ذلك عام في الجنس ، والله أعلم.

فَلَمَّا آتاهُما ما طلباه من الولد الصالح السوىّ جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ أى جعل أولادهما له شركاء ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وكذلك فِيما آتاهُما أى آتى أولادهما ، وقد دلّ على ذلك بقوله فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ حيث جمع الضمير. وآدم وحواء بريئان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله : تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناة «1» وعبد شمس وما أشبه ذلك ، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم. ووجه آخر وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم آل قصى ألا ترى إلى قوله في قصة أم معبد «2» :

فَيَا لَقُصَىّ مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُمُ بِهِ مِنْ فَخَارٍ لَا يُبَارَى وَسُودَدِ «3»

ويراد هو الذي خلقكم من نفس قصىّ ، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها ، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوىّ جعلا له شركاء فيما آتاهما ، حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصىّ وعبد الدار ،

(1). قوله «و عبد مناة» في النسفي : وعبد مناف (ع)
(2). هذا طرف من حديث أم معبد في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم. وقد أخرجه الحاكم مطولا. من حديثها وحديث أخيها حبيس بن خالد. ومن حديث زوجها أبى معبد ، وطريق أم معبد رويناها في الغيلانيات. وفي الطبراني وفي الدلائل لأبى نعيم والبيهقي.
(3) جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر ثم ترحلا فيا فوز من أمسى رفيق محمد
فيالقصى ما زوى الله عنكم به من فخار لا يبارى وسؤدد
ليهن بنى سعد مقام فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد
لرجل من الجن ، سمعوا صوته بمكة ولم يروا شخصه ، حين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مع أبى بكر مهاجراً وجهل أهلها خبرهما بعد خروجهما من الغار. ويروى «جزاية» بالتاء كهداية. ويروى «قالا» بدل «حلا» والمعنى متقارب ، إلا أن الثاني خاص بالاستراحة في منتصف النهار. و«خيمتي» نصب على التوسع بحذف حرف الجر و«أم معبد» امرأة من بنى سعد نزلا عندها بالبر والخير. ذكر بعضهم أن اسمها عاتكة بنت خالد الخزاعية و«بالقصى» أصله «يا آل قصى» فخفف وقد اختلف فيها ، فقيل : أصلها يا آل قصى أيضاً. وقيل : هي حرف جر ، فقيل زائد. وقيل أصلى متعلق بيا عند سيبويه ، وبالفعل الذي نابت عنه عند ابن جنى «و ما» استفهامية ، والمعنى : يا آل قصى ، أتدرون ما قبضه الله ومنعه بخروج رسول الله من بينكم من فخار لا يضاهي ومن شرف عظيم؟
وفي هذا الاستفهام معنى التعجب والاستعظام ، حتى كأن المستفهم عنه لا يعرف كنهه. ويجوز أن اللام للتعجب ، و«ما» موصول بدل من «قصى». ويجوز أن اللام للاستغاثة ، كأنه استغاث بهم لعلهم يتداركون ما فاتهم. وساد في قومه : شرف ، ومصدره السؤدد، بالهمز وضم الدال ، وبالواو فتفتح داله كما هنا. والأصل : السود - بالضم - كالحسن ، فزيدت الدال للإلحاق بيرفع وجندب. «و ليهن» مجزوم بلام الأمر ، والمقصود الدعاء. و«مقام» فاعل ، و«بنى» مفعول. يقال : هنأه الطعام ونحوه ، بالهمز : إذا نفعه وحمدت عاقبته عنده ، وهو من بابى نفع وضرب ، ويبدل همزه بما يناسب ما قبله ، وقد يحذف البدل كما هنا ، كأنه أصلى ، لكن الحذف عامي. والمرصد والمرصاد : الطريق يرصد فيه الرصد. وقوله «للمؤمنين» فيه حث على الهجرة.

وجعل الضمير في يُشْرِكُونَ لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك ، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه. وقرئ : شركاء أى ذوى شرك وهم الشركاء ، أو أحدثا اللّه شركا في الولد.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 191 إلى 193]

أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (193)

أجريت الأصنام مجرى أولى العلم في قوله وَهُمْ يُخْلَقُونَ بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة. والمعنى : أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق اللّه ، وهم يخلقون؟ لأن اللّه عز وجل خالقهم. أو لا يقدر على اختلاق شيء ، لأنه جماد ، وهم يخلقون ، لأن عبدتهم يختلقونهم ، فهم أعجز من عبدتهم وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ لعبدتهم نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث ، بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم وَإِنْ تَدْعُوهُمْ وإن تدعوا هذه الأصنام إِلَى الْهُدى أى إلى ما هو هدى ورشاد ، وإلى أن يهدوكم. والمعنى : وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من اللّه الخير والهدى ، لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبتكم ، ولا يجيبوكم كما يجيبكم اللّه. ويدل عليه قوله فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أم صمتم عن دعائهم ، في أنه لا فلاح معهم. فإن قلت : هلا قيل : أم صمتم؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية؟ قلت: لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا اللّه دون أصنامهم ، كقوله وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم ، فقيل : إن دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم ، وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 194 إلى 195]

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (195)

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون اللّه عِبادٌ أَمْثالُكُمْ وقوله عِبادٌ أَمْثالُكُمْ استهزاء بهم ، أى قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم. ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها وقيل : عباد أمثالكم مملوكون أمثالكم. وقرأ سعيد بن جبير : إن الذين تدعون من دون اللّه عباداً أمثالكم بتخفيف إن ونصب عباداً أمثالكم ، والمعنى : ما الذين تدعون من دون اللّه عباداً أمثالكم ، على إعمال «إن» النافية عمل «ما» الحجازية قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ واستعينوا بهم في عداوتي ثُمَّ كِيدُونِ جميعاً أنتم وشركاؤكم فَلا تُنْظِرُونِ فإنى لا أبالى بكم ، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة اللّه ، وكانوا قد خوّفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك ، كما قال قوم هود له : إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قال لهم : أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ.

[سورة الأعراف (7) : الآيات 196 إلى 197]

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197)

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ أى ناصري عليكم اللّه الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ الذي أوحى إلىّ كتابه وأعزنى برسالته وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ومن عادته أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه ولا يخذلهم.

[سورة الأعراف (7) : آية 198]

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (198)

يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ يشبهون الناظرين إليك ، لأنهم صوّروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ وهم لا يدركون المرئىّ

[سورة الأعراف (7) : آية 199]

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (199)
الْعَفْوَ ضد الجهد : أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم ، وتسهل من غير كلفة ، ولا تداقهم، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا ، كقوله صلى اللّه عليه وسلم «يسروا ولا تعسروا» «1» قال : خذي العفو منى تستديمى مودّتى ولا تنطقى في سورتي حين أغضب «2»

(1). متفق عليه من حديث أنس أتم منه. [.....]
(2). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 362 فراجعه إن شئت اه مصححه.

وقيل : خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم ، وذلك قبل نزول آية الزكاة ، فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعاً أو كرهاً. والعرف : المعروف والجميل من الأفعال وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم ، ولا تمارهم ، واحلم عنهم ، وأغض على ما يسوؤك منهم. وقيل : لما نزلت الآية سأل جبريل فقال : لا أدرى حتى أسأل «1» ، ثم رجع فقال : يا محمد ، إن ربك أمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك. وعن جعفر الصادق : أمر اللّه نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

[سورة الأعراف (7) : آية 200]

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200)

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ وإما ينخسنك منه نخس ، بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ولا تطعه. النزغ والنسغ : الغرز والنخس ، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي. وجعل النزغ نازغا ، كما قيل جدّ جدّه. وروى أنها لما نزلت قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «كيف يا رب والغضب «2»» فنزل وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ ويجوز أن يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب ، كقول أبى بكر رضى اللّه عنه : إنّ لي شيطاناً يعتريني «3»

[سورة الأعراف (7) : الآيات 201 إلى 202]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (201) وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (202)

(1). أخرجه الطبري من طريق سفيان بن عيينة عن أبي المرادي قال لما أنزل اللّه فذكره وهذا منقطع. وأخرجه ابن مردويه موصولا من حديث جابر ومن حديث قيس بن سعد ، وزاد في أوله «لما نظر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى حمزة قال : واللّه لأمثلن بسبعين منهم. فجاء جبريل بهذه الآية ، فذكر الحديث» وفي مسند أحمد عن عقبة بن عامر «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال له : يا عقبة ، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا : أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وغفل الطيبي فقال في حديث الأصل : رواه أحمد من حديث عقبة بن عامر.
(2). أخرجه الطبري من رواية ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم «لما نزلت» فذكره مفصلا.
(3). أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده. وابن سعد في الطبقات قالا : حدثنا وهب بن جرير حدثنا جرير بن حازم سمعت الحسن يقول «خطب أبو بكر رضى اللّه عنه يوما ، فقال : أما واللّه ، ما أنا بخيركم ولقد كنت لمقامى هذا كارها. ولوددت أن فيكم من يكفيني أفرط ، وأن أعمل فيكم بسنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذ؟؟؟؟ أقوم لها ، إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يعتصم بالوحي. وكان معه ملك. وإن لي شيطانا يعتريني. فإذا غضبت فاجتنبوني الحديث» رواه عبد الرزاق عن معمر عن رجل عن الحسن نحوه. ورويناه في جزء الأنصارى من طريق أبى هلال عن الحسن قال «لما استخلف أبو بكر بدأ بكلام واللّه ما تكلم به أحد غيره» فذكر نحوه.

طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ لمة منه مصدر ، من قولهم : طاف به الخيال يطيف طيفاً. قال : أَنَّى أَلَمَّ بِكَ الْخَيَالُ بَطِيفُ «1»

أو هو تخفيف طيف فيعل ، من طاف يطيف كلين. أو من طاف يطوف كهين. وقرئ : طائف ، وهو يحتمل الأمرين أيضاً. وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة باللّه عند نزغ الشيطان ، وأنّ المتقين هذه عادتهم : إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته تَذَكَّرُوا ما أمر اللّه به ونهى عنه ، فأبصروا السداد ودفعوا ما وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم. وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين ، فإن الشياطين يمدونهم في الغى ، أى يكونون مدداً لهم فيه ويعضدونهم. وقرئ : يمُدّونهم من الامداد. ويمادّونهم ، بمعنى يعاونونهم ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا. وقوله وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ كقوله :

قَوْمٌ إِذَا الْخَيْلُ جَالُوا فِى كَوَاثِبِهَا «2»

في أنّ الخبر جار على ما هو له. ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين ، ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين، فيكون الخبر جاريا على ما هو له ، والأوّل أوجه ، لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا. فإن قلت : لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد؟ قلت : المراد به الجنس ، كقوله أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ.

(1) أنى ألم به الخيال يطيف ومطافه بك ذكرة وشغوف
لكعب بن زهير. وأنى : استفهام تعجبي بمعنى كيف ، أو من أين. وألم : أى نزل للزيارة. والخيال : ما يراه النائم. وطاف به الخيال يطيف طيفا ومطافا : أقبل عليه. وطاف حوله يطوف طوافا وطوفانا : حام عليه ودار حوله ، ويكنى به عن اللمس. وقوله «يطيف» جملة حالية مؤكدة أو مؤسسة. ومطافه : أى طيفه هو سبب التذكر ووصول الحب لشغاف القلب ، فأقام المسبب مقام السبب ، وعبر عن نفسه أولا بضمير الغيبة ، وثانيا بالخطاب. على طريق الالتفات فرارا من شبهة التكرار. وروى بك بالخطاب.
(2) قوم إذا الخيل جالوا في كواثبها فوارس الخيل لا ميل ولا قدم
«الخيل» الأفراس. و«الكاثبة» الفرس القربوس ، وللبعير الغارب ، والرجل الكاهل. والحمار السيسيا.
و«الميل» جمع أميل ، وهو الذي لا يثبت على ظهر فرسه. والقدم : جمع أقدم ، وهو اللئيم الضعيف. أو جمع قدم بالسكون بمعناه. وضمير «جالوا» للقوم ، فجرى الخبر على غير ما هو له. أى إذا الخيل جالوا هم في سروجها وما يبرز الضمير هكذا ، لأن محل وجوبه في الصفة لا الفعل ، أو لأمن اللبس ، لأن الواو ضمير العقلاء. فإن قيل :
إن «إذا» لا تضاف إلا الجملة الفعلية ، فالخيل فاعل فعل محذوف. أجيب بمنع أنها لا تضاف إلا للفعلية ، وبأن ذلك في الشرطية لا الظرفية كما هنا. وقيل : يحتمل على بعد أن الخيل بمعنى الفرسان ، وضمير كواثبها للأفراس المدلول عليها بذكر الخيل : أى قوم إذا الفرسان جالوا في كواثب الأفراس ، فوارس الخيل ، ثابتون عليها لا مائلون عن ظهورها ، ولا عاجزون كأن أيديهم مغلولة.

[سورة الأعراف (7) : آية 203]

وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203)

اجتبى الشيء ، بمعنى جباه لنفسه : أى جمعه ، كقولك : اجتمعه ، أو جبى إليه فاجتباه : أى أخذه ، كقولك : جليت إليه العروس فاجتلاها ، ومعنى لَوْلا اجْتَبَيْتَها هلا اجتمعتها ، افتعالا من عند نفسك ، لأنهم كانوا يقولون : ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً أو هلا أخذتها منزّلة عليك مقترحة؟ قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ولست بمفتعل للآيات ، أو لست بمقترح لها هذا بَصائِرُ هذا القرآن بصائر مِنْ رَبِّكُمْ أى حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى ، أو هو بمنزلة بصائر القلوب.

[سورة الأعراف (7) : آية 204]

وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)

وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة. وقيل : كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت ، ثم صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في مجلس يقرأ فيه القرآن. وقيل معناه : وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له. وقيل : معنى فاستمعوا له : فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.

[سورة الأعراف (7) : آية 205]

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (205)

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ هو عامّ في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك تَضَرُّعاً وَخِيفَةً متضرعاً وخائفاً وَدُونَ الْجَهْرِ ومتكلما كلاماً دون الجهر ، لأنّ الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ لفضل هذين الوقتين. أو أراد الدوام. ومعنى بالغدوّ : بأوقات الغدوّ ، وهي الغدوات. وقرئ : والإيصال ، من آصل إذا دخل في الأصيل ، كأقصر وأعتم «1» وهو مطابق للغدوّ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ من الذين يغفلون عن ذكر اللّه ويلهون عنه.

[سورة الأعراف (7) : آية 206]

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)

(1). قوله «كأقصر وأعتم» أقصر : أى دخل في القصر أى العشى ، وأعتم : دخل في العتمة ، أى وقت العشاء. أفاده الصحاح. (ع)

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ هم الملائكة صلوات اللّه عليهم. ومعنى عِنْدَ دنوّ الزلفة ، والقرب من رحمة اللّه تعالى وفضله، لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته وَلَهُ يَسْجُدُونَ ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره ، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : من «قرأ سورة الأعراف جعل اللّه يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً ، وكان آدم شفيعاً له يوم القيامة» «1»

سورة الأنفال

مدنية ، [إلا من آية 30 إلى غاية آية 36 فمكية] وهي خمس وسبعون آية [نزلت بعد البقرة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنفال (8) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

النفل : الغنيمة ، لأنها من فضل اللّه تعالى وعطائه. قال لبيد :

إنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ «2»

(1). ذكرت أسانيده في تفسير آل عمران وسيأتى في آخر الكتاب.
(2) إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن اللّه ريثى وعجل
أحمد اللّه فلا ند له بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل
للبيد بن ربيعة العامري ، شبه الثواب الذي وعده اللّه عباده على التقوى بالنفل - بالتحريك - وهو ما يعده الامام المجاهد تحريضا على اقتحام الحرب فاستعار النفل له على طريق التصريحية وأخبر به عن التقوى لأنها سببه. ويجوز استعارة النفل التقوى بجامع النفع ، وبإذن اللّه وتسهيله. ريثى : أى بطئى ، وعجل : أى سرعتي ، فحذفت ياء الاضافة للوزن ، فلا ند : أى لا مثل له ، بيديه : أى بقدرته التي هي كالآلة في أفعاله تعالى كاليدين لأفعالنا. ويحتمل أنه شبه خزائنه سبحانه باليد فيها شيء ، لسهولة تصرفه فيما فيها واختصاصه به ، فالباء بمعنى في. وتثنية اليد للمبالغة في التشبيه ، ولا مانع من جعله ترشيحا للاستعارة على الوجهين. «ما شاء فعل» أى ما أراده فعله ، وبين ذلك بقوله «من هداه طرق الخير اهتدى» حتما حال كونه طيب الشأن. ومن شاء إضلاله أضله حتما ، أى تركه ونفسه ومنعه لطفه ، حتى يضل حال كونه كاسف البال أى حزين القلب في العاقبة ، فهي حال منتظرة «أو سيء الحال والشأن ، وهذا محذوف معلوم من المقابلة بما قبله.

والنفل ما ينفله الغازي ، أى يعطاه زائداً على سهمه من المغنم ، وهو أن يقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب : من قتل قتيلا فله سلبه. أو قال لسرية : ما أصبتم فهو لكم ، أو فلكم نصفه أو ربعه. ولا يخمس النفل ، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه. وعند الشافعي رحمه اللّه في أحد قوليه : لا يلزم. ولقد وقع الاختلاف بين المسلمين في غنائم بدر ، وفي قسمتها ، فسألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كيف تقسم ، ولمن الحكم في قسمتها؟ أللمهاجرين أم للأنصار؟ أم لهم جميعاً؟

فقيل له : قل لهم هي لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «1» وهو الحاكم فيها خاصة يحكم فيها ما يشاء ، ليس لأحد غيره فيها حكم. وقيل شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينفله ، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ، فلما يسر اللّه لهم الفتح اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا ، فقال الشبان : نحن المقاتلون ، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات : كنا ردآ لكم وفئة تنحازون إليها إن انهزمتم «2» وقال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : المغنم قليل والناس كثير : وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك. فنزلت. وعن سعد بن أبى وقاص : قتل أخى عمير يوم بدر ، فقتلت به سعيد بن العاص «3» وأخذت سيفه فأعجبنى ، فجئت به إلى رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وعلى آله وسلم فقلت : إنّ اللّه قد شفى صدري من المشركين ، فهب لي هذا السيف فقال : ليس هذا لي ولا لك ، اطرحه في القبض «4» فطرحته وبى مالا يعلمه إلا اللّه تعالى من قتل أخى وأخذ سلبي ، فما جاوزت إلا قليلا حتى جاءني رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم وقد أنزلت سورة الأنفال ،

(1). أخرجه أحمد وإسحاق وابن حبان والحاكم من حديث أبى أمامة عن عبادة بن الصامت. قال : خرجنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم فشهدنا معه بدرا. فالتقى الناس. فهزم اللّه العدو. فذكر الحديث في اختلافهم في قسمة الغنائم. قال : فنزلت ويسألونك عن الأنفال - الآية. فقسمها النبي صلى اللّه عليه وسلم بين المسلمين.

(2). أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم من رواية داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من أتى مكان كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا. فتسارع إليه الشبان وثبت الشيوخ تحت الرايات - الحديث» قلت : وأما قوله «حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين» فليس في هذا الحديث.
(3). «قوله فقتلت به سعيد بن العاص» في حواشي البيضاوي : أنه العاص بن سعيد. (ع)
(4). قوله «في القبض - كسبب - : المال المقبوض. (ع)

فقال : يا سعد ، إنك سألتنى السيف وليس لي ، وإنه قد صار لي فاذهب فخذه «1» وعن عبادة بن الصامت : نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه اللّه من أيدينا فجعله لرسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم ، فقسمه بين المسلمين على السواء ، وكان في ذلك تقوى اللّه وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين «2». وقرأ ابن محيصن : يسألونك علنفال ، بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، وإدغام نون عن في اللام : وقرأ ابن مسعود : يسألونك الأنفال ، أي يسألك الشبان ما شرطت لهم من الأنفال. فان قلت : ما معنى الجمع بين ذكر اللّه والرسول في قوله قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ؟ قلت : معناه أنّ حكمها مختص باللّه ورسوله ، يأمر اللّه بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ويمتثل الرسول أمر اللّه فيها ، وليس الأمر في قسمتها مفوّضا إلى رأى أحد ، والمراد : أنّ الذي اقتضته حكمة اللّه وأمر به رسوله أن يواسى المقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات ، فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم ، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافي فَاتَّقُوا اللَّهَ في الاختلاف والتخاصم ، وكونوا متحدين متآخين في اللّه وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وتآسوا وتساعدوا فيما رزقكم اللّه وتفضل به عليكم. وعن عطاء : كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال : اقسموا غنائمكم بالعدل ، فقالوا : قد أكلنا وأنفقنا ، فقال : ليردّ بعضكم على بعض. فان قلت : ما حقيقة قوله ذاتَ بَيْنِكُمْ؟ قلت : أحوال بينكم ، يعنى ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق ، كقوله بِذاتِ الصُّدُورِ وهي مضمراتها.

لما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها : ذات البين ، كقولهم : اسقني ذا إنائك ، يريدون ما في الإناء من الشراب. وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة اللّه ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته ، ليعلمهم أنّ كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها. ومعنى قوله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إن كنتم كاملى الإيمان. واللام في قوله إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إشارة إليهم. أى إنما الكاملو الإيمان من صفتهم كيت وكيت والدليل عليه قوله أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا. وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ فزعت. وعن أمّ الدرداء : الوجل في القلب كاحتراق السعفة «3» ، أما تجد له قشعريرة؟ قال. بلى ، قالت : فادع اللّه فإنّ الدعاء يذهبه ، يعنى فزعت لذكره استعظاما له ، وتهيبا من جلاله وعزّة سلطانه وبطشه بالعصاة وعقابه ،

(1). أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وأبو شيبا وأبو عبيد في الأموال : وسعيد ابن منصور كلهم قال : حدثنا أبو معاوية عن الشيباني عن محمد بن عبيد بن أبى عون عنه قال أبو عبيد : كذا يقول : سعيد بن العاصي. والصواب العاص بن سعيد. وفي روايتهم فقلت سعيد بن العاصي لم يقولوا به. [.....]
(2). أخرجه أحمد وإسحاق والطبري من طريق ابن إسحاق عن عبد الرحمن عن الحارث عن سليمان بن مكحول - عن أبى أمامة عنه به.
(3). قوله «كاحتراق السعفة» أى غصن النخلة ، كما في للصحاح. (ع)

وهذا الذكر خلاف الذكر في قوله ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ لأن ذلك ذكر رحمته ورأفته وثوابه. وقيل: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فيقال له : اتق اللّه فينزع. وقرئ : وجلت ، بالفتح ، وهي لغة نحو «وبق» في «وبق» «1».

وفي قراءة عبد اللّه : فرقت زادَتْهُمْ إِيماناً ازدادوا بها يقينا وطمأنينة في نفس ، لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه ، وقد حمل على زيادة العمل. وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه : الإيمان سبع وسبعون شعبة ، أعلاها : شهادة أن لا إله إلا اللّه ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان «2». وعن عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه : إن للإيمان سننا وفرائض وشرائع ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ولا يفوّضون أمورهم إلى غير ربهم ، لا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة حَقًّا صفة للمصدر المحذوف ، أى أولئك هم المؤمنون إيمانا حقا ، أو هو مصدر مؤكد للجملة التي هي أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ كقولك : هو عبد اللّه حقا ، أى حق ذلك حقا.

وعن الحسن أنّ رجلا سأله : أمؤمن أنت؟ قال : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألنى عن الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنسار والبعث والحساب ، فأنا مؤمن.

وإن كنت تسألنى عن قوله إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ فو اللّه لا أدرى أمنهم أنا أم لا. وعن الثوري : من زعم أنه مؤمن باللّه حقا ، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنه ، فقد آمن بنصف الآية. وهذا إلزام منه ، يعنى كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقا ، فلا يقطع بأنه مؤمن حقا ، وبهذا تعلق من يستثنى في الإيمان. وكان أبو حنيفة رضى اللّه عنه ممن لا يستثني فيه. وحكى عنه أنه قال لقتادة : لم تستثنى في إيمانك؟ قال : اتباعا لإبراهيم عليه السلام في قوله وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ فقال له : هلا اقتديت به في قوله أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى ؟ دَرَجاتٌ شرف وكرامة وعلوّ منزلة وَمَغْفِرَةٌ وتجاوز لسيئاتهم وَرِزْقٌ كَرِيمٌ نعيم الجنة. يعنى لهم منافع حسنة دائمة على سبيل التعظيم ، وهذا معنى الثواب.

[سورة الأنفال (8) : آية 5]

كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (5)

(1). قوله «نحو وبق في وبق ... الخ» وبق : أى هلك. وفرقت : خافت. (ع)
(2). أخرجه مسلم وأصحاب السنن وابن حبان برواية أبى صالح عن أبى هريرة ، وهو في البخاري باختصار.

كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ فيه وجهان «1» أحدهما. أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدإ محذوف تقديره. هذه الحال كحال إخراجك. يعنى أنّ حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة ، مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب. والثاني : أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدّر في قوله الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ أى الأنفال استقرّت للّه والرسول ، وثبتت مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون. ومِنْ بَيْتِكَ يريد بيته بالمدينة ، أو المدينة نفسها ، لأنها مهاجره ومسكنه ، فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه بِالْحَقِّ أى إخراجاً ملتبسا بالحكمة والصواب الذي لا محيد عنه وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ في موضع الحال ، أى أخرجك في حال كراهتهم ، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشأم فيها تجارة عظيمة «2» معها أربعون راكبا ، منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو ابن هشام ، فأخبر جبريل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأخبر المسلمين ، فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم ، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم ، فنادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول ، عيركم أموالكم ، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً ، وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رؤيا فقالت لأخيها : إنى رأيت عجبا رأيت كأنّ ملكا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة. فحدّث بها العباس فقال أبو جهل : ما يرضى رجالهم أن يتنبئوا حتى تتنبأ نساؤهم ، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير.

في المثل السائر : لا في العير ولا في النفير ، فقيل له : إنّ العير أخذت طريق الساحل ونجت ، فارجع بالناس إلى مكة ، فقال : لا واللّه لا يكون ذلك أبدا حتى ننحر الجزور ، ونشرب الخمور ، ونقيم القينات والمعازف ببدر، فيتسامع جميع العرب بمخرجنا ، وإن محمداً لم يصب العير ، وإنا قد أعضضناه «3» ،

(1). قال محمود : «في «كما» وجهان ، أحدهما : أن يرتفع محل الكاف ... الخ» قال أحمد : وكان جدي أبو العباس أحمد الفقيه الوزير رحمه اللّه يذكر في معنى الآية وجها أوجه من هذين ، وهو أن المراد تشبيه اختصاصه عليه السلام بالأنفال ، وتفويض أمرها إلى حكمه من حيث الاثابة والجزاء ، بإخراجه من بيته مطيعا للّه تعالى سامعا لأمره راضيا بحكمه على كراهة المؤمنين لذلك في الطاعة ، فشبه اللّه تعالى ثوابه بهذه المزية بطاعته المرضية ، فكما بلغت طاعته الغاية في نوع الطاعات ، فكذلك بلغت إثابة اللّه له الغاية في جنس المثوبات. وجماع هذا المعنى هو المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام «الأجر على قدر النصب» ولك على هذا المعنى أن تجعل الكاف مرفوعة ومنصوبة على حسب التقدير ، واللّه الموفق.
(2). هذه القصة منتزعة من سيرة ابن هشام إلا قوله «إن في أهل العير عمرو بن هشام فان عمرو بن هشام هو أبو جهل ولم يكن في العير ، وإنما كان في النفير وأخرجه الطبري من قول ابن إسحاق ، وبعضه عن ابن عباس وعن عروة وعن السدى بتقديم وتأخير وزيادة ونقس وفي مغازي الواقدي عن محمود بن لبيد بعضه. وعن سعيد بن المسبب بعضه.
(3). قوله «و إنا قد أعضضناه» في الصحاح : أعضضته الشيء فعضه. وفي الحديث «فأعضوه بهن أبيه» ويقال :
أعضضته سيفي ، أى ضربته به. وأعض القوم. أكلت إيلهم العض ، وهو بالضم علف الأمصار ، وبالكسر الشوك الصغير. (ع).

فمضى بهم إلى بدر - وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما في السنة - فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد ، إن اللّه وعدكم إحدى الطائفتين : إمّا العير ، وإمّا قريشا ، فاستشار النبي صلى اللّه عليه وسلم أصحابه وقال : ما تقولون ، إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول ، فالعير أحب إليكم أن النفير؟ قالوا : بل

العير أحب إلينا من لقاء العدوّ ، فتغير وجه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ثم ردّد عليهم فقال : إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقالوا يا رسول اللّه ، عليك بالعير ودع العدوّ ، فقام عند غضب النبي صلى اللّه عليه وسلم أبو بكر وعمر رضى اللّه عنهما فأحسنا ، ثم قام سعد بن عبادة فقال : انظر أمرك فامض. فو اللّه لو سرت إلى عدن أبين «1» ما تخلف عنك رجل من الأنصار ، ثم قال المقداد بن عمرو يا رسول اللّه ، امض لما أمرك اللّه ، فإنا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن : اذهب أنت وربك فقاتلا إنما معكما مقاتلون ، ما دامت عين منا تطرف ، فضحك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثم قال : أشيروا عليّ أيها الناس وهو يريد الأنصار ، لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة : إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا ، فكان النبي صلى اللّه عليه وسلم يتخوّف أن لا تكون الأنصار لا ترى «2» عليهم نصرته إلا على عدوّ دهمه بالمدينة ، فقام سعد بن معاذ فقال : لكأنك تريدنا يا رسول اللّه؟

قال : أجل ، قال : قد آمنا بك وصدّقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول اللّه لما أردت ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعلّ اللّه يريك منا ما تقرّبه عينك ، فسر بنا على بركة اللّه ، ففرح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبسطه قول سعد ، ثم قال : سيروا على بركة اللّه وأبشروا ، فإنّ اللّه وعدني إحدى الطائفتين ، واللّه لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم.

(1). قوله «إلى عدن أبين» في الصحاح : أبين اسم رجل نسب إليه عدن ، فقيل : عدن أبين. (ع)
(2). قوله «يتخوف أن لا تكون الأنصار لا ترى» لعله «أن تكون» أو لعله «الأنصار ترى» وبالجملة فأحد الحرفين يغنى عن الآخر. (ع)

وروى أنه قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين فرغ من بدر : عليك بالعير ليس دونها شيء ، فناداه العباس وهو في وثاقه : لا يصلح «1» فقال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : لم؟ قال : لأنّ اللّه وعدك إحدى الطائفتين. وقد أعطاك ما وعدك ، وكانت الكراهة من بعضهم لقوله وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ.

[سورة الأنفال (8) : آية 6]

يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6)

والحق الذي جادلوا فيه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : تلقى النفير ، لإيثارهم عليه تلقى العير بَعْدَ ما تَبَيَّنَ بعد إعلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأنهم ينصرون. وجدالهم : قولهم ما كان خروجنا إلا للعير ، وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب؟ وذلك لكراهتهم القتال. ثم شبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة، بحال من يعتل إلى القتل «2» ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن ، وهو مشاهد لأسبابه ، ناظر إليها لا يشك فيها. وقيل : كان خوفهم لقلة العدد ، وأنهم كانوا رجالة. وروى أنه ما كان فيهم إلا فارسان.

[سورة الأنفال (8) : آية 7]

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (7)

إِذْ منصوب بإضمار اذكر. وأَنَّها لَكُمْ بدل من إحدى الطائفتين. والطائفتان : العير والنفير. غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ

العير ، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا ، والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدّتهم : والشوكة : الحدّة مستعارة من واحدة الشوك. ويقال : شوك القنا لشباها «3». ومنها قولهم : شائك السلاح ، أى تتمنون أن تكون لكم العير ، لأنها الطائفة التي لا حدّة لها ولا شدّة ، ولا تريدون الطائفة الأخرى أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ أن يثبته ويعليه بِكَلِماتِهِ بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة ، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة ، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر. والدابر الآخر : فاعل من دبر. إذا أدبر. ومنه دابرة الطائر. وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال ،

(1). أخرجه الترمذي وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والبزار وابن حيان والحاكم من رواية إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما.
(2). قوله «بحال من يعتل إلى القتل» أى يجذب جذبا عنيفا. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «شوك القنا لشباها» شباه كل شيء : حد طرفه ، والجمع شبا وشبوات ، كذا في الصحاح. مشياها جمع مضاف لضمير القنا. (ع)

يعنى أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور «1» وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأحوالكم «2» والله عز وجلّ يريد معالى الأمور ، وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلوّ الكلمة ، والفوز في الدارين. وشتان ما بين المرادين. ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوّتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلتكم ، وأعزّكم وأذلهم ، وحصل لكم مالا تعارض أدناه العير وما فيها. وقرئ : بكلمته ، على التوحيد.

[سورة الأنفال (8) : آية 8]

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)

فإن قلت : بم يتعلق قوله لِيُحِقَّ الْحَقَّ؟ قلت : بمحذوف تقديره : ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك ، ما فعله إلا لهما. وهو إثبات الإسلام وإظهاره ، وإبطال الكفر ومحقه.

فإن قلت : أليس هذا تكريراً؟ قلت : لا ، لأنّ المعنيين متباينان ، وذلك أنّ الأوّل تمييز بين الإرادتين وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها ، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذي هو سيد الأغراض. ويجب أن يقدّر المحذوف متأخراً حتى يفيد معنى الاختصاص فينطبق عليه المعنى : وقيل : قد تعلق بيقطع.

[سورة الأنفال (8) : آية 9]

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9)

فإن قلت : بم يتعلق إِذْ تَسْتَغِيثُونَ؟ قلت : هو بدل من إِذْ يَعِدُكُمُ وقيل بقوله لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بدّ من القتال ، طفقوا يدعون الله ويقولون : أى ربنا انصرنا على عدوّك ، يا غياث المستغيثين أغثنا. وعن عمر رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة ، فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعو : اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض - فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضى الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه ، وقال : يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك «3» أَنِّي مُمِدُّكُمْ أصله بأنى ممدكم ،

(1). قال محمود : «يعنى أنكم تريدون العاجلة وسفاسف الأمور ... الخ» قال أحمد : والتحقيق في التمييز بين الكلامين أن الأول ذكر الارادة فيه مطلقة غير مقيدة بالواقعة الخاصة ، كأنه قيل : وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ومن شأن الله تعالى إرادة تحقيق الحق وتمحيق الكفر على الإطلاق ، ولإرادته أن يحق الحق ويبطل الباطل خصكم بذات الشوكة ، فبين الكلامين عموم وخصوص ، وإطلاق وتقييد. وفي ذلك مالا يخفى من المبالغة في تأكيد المعنى بذكره على وجهين : إطلاق ، وتقييد. والله أعلم.
(2). قوله «و أحوالكم» لعله وأموالكم. (ع) [.....]
(3). أخرجه مسلم من روآية ابن عباس عن عمر رضى الله عنه.

فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله. وعن أبى عمرو أنه قرأ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بالكسر ، على ارادة القول ، أو على إجراء استجاب مجرى «قال» لأنّ الاستجابة من القول. فإن قلت : هل قاتلت الملائكة يوم بدر؟ قلت : اختلف فيه ، فقيل : نزل جبريل في يوم بدر في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر ، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها علىّ بن أبى طالب في صور الرجال ، عليهم ثياب بيض وعمائم بيض وقد أرخوا أذنابها بين أكتافهم. فقالت. وقيل : قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حنين.

وعن أبى جهل أنه قال لابن مسعود : من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصا؟ قال : من الملائكة ، فقال أبو جهل : هم غلبونا لا أنتم. وروى أنّ رجلا من المسلمين بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين : إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه ، فنظر إلى المشرك قد خر مستلقيا وشقّ وجهه ، فحدث

الأنصارى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : صدقت ذاك من مدد السماء «1». وعن أبى داود المازني : تبعت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه «2» سيفي ، وقيل لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين ، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا كلهم ، فإنّ جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط ، وأهلك بلاد ثمود قوم صالح بصيحة واحدة. وقرئ مُرْدِفِينَ بكسر الدال وفتحها ، من قولك : ردفه إذا تبعه. ومنه قوله تعالى رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ بمعنى ردفكم. وأردفته إياه : إذا أتبعته. ويقال : أردفته ، كقولك أتبعته ، إذا جئت بعده ، فلا يخلو المكسور الدال من أن يكون بمعنى متبعين ، أو متبعين ، فإن كان بمعنى متبعين «3» فلا يخلو من أن يكون بمعنى : متبعين بعضهم بعضاً، أو متبعين بعضهم لبعض ، أو بمعنى : متبعين إياهم المؤمنين ، أى يتقدمونهم فيتبعونهم أنفسهم ، أو متبعين لهم يشيعونهم ويقدمونهم بين أيديهم وهم على ساقتهم ، ليكونوا على أعينهم وحفظهم. أو بمعنى متبعين أنفسهم ملائكة آخرين ، أو متبعين غيرهم من الملائكة : ويعضد هذا الوجه قوله تعالى في سورة آل عمران بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ.

بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ومن قرأ مُرْدِفِينَ بالفتح فهو بمعنى متبعين أو متبعين. وقرئ : مردّفين ، بكسر الراء وضمها وتشديد الدال : وأصله مرتدفين ، أى مترادفين أو متبعين ، من ارتدفه ، فأدغمت تاء الافتعال في الدال ،

(1). هذا طرف من حديث ابن عباس رضى اللّه عنهما في الذي قبله.
(2). أخرجه ابن إسحاق في المغازي : حدثني أبى عن رجال من بنى مازن عن أبى داود المازني - فذكره ، ومن طريقه أخرجه إسحاق والطبري وغيرهما.
(3). قوله «فان كان بمعنى متبعين» يقرأ هذا بالتسكين ، ولم يذكر مقابله وهو ما كان بمعنى متبعين بالتشديد. (ع)

فالتقى ساكنان فحرّكت الراء بالكسر على الأصل ، أو على إتباع الدال. وبالضم على إتباع الميم. وعن السدى : بآلاف من الملائكة. على الجمع ليوافق ما في سورة آل عمران.

فإن قلت : فبم يعتذر لمن قرأ على التوحيد ولم يفسر المردفين بإرداف الملائكة ملائكة آخرين ، والمردفين بارتدافهم غيرهم؟ قلت : بأنّ المراد بالألف من قاتل منهم. أو الوجوه منهم الذين من سواهم أتباع لهم.

[سورة الأنفال (8) : آية 10]

وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10)

فإن قلت : إلام يرجع الضمير في وَما جَعَلَهُ؟ قلت : إلى قوله أَنِّي مُمِدُّكُمْ لأن المعنى : قاستجاب لكم بإمدادكم. فإن قلت : ففيمن قرأ بالكسر؟ قلت : إلى قوله أَنِّي مُمِدُّكُمْ لأنه مفعول القول المضمر فهو في معنى القول. ويجوز أن يرجع إلى الإمداد الذي يدل عليه ممدّكم إِلَّا بُشْرى إلا بشارة لكم بالنصر ، كالسكينة لبنى إسرائيل ، يعنى أنكم استغثتم وتضرعتم لقلتكم وذلتكم ، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر ، وتسكيناً منكم ، وربطا على قلوبكم وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يريد ولا تحسبوا النصر من الملائكة ، فإن الناصر هو اللّه لكم وللملائكة. أو وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند اللّه ، والمنصور من نصره اللّه.

[سورة الأنفال (8) : آية 11]

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (11)

إِذْ يُغَشِّيكُمُ بدل ثان من إِذْ يَعِدُكُمُ أو منصوب بالنصر ، أو بما في مِنْ عِنْدِ اللَّهِ من معنى الفعل ، أو بما جعله اللّه ، أو بإضمار اذكر. وقرئ : يغشيكم بالتخفيف والتشديد «1» ونصب النعاس والضمير للّه عزّ وجل.

(1). قال محمود : «و قرئ إِذْ يُغَشِّيكُمُ بالتخفيف والتشديد ... الخ» قال أحمد : ومثل هذا النظر يجرى عند قوله تعالى هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً لأن فاعل الارادة هو اللّه عز وجل ، وفاعل الخوف والطمع هم ، وقد انتصبا مفعولا لهما فالجواب : أنه لما كان اللّه تعالى إذا أراهم البرق رأوه ، كانوا فاعلين في المعنى وكان المعنى وهو الذي يريكم البرق فترونه خوفا وطعما ، فهذا مثل آية الأنفال ، فان المفعول في المعنى فاعل. وسيأتى مزيد بحث في هذه النكتة. وقد جرى القلم بتعجيلها هاهنا ، وذلك أن لقائل أن يقول : فاعل يغشى النعاس إياهم هو اللّه تعالى ، وهو فاعل الأمنة أيضا وخالقها وحينئذ يتحد فاعل الفعل والعلة فيرتفع السؤال ويزول الاشكال على قواعد السنة التي تقتضي نسبة أفعال الخلق إلى اللّه تعالى على أنه خالقها ومبدعها ، ولمورد السؤال أن يقول المعتبر أن

يكون فاعل الفعل متصفا بالعلة كما هو متصف بالفعل ، والباري عز وجل. إن كان خالق الأمنة العبد وكان بها آمنا فالعبد هو الفاعل اللغوي وإن كان الله تعالى هو الفاعل حقيقة وعقيدة ، وحينئذ يفتقر السؤال إلى الجواب السالف والله الموفق.

وأَمَنَةً مفعول له. فإن قلت : أما وجب أن يكون فاعل الفعل المعلل والعلة واحداً؟ قلت : بلى ، ولكن لما كان معنى يغشاكم النعاس. تنعسون ، انتصب أمنة على أن النعاس والأمنة لهم. والمعنى : إذ تنعسون أمنة بمعنى أمنا ، أى لأمنكم ، ومِنْهُ صفة لها : أى أمنة حاصلة لكم من الله عزّ وجلّ. فإن قلت : فعلى غير هذه القراءة «1» قلت : يجوز أن تكون الأمنة بمعنى الإيمان ، أى ينعسكم إيماناً منه. أو على يغشيكم النعاس فتنعسون أمناً، فإن قلت : هل يجوز أن ينتصب على أنّ الأمنة للنعاس الذي هو فاعل يغشاكم؟ أى يغشاكم النعاس لأمنه على أن إسناد الأمن إلى النعاس إسناد مجازى وهو لأصحاب النعاس على الحقيقة ، أو على أنه أنامكم في وقت كان من حق النعاس في مثل ذلك الوقت المخوف أن لا يقدم على غشيانكم؟ وإنما غشيكم أمنة حاصلة من الله لولاها لم يغشكم على طريقة التمثيل والتخييل؟ قلت : لا تبعد فصاحة القرآن عن احتماله ، وله فيه نظائر ، وقد ألم به من قال : يهاب النّوم أن يغشى عيونا تهابك فهو نفّار شرود «2»

وقرئ «أمنة» بسكون الميم. ونظير «أمن أمنة» «حيي حياة» ونحو «أمن أمنة» «رحم رحمة» والمعنى : أن ما كان بهم من الخوف كان يمنعهم من النوم ، فلما طامن الله قلوبهم وأمنهم رقدوا وعن ابن عباس رضى الله عنه : النعاس في القتال : أمنة من الله ، وفي الصلاة : وسوسة من الشيطان «3» وَيُنَزِّلُ قرئ بالتخفيف والتثقيل. وقرأ الشعبي : ما ليطهركم به : قال ابن جنى : ما موصولة وصلتها حرف الجر بما جره ، فكأنه قال : ما للطهور. ورِجْزَ الشَّيْطانِ وسوسته إليهم ، وتخويفه إياهم من العطش. وقيل : الجنابة ، لأنها من تخييله. وقرئ : رجس الشيطان مم؟؟؟؟

وذلك أن إبليس تمثل لهم ، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الماء «4» ونزل المسلمون في كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء ، وناموا فاحتلم أكثرهم ، فقال لهم : أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة ، وقد عطشتم ، ولو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش ، فإذا قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة ،

(1). عاد كلامه. قال : فان قلت فعلى غير هذه القراءة قلت كذلك ... الخ» قال أحمد : وجه حسن بشرط الأدب في إسقاط لفظة التخييل ، وقد تقدمت له أمثالها.
(2). للزمخشري ، يقول : يخالف النوم أن يغزو عيونا تخافك فالنوم كثير النفار والشرود ، شبهه بحيوان يصح منه الخوف على طريق المكنية. وقوله فهو نفار شرود : تفريع للترشيح. ونسبة الخوف للعيون مجاز عقلى.
(3). لم أجده عن ابن عباس. والظاهر أنه تحرف وإنما هو ابن مسعود. كذا ذكره الثعلبي. وأخرجه عبد الرزاق والطبري. وكذا ابن أبى شيبة والطبراني كلهم من حديث ابن مسعود موقوفا.
(4). الثعلبي بغير إسناد. وأخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس مطولا وفي هذا ما ليس فيه وهو عند أبى نعيم والبيهقي في الدلائل من هذا الوجه.

فحزنوا حزناً شديداً وأشفقوا ، فأنزل الله عز وجل المطر ، فمطروا ليلا حتى جرى الوادي واتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الحياض على عدوة الوادي ، وسقوا الركاب ، واغتسلوا وتوضؤوا ، وتلبد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام ، وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس. والضمير في بِهِ للماء. ويجوز أن يكون للربط ، لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر والجرأة ثبتت القدم في مواطن القتال.

[سورة الأنفال (8) : آية 12]

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (12)

إِذْ يُوحِي يجوز أن يكون بدلا ثالثاً من إِذْ يَعِدُكُمُ وأن ينتصب بيثبت أَنِّي مَعَكُمْ مفعول يوحى وقرئ : إنى ، بالكسر على إرادة القول ، أو على إجراء يوحى مجرى يقول ، كقوله أَنِّي مُمِدُّكُمْ والمعنى : أنى معينكم على التثبيت فثبتوهم. وقوله سَأُلْقِي ... فَاضْرِبُوا يجوز أن يكون تفسيراً لقوله أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم. واجتماعهما غاية النصرة. ويجوز أن يكون غير تفسير ، وأن يراد بالتثبيت أن يخطروا ببالهم ما تقوى به قلوبهم وتصحّ عزائمهم ونياتهم في القتال ، وأن يظهروا ما يتيقنون به أنهم ممدّون بالملائكة. وقيل : كان الملك يتشبه بالرجل الذي يعرفون وجهه فيأتى فيقول : إنى سمعت المشركين يقولون : والله لئن حملوا علينا لننكشفنّ ، ويمشى بين الصفين فيقول : أبشروا ، فإن الله

ناصركم لأنكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه. وقرئ «الرعب» بالتثقيل فَوْقَ الْأَعْناقِ أراد أعالى الأعناق التي هي المذابح ، لأنها مفاصل ، فكان إيقاع الضرب فيها حزا وتطييراً للرءوس. وقيل : أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق ، يعنى ضرب الهام. قال :

وَأَضْرِبُ هَامَةَ الْبطَلِ الْمُشِيحِ «1»

غشّيته وهو في جأواء باسلة عضبا أصاب سواء الرّأس فانفلقا «2»

(1). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة (409) فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2) وفارس في غمار الموت منغمس إذا تألى على مكروهة صدقا
غشيته وهو في جأواء باسلة عضبا أصاب سواء الرأس فانفلقا
لبلعاء بنى قيس الكناني والغمر الماء الكثير فشبه الموت بسيل عظيم على سبيل الكناية. والغمار والانغماس فيه تخييل.
ويجوز أن تستعار الغمار لأهوال الموت على طريق التصريحية. ويحتمل أن تستعار لجيش ذلك الفارس على طريق التصريحية أيضا. وأضافه للموت لأنه ينشأ عنها والانغماس ترشيح. «إذا تألى» أى حلف «على مكروهة» أى حرب «صدق» أى بر في يمينه «غشيته» ألحقت به والحال أنه «في جأواء» أى كتيبة عظيمة اسودت أو اخضرت بكثرة السلاح والدروع ، من الجوة مثل الحوة ، أو من الجؤوة مثل الحمرة ، وهي هي بشرط أن يرهقها سواد.
وقيل السواد يرهقه خضرة لصدإ دروعها «باسلة» أى مانعة عابسة. ويجوز أن الجأواء الدرع الصدئة. وعضبا :
مفعول غشيته ، أى سيفا قاطعا «أصاب» أى طلب ونال «سواء» أى وسط الرأس «فانفلق» الرأس أو وسطه ، مدح قرنه مع ظفره به ، ليدل على بلوغه غاية الشجاعة.

والبنان : الأصابع ، يريد الأطراف. والمعنى : فاضربوا المقاتل والشوى ، لأنّ الضرب إما واقع على مقتل أو غير مقتل ، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً. ويجوز أن يكون قوله سَأُلْقِي إلى قوله كُلَّ بَنانٍ عقيب قوله فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا تلقينا للملائكة ما يثبتونهم به ، كأنه قال : قولوا لهم قوله سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ أو كأنهم قالوا : كيف نثبتهم؟

فقيل : قولوا لهم قوله سَأُلْقِي فالضاربون على هذا هم المؤمنون.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 13 إلى 14]

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (13) ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (14)

إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل ، ومحله الرفع على الابتداء وأَنَّهُمْ خبره ، أى ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم. والمشاقة : مشتقة من الشق ، لأن كلا المتعاديين في شق خلاف شق صاحبه، وسئلت في المنام عن اشتقاق المعاداة فقلت : لأن هذا في عدوة وذاك في عدوة ، كما قيل : المخاصمة والمشاقة، لأن هذا في خصم أى في جانب ، وذاك في خصم ، وهذا في شق ، وذاك في شق. والكاف في لِكَ لخطاب الرسول عليه السلام ، أو لخطاب كل واحد ، وفي ذلِكُمْ للكفرة ، على طريقة الالتفات. ومحل ذلِكُمْ الرفع على ذلكم العقاب ، أو العقاب ذلكم فَذُوقُوهُ ويجوز أن يكون نصباً على : عليكم ذلكم فذوقوه ، كقولك : زيداً فاضربه وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عطف على ذلكم في وجهيه ، أو نصب على أن الواو بمعنى مع. والمعنى : ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة ، فوضع الظاهر موضع الضمير ، وقرأ الحسن : وإن للكافرين بالكسر.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 15 إلى 16]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (15) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16)

زَحْفاً حال من الذين كفروا. والزحف : الجيش الدهم «1» الذي يرى لكثرته كأنه يزحف ، أى يدب دبيباً ، من زحف الصبى إذا دبّ على استه قليلا قليلا ، سمى بالمصدر والجمع زحوف والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تفرّوا ، فضلا أن تدانوهم في العدد أو تساووهم ، أو حال من الفريقين. أى إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم ، أو حال من المؤمنين كأنهم أشعروا بما كان سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين ، وهم زحف من الزحوف اثنى عشر ألفاً ، وتقدمة «2» نهى لهم عن الفرار يومئذ. وفي قوله وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ أمارة عليه إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ هو الكرّ بعد الفرّ ، يخيل عدوّه أنه منهزم ثم يعطف عليه ، وهو باب من خدع

الحرب ومكايدها أَوْ مُتَحَيِّزاً أو منحازاً إِلى فِئَةٍ إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها. وعن ابن عمر رضى اللّه عنه : خرجت سرية وأنا فيهم ففرّوا «3» فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا فدخلوا البيوت ، فقلت : يا رسول اللّه نحن الفرّارون ، فقال : بل أنتم العكارون «4» وأنا فئتكم. وانهزم رجل من القادسية ، فأتى المدينة إلى عمر رضى اللّه عنه فقال : يا أمير المؤمنين هلكت ، فررت من الزحف ، فقال عمر رضى اللّه عنه: أنا فئتك «5». وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : إنّ الفرار من الزحف من أكبر الكبائر. فإن قلت : بم انتصب إِلَّا مُتَحَرِّفاً؟

قلت : على الحال ، وإلا لغو. أو على الاستثناء من المولين ، أى : ومن يولهم إلا رجلا منهم متحرّفا أو متحيزاً، وقرأ الحسن دُبُرَهُ بالسكون ووزن متحيز متفيعل لا متفعل ، لأنه من حاز يحوز ، فبناء متفعل منه متحوّز.

[سورة الأنفال (8) : آية 17]

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(17)

لما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا أقبلوا على التفاخر ، فكان القائل يقول : قتلت وأسرت ،

(1). قوله «الجيش الدهم» هو العدد الكثير ، والدهمة : السواد ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). قوله و«تقدمة نهى لهم» لعله عطف على المعنى ، أى : إشعاراً وتقدمة نهى. (ع)
(3). أخرجه أبو داود والترمذي والبخاري في الأدب المفرد من رواية يزيد بن أبى زياد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عمر رضى اللّه عنهما. وكذا أخرجه أحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار في مسانيدهم. قال الترمذي : لا نعرفه إلا من رواية يزيد بن أبى زياد. [.....]
(4). قوله «بل أنتم العكارون» من عكر إذا عطف وكر. أفاده الصحاح. (ع)
(5). أخرجه ابن أبى شيبة من رواية منصور عن إبراهيم. قال : فر رجل فذكره.

ولما طلعت قريش قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هذه قريش قد جاءت «1» بخيلائها وفخرها يكذبون رسلك ، اللهم إنى أسألك ما وعدتني ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فقال - لما التقى الجمعان - لعلى رضى اللّه عنه : أعطنى قبضة من حصباء الوادي ، فرمى بها في وجوههم وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه ، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم «2» ، فقيل لهم فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ والفاء جواب شرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ لأنه هو الذي أنزل الملائكة وألقى الرعب في قلوبهم ، وشاء النصر والظفر وقوّى قلوبكم ، وأذهب عنها الفزع والجزع وَما رَمَيْتَ أنت يا محمد إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى يعنى أنّ الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمى البشر ، ولكنها كانت رمية اللّه حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، فأثبت الرمية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأنّ صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأنّ أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل اللّه عزّ وجلّ ، فكأن اللّه هو فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم توجد من الرسول عليه الصلاة والسلام أصلا. وقرئ : ولكن اللّه قتلهم.

(1). قال محمود : «و لما جاءت قريش قال عليه الصلاة والسلام : هذه قريش جاءت ... الخ» قال أحمد رحمه اللّه :
أوضح مصداق في التمييز بين الحقيقة والمجاز. ألا تراك تقول للبليد : ليس بحمار ، ويصدق عليه مع صدق قولك فيه على سبيل التجوز إنه حمار ، فإذا ثبت لك أن من مميزات المجاز صدق سلبه بخلاف الحقيقة ، فافهم أن هذه الآية تكفح وجوه القدرية بالرد ، وذلك أن اللّه تعالى أثبت الفعل للخلق ونفاه عنهم ، ولا محمل لذلك إلا أن ثبوته لهم مجاز ، والفاعل والخالق حقيقة هو اللّه تعالى ، فأثبته لهم مجازاً ، ونفاه عنهم حقيقة. وإياك أن تعرج على تنكيس الزمخشري في تأويل الآية ، فانه نظر أعوج ، وباطل مخلج ، والحق أبلج ، واللّه الموفق بكرمه.

(2). قال الطيبي : لم يذكر أحد من أئمة الحديث أن هذه الرمية كانت ببدر ، ثم حديث سلمة بن الأكوع.
قال : غزونا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حنينا فذكر القصة ، وهو تعقيب غير مرضى فقد روى الواقدي في المغازي عن ابن أبى الزهري عن الزهري عن عروة بن الزبير قال «لما رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قريشا فذكر نحوه إلى قوله : ما وعدتني» وروى الطبري من وجه آخر عن هشام بن عروة عن عروة قال «لما ورد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بدرا قال : فزعموا أنه قال ، هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك ، اللهم إنى أسألك ما وعدتني. فلما أقبلوا استقتلوا فحثا في وجوههم فهزمهم اللّه تعالى» وروى الطبري من رواية على بن أبى طلحة قال «رفع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يده يوم بدر «فقال : يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن نعبد في الأرض أبدا. فأمره جبريل فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم. فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب. فولوا مدبرين» وعنده أيضا من طريق أسباط عن السدى «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لعلى يوم بدر : أعطنى حصباء من الأرض. فناوله حصا عليه تراب ، فرمى به في وجوه القوم ، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه من ذلك التراب ، ثم ردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم. وأنزل اللّه فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ - الآية. وروى

الواقدي في المغازي أيضاً من طريق حكيم بن حزام في قصة بدر قال قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأخذ كفاً من الحصباء فرماهم بها وقال : شاهت الوجوه. فما بقي منهم أحد إلا امتلأ وجهه وعيناه فانهزم أعداء اللّه ، والمسلمون يقتلون ويأسرون. وأخرجه الطبري من وجه آخر عن حكيم بن حزام نحوه دون ما في آخره.

ولكن اللّه رمى ، بتخفيف «لكن» ورفع ما بعده وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ وليعطيهم بَلاءً حَسَناً عطاء جميلا. قال زهير : فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِى يَبْلُو «1»

والمعنى : وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل ، وما فعله إلا لذلك إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لدعائهم عَلِيمٌ بأحوالهم.

[سورة الأنفال (8) : آية 18]

ذلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (18)

ذلِكُمْ إشارة إلى البلاء الحسن ، ومحله الرفع : أى الغرض ذلكم وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ معطوف على ذلك. يعنى : أن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين. وقرئ : موهن ، بالتشديد. وقرئ على الإضافة ، وعلى الأصل الذي هو التنوين والإعمال.

[سورة الأنفال (8) : آية 19]

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم ، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهمّ انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعانى ، إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على حق فانصرنا. وروى أنهم قالوا : اللهمّ انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين. وروى أنّ أبا جهل قال يوم بدر : اللهمّ أينا كان أهجر وأقطع للرحم فأحنه اليوم ، أى فأهلكه. وقيل : إِنْ تَسْتَفْتِحُوا خطاب للمؤمنين وَإِنْ تَنْتَهُوا خطاب للكافرين ، يعنى : وإن تنتهوا عن عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وأسلم وَإِنْ تَعُودُوا لمحاربته نَعُدْ لنصرته عليكم وَأَنَّ اللَّهَ قرئ بالفتح على : ولأنّ اللّه معين المؤمنين كان ذلك. وقرئ بالكسر ، وهذه أوجه. ويعضدها قراءة ابن مسعود : واللّه مع المؤمنين. وقرئ : ولن يغنى عنكم ، بالياء للفصل.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 20 إلى 23]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)

(1) جزى اللّه بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو
يقول : كافأ اللّه بإحسانه إليهما ما فعلاه بكم من الإحسان. وأبلى : مضمن معنى أعطى. يقال : بلاه اللّه وأبلاه وابتلاء ، بمعنى اختبره. والاسم : البلاء. ويجيء بمعنى النقمة وبمعنى النعمة كما هنا. وأعطاهما خير نعمته التي يبلوها الناس ويختبرهم بإعطائها

وَلا تَوَلَّوْا قرئ بطرح إحدى التاءين وإدغامها ، والضمير في عَنْهُ لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، لأنّ المعنى: وأطيعوا رسول اللّه كقوله : اللّه ورسوله أحق أن يرضوه ، ولأنّ طاعة الرسول وطاعة اللّه شيء واحد مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ فكأن رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما ، كقولك : الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان. ويجوز أن يرجع إلى الأمر بالطاعة ، أى : ولا تولوا عن هذا الأمر وامتثاله وأنتم تسمعونه. أو ولا تتولوا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولا تخالفوه وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ أى تصدقون لأنكم مؤمنون لستم كالصمّ المكذبين من الكفرة وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا أى ادّعوا السماع وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ لأنهم ليسوا بمصدّقين فكأنهم غير سامعين. والمعنى : أنكم تصدّقون بالقرآن والنبوّة ، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور من قسمة الغنائم وغيرها ، كان تصديقكم كلا تصديق ، وأشبه سماعكم سماع من لا يؤمن. ثم قال إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ أى إنّ شر من يدب على وجه الأرض. أو إنّ شرّ البهائم الذين هم صمّ عن الحق لا يعقلونه ،

جعلهم من جنس البهائم ، ثم جعلهم شرّها وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِي هؤلاء الصم البكم خَيْراً أى انتفاعا باللطف لَأَسْمَعَهُمْ للطف بهم «1» حتى يسمعوا سماع المصدقين ، ثم قال وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا عنه.

يعنى : ولو لطف بهم لما نفع فيهم اللطف ، فلذلك منعهم ألطافه. أو ولو لطف بهم فصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا ، وقيل : هم بنو عبد الدار بن قصى لم يسلم منهم إلا رجلان : مصعب بن عمير ، وسويد بن حرملة : كانوا يقولون : نحن صم بُكم عُمى عما جاء به محمد ، لا نسمعه ولا نجيبه ، فقتلوا جميعا بأحد ، وكانوا أصحاب اللواء. وعن ابن جريج : هم المنافقون.
وعن الحسن : أهل الكتاب.

(1). قال محمود «يعنى : ولو علم اللّه أن اللطف ينفع في هؤلاء ... الخ» قال أحمد رحمه اللّه : إطلاق القول بأن اللّه تعالى يلطف بالعبد فلا ينفع لطفه مردود ، فان اللطف هو إسداء الجميل والالطاف به ، واسمه اللطيف من ذلك ، فإذا أسدى الجميل إلى العبد بأن أسمعه إسماع لطيف به ، فتلك الغاية المرجوة ومعنى اللطف به على هذا : أن يخلق في قلبه قبول الحق وحسن الإصغاء إليه والاهتداء به ، ولكن لا يتم ذلك على عقيدة الاعتزال والرأى الفاسد في خلق الأفعال ، لأن مقتضاها أن العبد هو الذي يخلق لنفسه قبول الحق والهداية وحسن الاستماع والإصغاء ، وأن اللّه تعالى لا يشارك العبد في خلق ذلك ، بل الذي ينسب إلى اللّه تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق ، ولا يلزم حصول مراده على العموم - تعالى اللّه عما يقولون - ثم ولو تنزيل متنزل على هذه القاعدة لما استقام تأويل الزمخشري أيضا ، فان حاصله : ولو علم اللّه فيهم خيراً للطف بهم ، ولو لطف بهم لما انتفعوا باللطف ، فيلزم عدم انتفاعهم باللطف على تقدير علم اللّه الخير فيهم ، وهذا غير مستقيم لما يلزم عليه من وقوع خلاف المعلوم للّه تعالى ، وذلك محال عقلا ، فلا يرتفع الاشكال إلا بتقدير الاسماع الواقع جوابا أولا وخلاف الاسماع الواقع شرطا ثانيا ، كيلا يتكرر الوسط فيلزم المحال المذكور. وأقرب وجه في اختلاف الاسماعين : أن يراد بالأول : ولو علم اللّه فيهم خيراً لأسمعهم إسماعا يخلق لهم به الهداية والقبول ، ولو أسمعهم لا على أنه يخلق لهم الاهتداء ، بل إسماعا مجرداً من ذلك ، لتولوا وهم معرضون. فهذا هو الوجه في تأويل الآية ، واللّه الموفق.

[سورة الأنفال (8) : آية 24]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

إِذا دَعاكُمْ وحد الضمير كما وحده فيما قبله ، لأن استجابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كاستجابته ، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد ، والمراد بالاستجابة. الطاعة والامتثال.

وبالدعوة : البعث والتحريض. وروى أبو هريرة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم مرّ على باب أبىّ ابن كعب فناداه وهو في الصلاة فعجل في صلاته ثم جاء فقال : ما منعك عن إجابتى؟ قال : كنت أصلى. قال : ألم تخبر فيما أوحى إلىّ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ قال : لا جرم لا تدعوني إلا أجبتك «1». وفيه قولان ، أحدهما : إن هذا مما اختص به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. والثاني أن دعاءه كان لأمر لم يحتمل التأخير ، وإذا وقع مثله للمصلي فله أن يقطع صلاته لِما يُحْيِيكُمْ من علوم الديانات والشرائع ، لأن العلم حياة ، كما أنّ الجهل موت. ولبعضهم : لَا تُعْجِبَنَّ الْجَهُولَ حُلَّتُهُ فَذَاكَ مَيْتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنُ «2»

وقيل لمجاهدة الكفار ، لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم ، كقوله وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ وقيل للشهادة ، لقوله بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ يعنى أنه يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها «3» وهي التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله ورده سليما كما يريده اللّه ، فاغتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوا قلوبكم لطاعة اللّه ورسوله وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فيثيبكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة. وقيل :

(1). أخرجه الترمذي والنسائي دون قوله : لا جرم إلى آخره وأخرجه ابن مردويه من الوجه الذي أخرجه منه الترمذي وفي آخره قال «انى لا جرم يا رسول اللّه لا تدعوني إلا أجبتك هو إن كنت أصلى» وفي الباب عن أبى سعيد ابن الحكم ، أخرجه البخاري بغير هذا السياق واقتصر عليه الطيبي.
(2). للزمخشري ، نهي للجهول عن العجب والخيلاء بثيابه ، لأنه كالميت في عدم النفع وعدم الإدراك ، ويلزم من ذلك أن ثوبه الذي يعجب به كالكفن ، حيث اشتمل على جسم لا إدراك فيه ولا نفع. والميت هنا بالتخفيف.
(3). قال محمود : «معناه أنه يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها ... الخ» قال أحمد رحمه اللّه : نعم ، هذا عقد أهل السنة الذي استعار لهم لقب المجبرة ، وهو العقد الحق المؤسس على التقوى وتفويض المخلوقات كلها إلى الواحد الحق خالق الخلق ، فان كان ذلك ظلما فأنا بريء من الطائفة المتسمية بالعدلية ، إصراراً على هذا الرأى الباطل والمعتقد الماحل ، واللّه الموفق.

معناه إنّ اللّه قد يملك على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ، ويغير نياته ومقاصده ، ويبدله بالخوف أمناً وبالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً ، وبالنسيان ذكراً ، وما أشبه ذلك مما هو جائز على اللّه تعالى.

فأما ما يثاب عليه العبد ويعاقب «1» من أفعال القلوب فلا ، والمجبرة على أنه يحول بين المرء والإيمان إذا كفر ، وبينه وبين الكفر إذا آمن ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً. وقيل معناه : أنه يطلع على كل ما يخطره المرء بباله ، لا يخفى عليه شيء من ضمائره ، فكأنه بينه وبين قلبه.

وقرئ : بين المر ، بتشديد الراء. ووجهه أنه قد حذف الهمزة وألقى حركتها على الراء ، كالخب ، ثم نوى الوقف على لغة من يقول : مررت بعمرّ.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 25 إلى 26]

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (25) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(26)

فِتْنَةً ذنبا. قيل هو إقرار المنكر بين أظهرهم. وقيل : افتراق الكلمة. وقيل فِتْنَةً عذاباً. وقوله : لا تُصِيبَنَّ لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر. أو نهياً بعد أمر. أو صفة لفتنة ، فإذا كان جواباً ، فالمعنى إن إصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم وهذا كما يحكى أن علماء بنى إسرائيل نهوا عن المنكر تعذيراً «2» فعمهم اللّه بالعذاب ، وإذا كانت نهياً بعد أمر فكأنه قيل : واحذروا ذنباً أو عقاباً ، ثم قيل : لا تتعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة ، وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول ، كأنه قيل : واتقوا فتنة مقولا فيها لا تصيبنّ ، ونظيره قوله : حَتَّي إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ وَاخْتَلَطْ جَاؤُا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطْ «3»

(1). قوله «فأما ما يثاب العبد عليه ... الخ» المسألة هنا من فروع مسألة خلق أفعال العباد الاختيارية ، فعند المعتزلة أن المريد الخالق لها هو العبد ، وإذا صح تكليفه لظهور اختياره. وعند أهل السنة أن المريد الخالق لها هو اللّه تعالى. وإنما صح تكليف العبد لما له فيها من الكسب ، وهو اختيار بعضها على بعض بشهادة الوجدان ، خلافا للجبرية القائلين بالجبر المحض ، ومحله التوحيد.
(2). قوله نهوا عن المنكر تعذيراً التعذير في الأمر : التقصير فيه اه صحاح. (ع)
(3) بتنا بحسان ومعزاه يئط يلحس أذنيه وحينا يمتخط
ما زلت أسعى فيهمو وأختبط حتى إذا جن الظلام واختلط
جاءوا بمذق هل رأيت الذيب قط
لأحمد الرجاز. وقيل : إنه للعجاج ، يصف رجلا بالبخل. وبات بالقوم : إذا نزل بهم ليلا. والأط : صوت الجوف. والمعز - محركة ومسكنة - والمعيز ، والأمعوز ، والمعزى : خلاف الضأن من الغنم. فهو اسم جمع ، وتأنيث المعزى لغة. والاختباط : تطلب المعروف من غير اهتداء. يقول : نزلنا عند حسان ليلا ، والحال أن معزاه جائعة هزيلة ، فالأطيط كناية عن الأول ، والامتخاط كناية عن الثاني ، ويجوز أن ذلك كناية عن كثرة المعز عنده ، وليخله قراهم بالمذق بعد مدة كان يمكنه أن يذبح لهم فيها شاة ، وهذا أنسب بما بعده ، وضمير أذنيه يحتمل عوده على المعزى لأنه مذكر عند الأكثر ، ويجوز أنه عائد لحسان ، وهو ذم شنيع. وفيهم : أى في حيه. وجن النبت : طال. والليل : أظلم. والذباب : كثرت أصواته. والظلام : كثر واختلط وتراكم بعضه فوق بعض بحيث لا يتخلله نور. والمذق : المزج. والمراد به لبن مخلوط بماء. ويروى : بمذق - بالكسر - : وهو ذلك اللبن.
ويروى : جاءوا بضيح ، بمعجمة فمثناة تحتية فمهملة ، بمعنى المذق ، إلا أنه رقيق ، و«هل رأيت» استفهام تقريرى والجملة صفة لمذق ، أى مذق مقول فيه ذلك ، والمراد تشبيه المذق بالذيب في الكدرة ، فكنى بالاستفهام عن ذلك ، لأن من أراد إخطار الشيء بالبال ورسمه في الخيال يستفهم عنه ، فكأنه قال له هل رأيته؟ فقال نعم ، قال : إن اللبن مثله ، لكن حذف هذا كله واستغنى بالاستفهام عنه. وقط : ظرف مبنى على الضم ، وسكن الوقف.

أى بمذق مقول فيه هذا القول ، لأنه سمار فيه لون الورقة «1» التي هي لون الذئب. ويعضد المعنى الأخير قراءة ابن مسعود : لتصيبنّ ، على جواب القسم المحذوف. وعن الحسن : نزلت في علىّ وعمار وطلحة والزبير وهو يوم الجمل خاصة. قال الزبير : نزلت فينا وقرأناها زماناً ، وما أرانا من أهلها ، فإذا نحن المعنيون بها. وعن السدى : نزلت في أهل بدر فاقتتلوا يوم الجمل. وروى «أن الزبير كان يساير النبي صلى اللّه عليه وسلم يوماً ، إذ أقبل علىّ رضى اللّه عنه ، فضحك إليه الزبير فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كيف حبك لعلّى؟ فقال يا رسول اللّه ، بأبى أنت وأمى ، إنى أحبه كحبي لوالدي أو أشدّ حبا. قال : فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله» «2» فإن قلت : كيف جاز أن يدخل النون المؤكدة في جواب الأمر؟ قلت : لأنّ فيه معنى النهى ، إذا قلت : انزل عن الدابة لا تطرحك ، فلذلك جاز لا تطرحنك ولا تصيبنّ ولا يحطمنكم. فإن قلت : فما معنى «من» في قوله الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ؟ قلت : التبعيض على الوجه الأوّل ، والتبيين على الثاني ، لأنّ المعنى : لا تصيبنكم خاصة على ظلمكم ، لأن الظلم أقبح منكم من سائر الناس «3».

(1). قوله «لأنه سمار فيه لون الورقة» قوله «سمار» هو - بالفتح - لبن رقيق. وتسمير اللبن. ترقيقه بالماء.
والورقة : بياض يضرب إلى سواد وإلى خضرة اه صحاح. (ع)
(2). لم أجده هكذا وإنما رواه ابن أبى شيبة من طريق الأسود بن قيس حدثني من رأى الزبير يعقص الخيل فناداه على : يا أبا عبد اللّه فأقبل حتى التقت أعناق دوابهما فقال له على : أنشدك اللّه ، أتذكر يوم أتانا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأنا أناجيك فقال : أتناجيه؟

واللّه ليقاتلنك وهو لك ظالم قال : فضرب الزبير وجه دابته فانصرف «و روى البيهقي في الدلائل من طريق أبى حرب بن أبى الأسود الديلمي عن أبيه قال : «لما دنا على وأصحابه من طلحة والزبير ودنت الصفوف بعضها من بعض خرج على فنادى : ادعوا لي الزبير فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابهما فقال على رضى اللّه عنهما يا زبير ، نشدتك اللّه ، أتذكر يوم مر بنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ونحن بمكان كذا وكذا فقال : يا زبير ، أتحب عليا؟ فقلت : ألا أحب ابن خالي وابن عمّتى وعلى قريبي؟ قال : أما واللّه لتقاتلنه وأنت له ظالم؟ قال ، بلى ، ولكنى نسيته وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة قال «لما ولى الزبير يوم الجمل بلغ عليا فقال : لو كان يعلم أنه على حق ما ولى وذلك أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لقيه في سقيفة بنى ساعدة فقال : أتحبه يا زبير؟ قال : وما يمنعني؟ قال : فكيف بك إذا قاتلته». [.....]
(3). قوله «أقبح منكم من سائر الناس» لعله منه من سائر الناس. (ع)

إِذْ أَنْتُمْ نصبه على أنه مفعول به مذكور لا ظرف : أى اذكروا وقت كونكم أقلة أذلة مستضعفين فِي الْأَرْضِ أرض مكة قبل الهجرة تستضعفكم قريش تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ لأن الناس كانوا جميعا لهم أعداء منافين مضادّين فَآواكُمْ إلى المدينة وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ بمظاهرة الأنصار وبإمداد الملائكة يوم بدر وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ من الغنائم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إرادة أن تشكروا هذه النعم. وعن قتادة : كان هذا الحىّ من العرب أذلّ الناس ، وأشقاهم عيشا ، وأعراهم جلداً ، وأبينهم ضلالا ، يؤكلون ولا يأكلون ، فمكن اللّه لهم في البلاد ، ووسع لهم في الرزق والغنائم وجعلهم ملوكا.

[سورة الأنفال (8) : آية 27]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27)

معنى الخون : النقص ، كما أن معنى الوفاء التمام. ومنه : تخوّنه ، إذا تنقصه ، ثم استعمل في ضدّ الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه ، وقد استعير فقيل : خان الدلو الكرب ، وخان المشتار السبب «1» لأنه إذا انقطع به فكأنه لم يف له.

ومنه قوله تعالى وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ والمعنى لا تخونوا اللّه بأن تعطلوا فرائضه ، ورسوله بأن لا تستنوا به. وأَماناتِكُمْ فيما بينكم بأن لا تحفظوها وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ تبعة ذلك ووباله ، وقيل وأنتم تعلمون أنكم تخونون ، يعنى أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو. وقيل : وأنتم علماء تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن. وروى أن نبى اللّه صلى اللّه عليه وسلم حاصر يهود بنى قريظة إحدى وعشرين ليلة «2»

(1). قوله «خان الدلو الكرب وخان المشتار السبب. قوله «الكرب» حبل يشد في رأس الدلو. والمشتار مجتنى العسل. والسبب : الحبل اه صحاح (ع)
(2). أخرجه الثعلبي عن الكلبي بغير سند ، لكن سنده إليه في أول الكتاب. وقد روى ابن إسحاق في المغازي :
حدثنا إسحاق بن يسار عن عبد بن كعب السلمى «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حاصرهم - يعنى قريظة - خمساً وعشرين ليلة - فذكر القصة بطولها - إلى أن قال : ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر فذكر قصة مختصرة. وأخرجها البيهقي في الدلائل من طريق سعيد بن المسبب في قصة طويلة - فذكر نحو ما هنا. وهكذا ذكرها عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال : كان أبو لبابة ممن تخلف عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في تبوك. فربط نفسه بسارية فذكر القصة» وأخرجه الواقدي عن معمر عن الزهري عن ابن كعب بن مالك مثله.
«تنبه» تسمية أبى لبابة مروان لم أره إلا من هذه الرواية. ومدة حصار بنى قريظة المحفوظ فيها ما قاله ابن إسحاق.

فسألوا الصلح كما صالح إخوانهم بنى النضير على أن يسيروا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام ، فأبى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأبوا وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة مروان بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم لأنّ عياله وماله في أيديهم ، فبعثه إليهم فقالوا له : ما ترى ، هل ننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه إنه الذبح ، قال أبو لبابة فما زالت قدماي حتى علمت أنى قد خنت اللّه ورسوله فنزلت ، فشدّ نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال : واللّه لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب اللّه علىّ ، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ثم تاب اللّه عليه ، فقيل له : قد تيب عليك فحل نفسك. فقال : لا واللّه لا أحلها حتى يكون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هو الذي يحلني ، فجاءه فحله بيده فقال : إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالى. فقال صلى اللّه عليه وسلم : يجزيك الثلث أن تتصدّق به. وعن المغيرة : نزلت في قتل عثمان بن عفان رضى اللّه عنه. وقيل أَماناتِكُمْ ما ائتمنكم اللّه عليه من فرائضه وحدوده. فإن قلت : وَتَخُونُوا جزم هو أم نصب؟ قلت : يحتمل أن يكون جزما داخلا في حكم النهى «و أن يكون نصباً بإضمار «أن» كقوله وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وقرأ مجاهد :
وتخونوا أمانتكم ، على التوحيد.

[سورة الأنفال (8) : آية 28]

وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28)

جعل الأموال والأولاد فتنة ، لأنهم سبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم أو العذاب. أو محنة من اللّه ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ.

فعليكم أن تنوطوا بطلبه وبما تؤدى إليه هممكم ، وتزهدوا في الدنيا ، ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد، حتى تورّطوا أنفسكم من أجلهما ، كقوله الْمالُ وَالْبَنُونَ الآية. وقيل : هي من جملة ما نزل في أبى لبابة وما فرط منه لأجل ماله وولده.

[سورة الأنفال (8) : آية 29]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

فُرْقاناً نصراً ، لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزبه ، والإسلام بإعزاز أهله. ومنه قوله تعالى يَوْمَ الْفُرْقانِ أو بياناً وظهورا يشهر أمركم ويبث صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض ، من قولهم «بتّ أفعل كذا» حتى سطع الفرقان : أى طلع الفجر. أو مخرجا من الشبهات وتوفيقاً وشرحاً للصدور. أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان ، وفضلا ومزية في الدنيا والآخرة.

[سورة الأنفال (8) : آية 30]

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (30)

لما فتح اللّه عليه ، ذكره مكر قريش به حين كان بمكة ، ليشكر نعمة اللّه عز وجل في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وما أتاح اللّه له من حسن العاقبة ، والمعنى : واذكر إذ يمكرون بك وذلك أن قريشا - لما أسلمت الأنصار وبايعوه - فرقوا أن يتفاقم أمره «1» ، فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره ، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال : أنا شيخ من نجد ، ما أنا من تهامة دخلت مكة فسمعت باجتماعكم ، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا ، فقال أبو البختري : رأيى أن تحبسوه في بيت وتشدّوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوّة تلقون إليه طعامه وشرابه منها ، وتتربصوا به ريب المنون. فقال إبليس : بئس الرأى ، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم : فقال هشام بن عمرو : رأيى أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم ، فلا يضركم ما صنع واسترحتم. فقال إبليس : بئس الرأى يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً ، فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا. فقال الشيخ - لعنه اللّه - : صدق هذا الفتى ، هو أجودكم رأياً.

فتفرقوا على رأى أبى جهل مجتمعين على قتله. فأخبر جبريل عليه السلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأذن اللّه له في الهجرة ، فأمر علياً رضى اللّه عنه فنام في مضجعه ، وقال له : اتشح ببردتي ، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه ، وباتوا مترصدين ، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه ، فأبصروا علياً فبهتوا وخيب اللّه عز وجل سعيهم ، واقتصوا أثره فأبطل اللّه مكرهم «2» لِيُثْبِتُوكَ ليسجنوك أو يوثقوك أو يثخنوك بالضرب والجرح ، من قولهم : ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح ، وفلان مثبت وجعاً. وقرئ: ليثبتوك ، بالتشديد. وقرأ النخعي : ليبيتوك ، من البيات ، وعن ابن عباس : ليقيدوك ، وهو دليل لمن فسره بالإيثاق وَيَمْكُرُونَ ويخفون المكايد له.

(1). قوله «فرقوا أن يتفاقم أمره» أى خافوا أن يعظم أمره. اه صحاح. (ع)

(2). القصة أخرجها ابن إسحاق في المغازي : حدثني من لا أنهم عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال «لما اجتمعت قريش في دار الندوة وتشاوروا في أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم اعترضهم إبليس في هيئة شيخ فذكره مطولا» وأخرجه الطبري وأبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن ابن أبى نجيح. وليس في أوّله أن ذلك بسبب الأنصار. وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة قال «لما كثر المسلمون - فذكر معناها. ووصلها الواقدي عن معمر بذكر عائشة قال : وعن ابن أبى خيثمة عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس نحوه.

وَيَمْكُرُ اللَّهُ ويخفى الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ أى مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً ، أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل ولا يصيب إلا بما هو مستوجب.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 31 إلى 34]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (32) وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) وَما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (34)

لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا نفاجة منهم وصلف «1» تحت الراعدة ، فإنهم لم يتوانوا في مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة ، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاءوا غلبة من تحدّاهم وقرعهم بالعجز ، حتى يفوزوا بالقدح المعلى دونه ، مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا في باب البيان خاصة ، وأن يماتنهم واحد ، فيتعللوا بامتناع المشيئة ، ومع ما علم وظهر ظهور الشمس ، من حرصهم على أن يقهروا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وتهالكهم على أن يغمروه «2». وقيل : قائله النضر بن الحرث المقتول صبراً ، حين سمع اقتصاص اللّه أحاديث القرون : لو شئت لقلت مثل هذا. وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم وإسفنديار فزعم أن هذا مثل ذاك ، وأنه من جملة تلك الأساطير ، وهو القائل إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعنى إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل ، كما فعلت بأصحاب الفيل ، أو بعذاب آخر. ومراده نفى كونه حقاً ، وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذاباً فكان تعليق العذاب بكونه حقا مع اعتقاد أنه ليس بحق ، كتعليقه بالمحال في قولك : إن كان الباطل حقا ، فأمطر علينا حجارة. وقوله : هُوَ الْحَقَّ تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين : هذا هو الحق. وقرأ الأعمش «هو الحق» بالرفع ، على أن هو مبتدأ غير فصل.

(1). قوله «نفاجة منهم وصلف الخ» «نفاجة» أى تكبر. و«الصلة» مجاوزة الحد كيرا. «و الراعدة» السحابة. وهذا مثل يضرب للرجل يتوعد ثم لا يقوم به. والقدح المعلى : أحد سهام الميسر يخرج للغالب اه صحاح (ع)
(2). قوله «على أن يغمروه» يقال للرجل : غمره القوم ، إذا علوه شرفا ، كذا في الصحاح. (ع)

وهو في القراءة الأولى فصل. ويقال : أمطرت السماء ، كقولك أنجمت وأسبلت «1» ومطرت ، كقولك : هتنت وهتلت. وقد كثر الأمطار في معنى العذاب. فإن قلت : ما فائدة قوله مِنَ السَّماءِ؟ والأمطار لا تكون إلا منها. قلت : كأنه يريد أن يقال : فأمطر علينا السجيل وهي الحجارة المسوّمة للعذاب ، فوضع حِجارَةً مِنَ السَّماءِ موضع السجيل ، كما تقول : صب عليه مسرودة من حديد ، تريد درعاً بِعَذابٍ أَلِيمٍ أى بنوع آخر من جنس العذاب الأليم ، يعنى أن أمطار السجيل بعض العذاب الأليم ، فعذبنا به أو بنوع آخر مِّن أنواعه.

وعن معاوية أنه قال لرجل من سبإ ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! قال : أجهل من قومي قومك قالوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين دعاهم إلى الحق إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا له. اللام لتأكيد النفي ، والدلالة على أنّ تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة ، لأن عادة اللّه وقضية حكمته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم. والدليل على هذا الإشعار قوله وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وإنما يصح هذا بعد إثبات التعذيب ، كأنه قال : وما كان اللّه ليعذبهم وأنت فيهم ، وهو معذبهم إذا فارقتهم ، وما لهم أن لا يعذبهم وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ في موضع الحال. ومعناه نفى الاستغفار عنهم : أى ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم ، كقوله : وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ، ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون، ولا يتوقع ذلك منهم. وقيل : معناه وما كان اللّه معذبهم وفيهم من يستغفر ، وهم المسلمون بين أظهرّهم ممن تخلف عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من المستضعفين ، وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وأى شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم ، يعنى : لاحظّ لهم في ذلك وهم معذبون لا محالة. وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدّون عن المسجد الحرام كما صدّوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عام الحديبية ، وإخراجهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين من الصدّ ، وكانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء وندخل من نشاء وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمره وأربابه إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ من المسلمين ليس كل مسلم أيضاً ممن يصلح لأن يلي أمره ، إنما يستأهل ولايته من كان برا تقياً ، فكيف بالكفرة عبدة الأصنام وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاند ويطلب الرياسة. أو أراد بالأكثر : الجميع ، كما يراد بالقلة : العدم.

(1). قوله «أنجمت وأسبلت الخ» أنجمت : أى انكشفت نجومها. وأسبلت : أمطرت. وهتنت وهتلت : تتابع مطرها. اه صحاح (ع)

[سورة الأنفال (8) : آية 35]

وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (35)

المكاء : فعال بوزن الثغاء والرغاء «1» من مكا يمكو إذا صفر : ومنه المكاء ، كأنه سمى بذلك لكثرة مكائه. وأصله الصفة ، نحو الوضاء والفراء. وقرئ : مكا بالقصر. ونظيرهما : البكى والبكاء. والتصدية : التصفيق ، تفعلة من الصدى أو من صدَّ يصدّ «2» إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وقرأ الأعمش : وما كان صلاتهم ، بالنصب على تقديم خبر كان على اسمه ، فإن قلت : ما وجه هذا الكلام؟ قلت : هو نحو من قوله : وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَدَاهِمَ سُوداً أَوْ مُحَدْرَجَةً سُمْرَا «3»

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء ، ووضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة ، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة : الرجال والنساء ، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون ، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في صلاته يخلطون عليه فَذُوقُوا عذاب القتل والأسر يوم بدر ، بسبب كفركم وأفعالكم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 36 إلى 37]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (37)

قيل نزلت في المطعمين يوم بدر ، كان يطعم كل واحد منهم كلّ يوم عشر جزائر. وقيل :

(1). قوله «بوزن الثغاء والرغاء» الثغاء : صوت الغنم. والرغاء : صوت الإبل. والمكا - بالتشديد - : طائر وجمعه مكاكى اه صحاح (ع)
(2). قوله «أو من صد يصد» في الصحاح : صد يصد ويصد صديداً : أى ضج (ع)
(3). للفرزدق «و الأدهم» في الأصل الأسود ، ثم غلب على الحية السوداء ، ثم سمى به القيد الحديد.
«و المحدرج» المفتول : أى ما كنت. أظن أن يكون عطاؤه قيوداً سوداً ، أو سياطاً مفتولة سمرا حقيقة ، أو وصفها بذلك لقبحها ، كما يصفون الحسن بالأخضر. ويروى «حمرا» فوضع القيود والسياط موضع العطاء ، ووضع الشاعر الرجاء موضع الظن ، وأطلق العطاء على العقاب مجازا ، وعرض بذلك إلى أنه كان يرجو العطا ، ويروى «أخاف زيادا أن يكون».

قالوا لكل من كان له تجارة في العير : أعينوا بهذا المال على حرب محمد ، لعلنا ندرك منه ثأرنا بما أصيب منا ببدر. وقيل : نزلت في أبى سفيان وقد استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب ، وأنفق عليهم أربعين أوقية. والأوقية اثنان وأربعون مثقالا لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى كان غرضهم في الإنفاق الصدّ عن اتباع محمد وهو سبيل اللّه ، وإن لم يكن عندهم كذلك ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً أى تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة ، فكأنّ ذاتها تصير ندما وتنقلب حسرة ثُمَّ يُغْلَبُونَ آخر الأمر وإن كانت الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالا قبل ذلك فيرجعون طلقاء «1» كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي. وَالَّذِينَ كَفَرُوا والكافرون منهم إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ لأنّ منهم من أسلم وحسن إسلامه لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ الفريق الخبيث من الكفار مِنَ الفريق الطَّيِّبِ من المؤمنين ، فيجعل الفريق الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً عبارة عن الجمع والضم ، حتى يتراكبوا ، كقوله تعالى : كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً يعنى لفرط ازدحامهم أُولئِكَ إشارة إلى الفريق الخبيث ، وقيل : ليميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون كأبى بكر وعثمان في نصرته فَيَرْكُمَهُ فيجعله في جهنم في جملة ما يعذّبون به ، كقوله فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ ... الآية ، واللام على هذا متعلقة بقوله ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً وعلى الأوّل بيحشرون ، وأولئك: إشارة إلى الذين كفروا. وقرئ : ليميز على التخفيف.

[سورة الأنفال (8) : آية 38]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38)

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا من أبى سفيان وأصحابه. أى قل لأجلهم هذا القول وهو إِنْ يَنْتَهُوا ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل : إن تنتهوا يغفر لكم ، وهي قراءة ابن مسعود. ونحوه : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه ، أى إن ينتهوا عماهم عليه من عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقتاله بالدخول في الإسلام يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ لهم من العداوة وَإِنْ يَعُودُوا لقتاله فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر. أو فقد مضت سنة الذين تحزّبوا على أنبيائهم من الأمم فدمّروا ، فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا. وقيل : معناه أنّ الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف لهم من الكفر والمعاصي ،

(1). قوله «فيرجعون طلقاء» في الصحاح «الطليق» الأسير الذي أطلق عنه إساره وخلى سبيله. (ع)

وخرجوا منها كما تنسلّ الشعرة من العجين. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «الإسلام يجب ما قبله» «1» وقالوا : الحربي إذا أسلم لم يبق عليه تبعة قط. وأما الذي فلا يلزمه قضاء حقوق اللّه وتبقى عليه حقوق الآدميين. وبه احتجّ أبو حنيفة رحمه اللّه في أنّ المرتدَّ إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة في حال الردّة. وقبلها ، وفسر وَإِنْ يَعُودُوا بالارتداد. وقرئ يُغْفَرْ لَهُمْ على أن الضمير للّه عز وجل.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 39 إلى 40]

وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)

وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ويضمحل عنهم كل دين باطل ، ويبقى فيهم دين الإسلام وحده فَإِنِ انْتَهَوْا عن الكفر وأسلموا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ يثيبهم على توبتهم وإسلامهم. وقرئ : تعملون ، بالتاء ، فيكون المعنى : فإن اللّه بما تعملون من الجهاد في سبيله والدعوة إلى دينه والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام بَصِيرٌ يجازيكم عليه أحسن الجزاء وَإِنْ تَوَلَّوْا ولم ينتهوا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ أى ناصركم ومعينكم ، فثقوا بولايته ونصرته.

[سورة الأنفال (8) : آية 41]

وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41)

(1). أخرجه مسلم من رواية عبد الرحمن بن أسامة عن عمرو بن العاص في قصة. وفيها هذا لكن بلفظ «يهدم ما قبله» قال النووي : غلط كثير من الفقهاء فذكره بلفظ «يجب ما قبله» ويروى «يحت» بالمهملة والمثناة اه. وقد رواه الطبري من هذا الوجه ، بلفظ «إن الإسلام يجب ما كان قبله» وأخرجه ابن إسحاق في المغازي من طريق حبيب بن أبى أويس الثقفي حدثني عمرو بن العاص من فيه إلى في قال «لما جئت أريد الإسلام فذكر القصة. وفيها يا عمرو ، إن الإسلام يجب ما قبله. والهجرة تجب ما كان قبلها» ومن هذا الوجه أخرجه أحمد وإسحاق والبيهقي في الدلائل. وأخرجه ابن سعد في خالد بن الوليد من طريق المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال قال خالد ابن الوليد ... فذكر قصة إسلامه وفيها «إن الإسلام يجب ما كان قبله» وفي ترجمة المغيرة بن شعبة من رواية يعقوب ابن عتبة عن المغيرة. فذكر قصة إسلامه. وفيها ذلك. وفي ترجمة هبار بن الأسود من حديث جبير بن مطعم في قصة إسلام هبار. وفيه «و الإسلام يجب ما كان قبله» وفي أسانيد الثلاثة الواقدي.

أَنَّما غَنِمْتُمْ ما موصولة. ومِنْ شَيْءٍ بيانه. قيل : من شيء حتى الخيط والمخيط ، فَأَنَّ لِلَّهِ مبتدأ خبره محذوف ، تقديره : فحق ، أو فواجب أن اللّه خمسه. وروى الجعفي عن أبى عمرو ، فإن اللّه بالكسر. وتقويه قراءة النخعي: فللّه خمسه. والمشهورة آكد وأثبت للإيجاب ، كأنه قيل : فلا بد من ثبات الخمس فيه ، لا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه ، من حيث إنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات ، كقولك : ثابت واجب حق لازم ، وما أشبه ذلك ، كان أقوى لإيجابه من النص على واحد ، وقرئ : خمسه بالسكون فإن قلت : كيف قسمة الخمس؟ قلت : عند أبى حنيفة رحمه اللّه أنها كانت في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على خمسة أسهم : سهم لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وسهم لذوي قرباء من بنى هاشم وبنى المطلب ، دون بنى عبد شمس وبنى نوفل ، استحقوه حينئذ بالنصرة والمظاهرة ، لما روى عن عثمان وجبير بن مطعم رضى اللّه عنهما ، أنهما قالا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك اللّه منهم ، أرأيت إخواننا بنى المطلب أعطيتهم وحرمتنا ، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة : فقال صلى اللّه عليه وسلم : إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد ، وشبك بين أصابعه «1» وثلاثة أسهم : لليتامى والمساكين ، وابن السبيل. وأمّا بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فسهمه ساقط بموته ،

وكذلك سهم ذوى القربى ، وإنما يعطون لفقرهم ، فهم أسوة سائر الفقراء ، ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل. وأمّا عند الشافعي رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين : كعدّة الغزاة من السلاح والكراع «2» ونحو ذلك. وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم ، يقسم بينهم الذكر مثل حظ الأنثيين. والباقي للفرق الثلاث. وعند مالك ابن أنس رحمه الله : الأمر فيه مفوّض إلى اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين هؤلاء ، وإن رأى أعطاه بعضهم دون بعض ، وإن رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم. فإن قلت : ما معنى ذكر الله عز وجل وعطف الرسول وغيره عليه «3» قلت : يحتمل أن يكون معنى لله وللرسول ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(1). أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة من طريق سعيد بن المسيب عن جبير بن مطعم بتمامه وهو في الصحيح دون قوله «لم يفارقونى». [.....]
(2). قوله «من السلاح والكراع» الكراع : هو اسم جمع الخيل اه صحاح. (ع)
(3). قال محمود «إن قلت ما معنى ذكر الله وعطف الرسول وغيره عليه ... الخ» قال أحمد : لأن مالكا رضى الله عنه لا يرى ذكر الوجوه المذكورة لبيان أنه لا يصرف فيما سواها ، وليس لأن يتملكاها ولا على التحديد حتى لا يجوز الاقتصار على بعض الوجوه دون بعض ، بل الأمر عنده موكول إلى نظر الامام فيصرف الخمس في مصالح المسلمين ومن جملتها قرابته عليه الصلاة والسلام ، ولا تحديد عنده في ذلك البتة ، وهذا التأويل الثالث ينطبق على مذهبه ، وبيان ذلك أن المراد حينئذ بذكر الله تعالى بيان أن الخمس يصرف في وجوه التقربات لله تعالى غير مقيد ، ثم تخصيص الوجوه المذكورة بعد ليس تحديداً ، ولكن تنبيها على فضلها والتخصيص لقصد التفصيل بعد التعميم لا يرفع حكم العموم الأول ، بل هو قار على حاله ، كما أن العموم ثابت للملائكة وإن خص جبريل وميكال، بعده ، والله تعالى أعلم.

كقوله وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ وأن يراد بذكره إيجاب سهم سادس يصرف إلى وجه من وجوه القرب. وأن يراد بقوله فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ أن من حق الخمس أن يكون متقرّبا به إليه لا غير. ثم خص من وجوه القرب هذه الخمسة ، تفضيلا لها على غيرها. كقوله تعالى وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ فعلى الاحتمال الأول مذهب الإمامين. وعلى الثاني ما قال أبو العالية : أنه يقسم على ستة أسهم : سهم لله تعالى يصرف إلى رتاج الكعبة «1». وعنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه ، فيأخذ منه قبضة فيجعلها للكعبة وهو سهم الله تعالى ، ثم يقسم ما بقي على خمسة «2». وقيل : إن سهم الله تعالى لبيت المال ، وعلى الثالث مذهب مالك بن أنس. وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه كان على ستة أسهم لله وللرسول سهمان ، وسهم لأقاربه حتى قبض ، فأجرى أبو بكر رضى الله عنه الخمس على ثلاثة. وكذلك روى عن عمر ومن بعده من الخلفاء. وروى أنّ أبا بكر رضى الله عنه منع بنى هاشم الخمس وقال : إنما لكم أن يعطى فقيركم ويزوّج أيمكم ويخدم من لا خادم له منكم ، فأما الغنى منكم فهو بمنزلة ابن سبيل غنىّ لا يعطى من الصدقة شيئا ، ولا يتيم موسر. وعن زيد بن على رضى الله عنه : كذلك قال ، ليس لنا أن نبنى منه قصوراً ، ولا أن نركب منه البراذين. وقيل : الخمس كله للقرابة. وعن على رضى الله عنه أنه قيل له : إنّ الله تعالى قال وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ فقال : أيتامنا ومساكيننا.

وعن الحسن رضى الله عنه في سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه لولى الأمر من بعده.

وعن الكلبي رضى الله عنه أنّ الآية نزلت ببدر. وقال الواقدي : كان الخمس في غزوة بنى قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال ، على رأس عشرين شهراً من الهجرة. فإن قلت : بم تعلق قوله إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ؟ قلت : بمحذوف يدل عليه وَاعْلَمُوا المعنى : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنّ الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم واقتنعوا بالأخماس الأربعة ، وليس المراد بالعلم المجرّد ، ولكنه العلم المضمن بالعمل ، والطاعة لأمر الله تعالى ،

(1). قوله «يصرف إلى رتاج الكعبة» في الصحاح «الرتج» بالتحريك : الباب العظيم ، وكذلك الرتاج. ومنه. وتاج الكعبة ، (ع)
(2). أخرجه أبو داود في كتاب المراسيل من طريق الربيع بن أنس عن أبى العالية. قال «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالغنيمة قسمها خمسة أقسام ، ثم يقبض بيده قبضة من الخمس أجمع ثم يقول : هذه الكعبة. ثم يقول لا تجعلوا لله نصيباً فان لله الآخرة والدنيا ثم يأخذ سهما لنفسه وسهما لذي القربى وسهما اليتامى ، وسهما لمساكين ، وسهما لابن السبيل ، أخرجه أبو عبيدة في الأموال ، والطبري من هذا الوجه.

لأنّ العلم المجرّد يستوي فيه المؤمن والكافر وَما أَنْزَلْنا معطوف على بِاللَّهِ أى إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل عَلى عَبْدِنا وقرئ عبدنا كقوله وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ بضمتين يَوْمَ الْفُرْقانِ يوم بدر. والْجَمْعانِ الفريقان من المسلمين والكافرين. والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يقدر على أن ينصر القليل على الكثير والذليل على العزيز ، كما فعل بكم ذلك اليوم.

[سورة الأنفال (8) : آية 42]

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَلكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42)

إِذْ بدل من يوم الفرقان. والعدوة : شط الوادي بالكسر والضم والفتح. وقرئ بهنّ وبالعدية ، على قلب الواو ياء ، لأنّ بينها وبين الكسرة حاجزاً غير حصين كما في الصبية.

والدنيا والقصوى : تأنيث الأدنى والأقصى. فإن قلت : كلتاهما «فعلى» من بنات الواو ، فلم جاءت إحداهما بالياء والثانية بالواو؟ قلت : القياس هو قلب الواو ياء كالعليا. وأما القصوى فكالقود في مجيئه على الأصل. وقد جاء القصيا ، إلا أنّ استعمال القصوى أكثر ، كما كثر استعمال «استصوب» مع مجيء «استصاب» و«أغيلت» مع «أغالت» «1» والعدوة الدنيا مما يلي المدينة ، والقصوى مما يلي مكة وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ يعنى الركب الأربعين الذين كانوا يقودون العير أسفل منكم بالساحل. وأسفل : نصب على الظرف ، معناه : مكانا أسفل من مكانكم ، وهو مرفوع المحل ، لأنه خبر للمبتدإ. فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين «و أن العير كانت أسفل منهم «2»؟ قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدوّ وشوكته ، وتكامل عدّته ، وتمهد أسباب الغلبة له ، وضعف شأن المسلمين والتياث أمرهم «3» وأنّ غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من اللّه سبحانه ، ودليلا على أنّ ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوّته وباهر قدرته، وذلك أنّ العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء ، وكانت أرضاً لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار «4»

(1). قوله «و أغيلت مع أغالت» أغيلت : أى أرضعت وهي موطوءة. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قال محمود : «إن قلت ما فائدة ذكر مركز الفريقين وأن العير كانت أسفل منهم ... الخ» قال أحمد : وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشري وتنقيبه عن أسرار الكتاب العزيز.
(3). قوله «و التياث أمرهم» أى اختلاط أمرهم اه صحاح. (ع)
(4). قوله «و هي خبار» أى رخوة ذات جحرة. اه صحاح (ع)

تسوخ فيها الأرجل ، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة. وكانت العير وراء ظهور العدوّ مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها ، تضاعف حميتهم وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم. ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ، ليبعثهم الذب عن الحريم والغيرة على الحرم على بذلك جهيداهم في القتال ، وأن لا يتركوا وراءهم ما يحدّثون أنفسهم بالانحياز إليه ، فيجمع ذلك قلوبهم ويضبط هممهم ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا مواطنهم ولا يخلوا مراكزهم ، ويبذلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدّتهم. وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر ، ليقضى أمراً كان مفعولا من إعزاز دينه وإعلاء كلمته حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة ، حتى خرجوا ليأخذوا الغير راغبين في الخروج ، وشخص بقريش «1» مرعوبين مما بلغهم من تعرّض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأموالهم ، حتى نفروا ليمنعوا عيرهم ، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى ووراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان وَلَوْ تَواعَدْتُمْ أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال ، لخالف بعضكم بعضاً فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمسلمين ، فلم يتفق لكم من التلاقي في ما وفقه اللّه وسبب له لِيَقْضِيَ متعلق بمحذوف ، أى ليقضى أمراً كان واجباً أن يفعل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك. وقوله لِيَهْلِكَ بدل منه. واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام ، أى ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة ، لا عن مخالجة شبهة ، حتى لا تبقى له على اللّه حجة ، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به وذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغرّ المحجلة التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه مغالطاً لها.

وقرئ : ليهلك ، بفتح اللام. وحيي ، بإظهار التضعيف لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ يعلم كيف يدبر أموركم ويسوى مصالحكم. أو لسميع عليم بكفر من كفر وعقابه ، وبإيمان من آمن وثوابه.

[سورة الأنفال (8) : آية 43]

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ(43)

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ نصبه بإضمار اذكر. أو هو بدل ثان من يوم الفرقان ، أو متعلق بقوله لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ أى يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك فِي مَنامِكَ في رؤياك. وذلك أن اللّه عزّ وجل أراه إياهم في رؤياه قليلا ، فأخبر بذلك أصحابه فكان تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم.

(1). قوله «و شخص بقريش» يقال للرجل إذا ورد عليه أمرا أقلقه : شخص به. اه صحاح. (ع)

وعن الحسن : في منامك في عينك ، لأنها مكان النوم ، كما قيل للقطيفة «1» : المنامة ، لأنه ينام فيها.

وهذا تفسير فيه تعسف ، وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن ، وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته لَفَشِلْتُمْ لجبنتم وهبتم الإقدام وَلَتَنازَعْتُمْ في الرأى ، وتفرقت فيما تصنعون كلمتكم ، وترجحتم بين الثبات والفرار وَلكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ أى عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ يعلم ما سيكون فيها من الجرأة والجبن والصبر والجزع.

[سورة الأنفال (8) : آية 44]

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ(44)

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ الضميران مفعولان. يعنى : وإذ يبصركم إياهم. وقَلِيلًا نصب على الحال ، وإنما قللهم في أعينهم تصديقاً لرؤية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدّوا ويثبتوا. قال ابن مسعود رضى اللّه عنه : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي : أتراهم سبعين؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له : كم كنتم؟ قال.

ألفاً «2» وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ حتى قال قائل منهم : إنما هم أكلة جزور. فإن قلت : الغرض في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم؟ قلت : قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثرهم فيها بعده ليجترءوا عليهم ، قلة مبالاة بهم ، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا ، وتفل شوكتهم «3» حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم ، وذلك قوله يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ولئلا يستعدوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قلتهم أوّلا وكثرتهم آخراً. فإن قلت : بأى طريق يبصرون الكثير قليلا «4»؟ قلت بأن يستر اللّه عنهم

(1). قوله «للقطيفة» هي دثار مخمل. اه صحاح. (ع)
(2). قال إسحاق في مسنده : أخبرنا عمرو بن محمد ، ويحيى بن آدم قال حدثنا إسرائيل. عن أبى إسحاق عن أبى عبيدة عن عبد اللّه بن مسعود. فذكره ، ومن هذا الوجه أخرجه الطبري وابن أبى حاتم.
(3). قوله «و تفل شوكتهم» أى تكسر. أفاده الصحاح. (ع)
(4). قال محمود : «إن قلت بأى طريق يبصرون الكثير قليلا ... الخ» قال أحمد : وفي هذا دليل بين على أن اللّه تعالى هو الذي يخلق الإدراك في الحاسة غير موقوف على سبب من مقابلة أو قرب أو ارتفاع حجب أو غير ذلك ، إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلا لما أمكن أن يستر عنهم البعض وقد أدركوا البعض ، والسبب الموجب مشترك ، فعلى هذا يجوز أن يخلق الإدراك مع اجتماعها، فلا ربط إذا بين الرؤية ونفيها في مقدرة اللّه تعالى ، وهي رادة على القدرية المنكرين لرؤية اللّه تعالى ، بناء على اعتبار هذه الأسباب في حصول الإدراك عقلا ، وأنها تستلزم الجسمية ، إذ المقابلة والقرب وارتفاع الحجب إنما تتأتى في جسم ، فهذه الآية حسبهم في إبطال زعمهم ، ولكنهم يمرون عليها. وهم عنها معرضون ، واللّه الموفق.

بعضه بساتر أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير ، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين. قيل لبعضهم : إن الأحول يرى الوحد اثنين ، وكان بين يديه ديك واحد فقال : مالى لا أرى هذين الديكين أربعة؟

[سورة الأنفال (8) : الآيات 45 إلى 46]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46)

إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً إذا حاربتم جماعة من الكفار ، وترك أن يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار. واللقاء اسم للقتال غالب فَاثْبُتُوا لقتالهم ولا تفرّوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً في مواطن الحرب مستظهرين بذكره ، مستنصرين به ، داعين له على عدوكم : اللهم اخذلهم ، اللهم اقطع دابرهم لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ لعلكم تظفرون بمرادكم من النصرة

والمثوبة. وفيه إشعار بأنّ على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون هما ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره. وناهيك بما في خطب أمير المؤمنين عليه السلام في أيام صفين وفي مشاهده مع البغاة والخوارج - من البلاغة والبيان ولطائف المعاني وبليغات المواعظ والنصائح - دليلا على أنهم كانوا لا يشغلهم عن ذكر اللّه شاغل وإن تفاقهم الأمر وَلا تَنازَعُوا قرئ بتشديد التاء فَتَفْشَلُوا منصوب بإضمار أن ، أو مجزوم لدخوله في حكم النهى ، وتدل على التقديرين قراءة من قرأ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ بالتاء والنصب ، وقراءة من قرأ : ويذهب ريحكم ، بالياء والجزم. والريح : الدولة ، شبهت في نفوذ أمرها وتمشيه بالريح وهبوبها ، فقيل : هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره. ومنه قوله :

يَا صَاحِبَيَّ أَلَا لَاحَيَّ بِالْوَادِى إلّا عبِيدٌ قُعُودٌ بَيْنَ أذوَادِ

أَنْتُظِرَانِ قَلِيلًا رَيْثَ غَفْلَتِهِمْ أمْ تَعْدُوَانِ فَإنَّ الرِّيحَ لِلْعَادِى «1»

(1). لسليك بن سلكة ، مر مع صاحبيه بجوف مراد واد باليمن فوجدوا إبلا قد ملأته ، فقال لهما : أتنظراني هنا حتى آتى الرعاء فأعلم خبر الحي أقريب أم بعيد ، فلم يزل يلاطفهم حتى أخبروه بمكان الحي ، فإذا هم بعيد ، فقال لهم : ألا أغنيكم؟ قالوا : بلى ، فتغنى بأعلى صوته بالبيتين ، فأتاه صاحباه فاستاقوا الإبل. وآم بالمد. قيل : جمع إماء جمع أمة. وقيل : هو أيضا جمع أمة ، فأصله أأمو كأذرع جمع ذراع. وعلى الثاني أأمو أيضا ، كآكم جمع أكمة ، لأن أمة أصله أموة ، فأبدلت الهمزة الثانية في الجمع ألفا وقلبت الواو ياء لتطرفها. والهمزة كسرة لمناسبتها ، ثم أعل إعلال قاض. وروى بدله «قعود» والذود من الإبل : من ثلاثة إلى عشرة. وأ تنظران ، من أنظرته إذا أخرته. والريث : التأخر والتواني ، وهو نصب على البدلية من قليلا. أو على الظرفية. ويجوز قراءة «أ تنظران» من نظره إذا انتظره. فريث. يجوز أنه مفعول به. و«و تعدوان» من العدو ، وهو السرعة السير ، أو من العدوان ، وهو تعدى الحد. واستعار الريح الدولة والأمر النافذ بجامع النفوذ من كل. ويروى «تغدوان» و«للغادى» بالغين المعجمة : أى أم تسرعان إلى ، فان الظفر للمسرع. وفيه دلالة على أن السرعة أرجح من التأخر. [.....]

وقيل لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها اللّه تعالى. وفي الحديث : «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» «1»
[سورة الأنفال (8) : آية 47]

وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47)
حذرهم - بالنهى عن التنازع واختلاف الرأى - نحو ما وقع لهم بأحد لمخالفتهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من فشلهم وذهاب ريحهم كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ هم أهل مكة حين خرجوا الحماية العير ، فأتاهم رسول أبى سفيان وهم بالجحفة : أن ارجعوا فقد سلمت عيركم ، فأبى أبو جهل وقال : حتى نقدم بدراً نشرب بها الخمور ، وتعزف علينا القيان «2» ونطعم بها من حضرنا من العرب. فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم ، فوافوها، فسقوا كئوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان ، فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم ، وأن يكونوا من أهل التقوى «3» والكآبة والحزن من خشية اللّه عز وجل ، مخلصين أعمالهم للّه.

[سورة الأنفال (8) : آية 48]

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (48)

وَاذكر إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ التي عملوها في معاداة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ، وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجيرهم فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم ، أى بطل كيده حين نزلت جنود اللّه وكذا عن الحسن رحمه اللّه : كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم. وقيل : لما اجتمعت قريش على السير ذكرت الذي بينها وبين بنى كنانة من الحرب ، فكان ذلك يثنيهم ،

(1). متفق عليه من طريق مجاهد عن ابن عباس.
(2). قوله «و تعزف علينا القيان» تلعب بالملاهي وتغنى والقينة الأمة مغنية أو غير مغنية والجمع القيان والقين الحداد والجمع القيون وكل عبد هو عند العرب قين وقان الشيء يقينه قينا إذا أصلحه وزينه أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «و أن يكونوا من أهل التقوى» لعله : وأن لا يكونوا. أو لعله بأن يكونوا. (ع)

فتمثل لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني - وكان من أشرافهم - في جند من الشياطين معه راية ، وقال : لا غالب لكم اليوم ، وإنى مجيركم من بنى كنانة. فلما رأى الملائكة تنزل ، نكص

وقيل : كانت يده في يد الحارث بن هشام ، فلما نكص قال له الحارث : إلى أين؟ أتخذ لنا في هذه الحال؟ فقال : إنى أرى مالا ترون ، ودفع في صدر الحارث وانطلق ، وانهزموا ، فلما بلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقة ، فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان. وفي الحديث : وما رئي إبليس يوما أصغر ولا أدحر «1» ولا أغيظ من يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رئي يوم بدر «2». فإن قلت : هلا قيل لا غالباً لكم كما يقال : لا ضاربا زيداً عندنا؟ قلت : لو كان لَكُمُ مفعولا لغالب ، بمعنى : لا غالباً إياكم لكان الأمر كما قلت : لكنه خبر تقديره : لا غالب كائن لكم.

[سورة الأنفال (8) : آية 49]

إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49)

إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ بالمدينة وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يجوز أن يكون من صفة المنافقين ، وأن يراد الذين هم على حرف ليسوا بثابتى الأقدام في الإسلام. وعن الحسن : هم المشركون غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ يعنون أنّ المسلمين اغتروا بدينهم وأنهم يتقوّون به وينصرون من أجله ، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف ، ثم قال جوابا لهم وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 50 إلى 51]

وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (50) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51)

وَلَوْ تَرى ولو عاينت وشاهدت ، لأن «لو» تردّ المضارع إلى معنى الماضي ، كما تردّ «إن»

(1). قوله «و لا أدحر» الدحور : الطرد والابعاد ، اه صحاح ، (ع)
(2). أخرجه مالك في الموطأ من رواية طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلا ، ومن طريق مالك أخرجه عبد الرزاق والطبري ، والبيهقي في الشعب وانفرد أبو النضر بن إسماعيل بن إبراهيم العجلى عن مالك. فقال عن طلحة عن أبيه قال ابن عبد البر : الصواب مرسل «تنبيه» هو طلحة بن عبد الله بن بكير ، وكريز مصغر ، ووقع في المناسك للنووي طلحة بن عبد الله أحد العشرة ، وهو وهم بين.

الماضي إلى معنى الاستقبال. وإِذْ نصب على الظرف. وقرئ : يتوفى. بالياء والتاء.

والْمَلائِكَةُ رفعها بالفعل ويَضْرِبُونَ حال منهم ، ويجوز أن يكون في يَتَوَفَّى ضمير الله عز وجل ، والْمَلائِكَةُ مرفوعة بالابتداء ، ويَضْرِبُونَ خبر. وعن مجاهد : وأدبارهم : أستاههم ، ولكن الله كريم يكنى ، وإنما خصوهما بالضرب. لأنّ الخزي والنكال في ضربهما أشدّه ، وبلغني عن أهل الصين أن عقوبة الزاني عندهم أن يصبر ، ثم يعطى الرجل القوى البطش شيئاً عمل من حديد كهيئة الطبق فيه رزانة وله مقبض ، فيضربه على دبره ضربة واحدة بقوّته فيجمد في مكانه. وقيل : يضربون ما أقبل منهم وما أدبر وَذُوقُوا معطوف على يَضْرِبُونَ على إرادة القول : أى ويقولون ذوقوا عَذابَ الْحَرِيقِ أى مقدمة عذاب النار. او وذوقوا عذاب الاخرة : بشارة لهم به. وقيل : كانت معهم مقامع من حديد ، كلما ضربوا بها التهبت النار أو ويقال لهم يوم القيامة : ذوقوا. وجواب لَوْ محذوف : أى لرأيت أمراً فظيعاً منكراً ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ يحتمل أن يكون من كلام الله ومن كلام الملائكة ، وذلِكَ رفع بالابتداء وبما قَدَّمَتْ خبره وَأَنَّ اللَّهَ عطف عليه ، أى ذلك العذاب بسببين : بسبب كفركم ومعاصيكم وبأن الله لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ لأن تعذيب الكفار من العدل كإثابة المؤمنين. وقيل : ظلام للتكثير لأجل العبيد «1» أو لأن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلاما بليغ الظلم متفاقمه.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 52 إلى 54]

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (52) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ (54)

الكاف في محل الرفع : أى دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون. ودأبهم : عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه : أى داوموا عليه وواظبوا. وكَفَرُوا تفسير لدأب آل فرعون. وذلِكَ إشارة إلى ما حل بهم ،

(1). قال محمود : «و قيل ظلام للتكثير لأجل العبيد ... الخ» قال أحمد : وبهذه النكتة يجاب عن قول القائل نفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى ، فلم عدل عن الأبلغ. والمراد تنزيه الله تعالى وهو جدير بالمبالغة ، فهذان الجوابان عتيدان في هذا السؤال.

يعنى ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله لم ينبغ له ولم يصحّ في حكمته أن يغير نعمته عند قوم حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بهم من الحال. فإن قلت : فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله نعمته عليهم؟ ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة قلت : كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة ، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها ، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام ، فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين في إراقة دمه ، غيروا حالهم إلى أسوإ مما كانت ، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لما يقول مكذبو الرسل عَلِيمٌ بما يفعلون كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ تكرير للتأكيد. وفي قوله بِآياتِ رَبِّهِمْ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق. وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب وَكُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 55 إلى 57]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (55) الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (56) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (57)

الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أى أصروا على الكفر ولجوا فيه ، فلا يتوقع منهم إيمان وهم بنو قريظة ، عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يمالئوا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا : نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم فنكثوا ومالوا معهم يوم الخندق ، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ بدل من الذين كفروا ، أى الذين عاهدتهم من الذين كفروا جعلهم شر الدواب ، لأن شر الناس الكفار ، وشر الكفار المصرون منهم ، وشر المصرين الناكثون للعهود وَهُمْ لا يَتَّقُونَ لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون ما فيه من العار والنار فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فإما تصادفنهم وتظفرنّ بهم فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم ، من وراءهم من الكفرة ، حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد ، اعتباراً بهم واتعاظاً بحالهم. وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : فشرذ ، بالذال المعجمة ، بمعنى : ففرق ، وكأنه مقلوب «شذر» من قولهم «ذهبوا شذر مذر «1»» ومنه : الشذر : المتلقط من المعدن لتفرّقه. وقرأ أبو حيوة : من خلفهم.

(1). قوله «و كأنه مقلوب شذر ، من قولهم ذهبوا «شذر مذر» بفتحات ، أى في كل وجهة. اه صحاح. (ع)

ومعناه : فافعل التشريد من ورائهم ، لأنه إذا شرد الذين وراءهم فقد فعل التشريد في الوراء وأوقعه فيه ، لأن الوراء جهة المشردين ، فإذا جعل الوراء ظرفا للتشريد فقد دلّ على تشريد من فيه ، فلم يبق فرق بين القراءتين لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ لعلّ المشردين من ورائهم يتعظون.

[سورة الأنفال (8) : آية 58]

وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ (58)

وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ معاهدين خِيانَةً ونكثا بأمارات تلوح لك فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ فاطرح إليهم العهد عَلى سَواءٍ على طريق مستو قصد ، وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم إخباراً مكشوفا بينا أنك قطعت ما بينك وبينهم ، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ فلا يكن منك إخفاء نكث العهد والخداع وقيل : على استواء في العلم بنقض العهد. وقيل على استواء في العداوة. والجار والمجرور في موضع الحال ، كأنه قيل : فانبذ إليهم ثابتاً على طريق قصد سوى ، أو حاصلين على استواء في العلم أو العداوة ، على أنها حال من النابذ والمنبوذ إليهم معاً.

[سورة الأنفال (8) : آية 59]

وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (59)

سَبَقُوا أفلتوا وفاتوا من أن يظفر بهم إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم. وقرئ : أنهم ، بالفتح ، بمعنى : لأنهم ، كل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل ، إلا أن المكسورة على طريقة الاستئناف ، والمفتوحة تعليل صريح وقرى : يعجزون ، بالتشديد. وقرأ ابن محيصن : يعجزون ، بكسر النون. وقرأ الأعمش : ولا تحسب الذين كفروا ، بكسر الباء وبفتحها ، على حذف النون الخفيفة. وقرأ حمزة : ولا يحسبن بالياء على أن الفعل للذين كفروا. وقيل فيه : أصله أن سبقوا ، فحذفت أن ، كقوله وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ واستدل عليه بقراءة ابن مسعود رضى الله عنه : أنهم سبقوا. وقيل : وقع الفعل على أنهم لا يعجزون ، على أن «لا» صلة ، وسبقوا في محل الحال ، بمعنى سابقين أى مفلتين هاربين. وقيل معناه : ولا يحسبنهم الذين كفروا سبقوا ، فحذف الضمير لكونه مفهوما. وقيل : ولا يحسبن قبيل المؤمنين الذين كفروا سبقوا. وهذه الأقاويل كلها متمحلة ، وليست هذه القراءة التي تفرد بها حمزة بنيرة. وعن الزهري أنها نزلت فيمن أفلت من فل المشركين.

[سورة الأنفال (8) : آية 60]

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (60)

مِنْ قُوَّةٍ من كل ما يتقوّى به في الحرب من عددها. وعن عقبة بن عامر «1» : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : «ألا إن القوة الرمي «2»» قالها ثلاثا. ومات عقبة عن سبعين قوسا في سبيل الله. وعن عكرمة : هي الحصون ، والرباط : اسم للخيل التي تربط في سبيل الله. ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة. ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال. وقرأ الحسن : ومن ربط الخيل ، بضم الباء وسكونها جمع رباط. ويجوز أن يكون قوله وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تخصيصاً للخيل من بين ما يتقوى به ، كقوله وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ وعن ابن سيرين رحمه الله أنه سئل عمن أوصى بثلث ماله في الحصون؟ فقال : يشترى به الخيل ، فترابط في سبيل الله ويغزى عليها ، فقيل له : إنما أوصى في الحصون ، فقال : ألم تسمع قول الشاعر : أنّ الحصون الخيل لا مدر القرى «3»

تُرْهِبُونَ قرئ بالتخفيف والتشديد. وقرأ ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهما تخزون والضمير في بِهِ راجع إلى ما استطعتم عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ هم أهل مكة وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ هم اليهود وقيل المنافقون «و عن السدى هم أهل فارس ، وقيل كفرة الجن ، وجاء في الحديث. إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا داراً فيها فرس عتيق» وروى أنّ صهيل الخيل يرهب الجن «4»

(1). قال محمود : «القوة الرمي ، روى عقبة بن عامر أنها الرمي ... الخ» قال أحمد : والمطابق للرمي أن يكون الرباط على بابه مصدراً ، والله أعلم ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

(2). أخرجه مسلم أتم منه.

(3) ولقد علمت على تجنبى الردى أن الحصون الخيل لا مدر القرى

لأشعر الجعفي ، يقول : ولقد تيقنت مع أنى متجنب للردى أن الحصون المانعة منه هي الخيل وآلات الحرب لا البناء ، كالقلاع التي في القرى. وأتى بقوله «على تجنبى الردى» لدفع توهم أنه رجل يلقى بنفسه إلى التهلكة فلذلك يحب الحرب ، فهو من باب الاحتراس. ويروى : على توقى الردى - بتشديد الياء - أى : مع أنى أتوقى الهلاك.

قال رجل لعبيد الله بن الحسن : إن أبى أوصى بثلث ماله للحصون. قال : اذهب فاشتر به خيلا. قال : إنما ذكر الحصون. فقال : أما سمعت قول الأشعر ، فأنشد البيت.

(4). لم أجده هكذا ، وروى ابن سعد والطبراني وابن عدى من رواية سعيد بن سنان عن يزيد بن عبد الله ابن عريب عن أبيه عن جده. رفعه في قوله عز وجل وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ - الآية قال : هم الجن ، ولن يختل الشيطان إنسانا في داره فرس عتيق وأهله ابن عدى ، بسعيد بن سنان وضعفه عن أبى معين ، وغيره ، وله شاهد من رواية الوضين بن عطاء عن سليمان بن موسى مرسلا ، ولابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال : هو الشيطان ، لا يقرب ناصية فرس وإسناده واه. وقوله : «روى أن صهيل الخيل يطرد الجن» لم أجده.

[سورة الأنفال (8) : آية 61]

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61)

جنح له وإليه : إذا مال. والسلم تؤنث تأنيث نقيضها وهي الحرب قال :

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ «1»

وقرئ بفتح السين وكسرها. وعن ابن عباس رضى الله عنه أن الآية منسوخة بقوله تعالى قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وعن مجاهد بقوله فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الامام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم ، وليس بحتم أن يقاتلوا أبدا ، أو يجابوا إلى الهدنة أبداً. وقرأ الأشهب العقيلي. فاجنح بضم النون وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم ، فإنّ الله كافيك وعاصمك من مكرهم وخديعتهم. قال مجاهد ، يريد قريظة.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 62 إلى 63]

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)

فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ فإن محسبك الله : قال جرير :

إِنِّى وَجَدْتُ مِنَ الْمَكارِمِ حَسْبَكُمْ أَنْ تَلْبَسُوا خَزَّ الثِّيابِ وَتَشْبَعُوا «2»

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات الباهرة ، لأنّ العرب - لما فيهم من الحمية والعصبية ، والانطواء على الضغينة في أدنى شيء وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا - لا يكاد يأتلف منهم قلبان ، ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(1). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 252 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2) إنى وجدت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فإذا تذوكرت المكارم مرة في مجلس أنتم به فتقنعوا
لجرير ، أى : إنى وجدت كافيكم من المكارم ليس الخز من الثياب والشبع من الطعام والشراب ، وجعلهما من المكارم تهكما بهم. أو على زعمهم ، أو المعنى : مغنيكم عنها هاتان الخصلتان ، فمن للبدل ، أو المعنى : إن كان ذلك من المكارم فهو كافيكم لمبالغتكم فيه. ويروى : حر الثياب ، بمهملتين ، أى جيدها. وتذوكرت : مبنى للمجهول ، أى : فإذا تذاكر الناس بالمكارم ولو مرة واحدة فغطوا وجوهكم حياء كالنساء فلستم من المكارم في شيء.

واتحدوا ، وأنشؤا يرمون عن قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التحاب والتوادّ ، وأماط عنهم من التباغض والتماقت ، وكلفهم من الحب في الله والبغض في الله ، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو يقلبها كما شاء ، ويصنع فيها ما أراد ، وقيل : هم الأوس والخزرج ، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم ودق جماجمهم ، ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى ، وبينهما التجاور الذي يهيج الضغائن ويديم التحاسد والتنافس ، وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ما آثرته أختها وتكرهه وتنفر عنه ، فأنساهم الله تعالى ذلك كله حتى اتفقوا على الطاعة وتصافوا وصاروا أنصاراً وعادوا أعواناً ، وما ذاك إلا بلطيف صنعه وبليغ قدرته.

[سورة الأنفال (8) : آية 64]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64)

وَمَنِ اتَّبَعَكَ الواو بمعنى مع وما بعده منصوب ، تقول : حسبك وزيداً درهم ، ولا تجرّ ، لأنّ عطف الظاهر المجرور على المكنى ممتنع قال :

فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكَ عَضْبٌ مُهَنَّدُ «1»
والمعنى : كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصراً أو يكون في محل الرفع : أى كفاك الله وكفاك المؤمنون ، وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال ، وعن ابن عباس رضى الله عنه نزلت في إسلام عمر رضى الله عنه ، وعن سعيد بن جبير أنه أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر ، فنزلت.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 65 إلى 66]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (65) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)

(1) إذا كانت الهيجاء واشتقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند
يقول : إذا وجدت الحرب وافترقت العصبة ووقع الخلاف وظهر الشر فيكفيك مع الضحاك سيف مطبق من حديد الهند ، فانشقاق العصا تمثيل لوقوع الخلاف وظهور الشر. وحسب : اسم فعل بمعنى يكفى. والكاف مفعوله.
والضحاك مفعول معه. وسيف فاعله. والجمهور على أنه صفة مشبهة بمعنى كافى مبتدأ ، والكاف مضاف إليه.
وسيف خبره. والضحاك مفعول لمحذوف ، أى يكفى لأن الصفة المشبهة لا تنصب المفعول معه. وروى الضحاك بالجر ، أى : وحسب الضحاك ، وبالرفع على إنابته مناب «حسب» المحذوف. والواو للمعية على الأول ، والعطف على غيره ويروى : عضب مهند. والعضب : السيف القاطع. [.....]

التحريض : المبالغة في الحث على الأمر من الحرض ، وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت ، أو أن تسميه حرضا : وتقول له : ما أراك إلا حرضاً في هذا الأمر وممرضاً فيه ، ليهيجه ويحرّك منه. ويقال : حركه وحرضه وحرصه وحرشه وحربه ، بمعنى ، وقرئ حرص ، بالصاد غير المعجمة ، حكاها الأخفش ، من الحرص ، وهذه عدة من اللّه وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون اللّه تعالى وتأييده ، ثم قال بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ أى بسبب أنَّ الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم ، فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم باللّه نصرته ويستحقون خذلانه ، خلاف من يقاتل على بصيرة ومعه ما يستوجب به النصر والإظهار من اللّه تعالى. وعن ابن جريج كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد منهم للعشرة ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعث حمزة رضى اللّه عنه في ثلاثين راكباً ، فلقى أبا جهل في ثلاثمائة راكب. قيل : ثم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه ، وذلك بعد مدّة طويلة ، فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين ، وقيل : كان فيهم قلة في الابتداء ، ثم لما كثروا بعد نزل التخفيف. وقرئ : ضعفاً ، بالفتح والضم ، كالمكث والمكث ، والفقر والفقر. وضعفاً : جمع ضعيف. وقرئ الفعل المسند إلى المائة بالتاء والياء في الموضعين ، والمراد بالضعف : الضعف في البدن. وقيل : في البصيرة والاستقامة في الدين ، وكانوا متفاوتين في ذلك فإن قلت : لم كرّر المعنى الواحد وهو مقاومة الجماعة لأكثر منها مرّتين قبل التخفيف وبعده؟ قلت : للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت ، لأن الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف ، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 67 إلى 68]

ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (68)

وقرئ : للنبي ، على التعريف. وأسارى. ويثخن ، بالتشديد. ومعنى الإثخان : كثرة القتل والمبالغة فيه ، من قولهم : أثخنته الجراحات إذا أثبتته حتى تثقل عليه الحركة. وأثخنه المرض إذا أثقله من الثخانة التي هي الغلظ والكثافة ، يعنى حتى يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل في أهله ، ويعز الإسلام ويقويه بالاستيلاء والقهر. ثم الأسر بعد ذلك. ومعنى ما كانَ ما صح له وما استقام ، وكان هذا يوم بدر ، فلما كثر المسلمون نزل فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً وروى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أتى بسبعين أسيراً فيهم العباس عمه وعقيل بن أبى طالب ، فاستشار أبا بكر رضى اللّه عنه فيهم «1» فقال : قومك وأهلك استبقهم لعلّ اللّه أن يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك. وقال عمر رضى اللّه عنه : كذبوك وأخرجوك فقدّمهم واضرب أعناقهم ، فإنّ هؤلاء أئمة الكفر ، وإن اللّه أغناك عن الفداء : مكن علياً من عقيل ، وحمزة من العباس ، ومكنى من فلان لنسيب له ، فلنضرب أعناقهم. فقال صلى اللّه عليه وسلم : إنّ اللّه ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن اللّه ليشدّد قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة ، وإنّ مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ومثلك يا عمر مثل نوح ، قال رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً ثم قال لأصحابه : أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق. وروى أنه قال لهم : إن شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم فاديتموهم ، واستشهد منكم بعدّتهم ، فقالوا : بل نأخذ الفداء ، فاستشهدوا «2» بأحد : وكان فداء الأسارى عشرين أوقية ، وفداء العباس أربعين أوقية. وعن محمد بن سيرين : كان فداؤهم مائة أوقية ، والأوقية أربعون درهما وستة دنانير «3».

(1). أخرجه مسلم عن ابن عباس عن عمر في حديث طويل ، وقد تقدم طرف منه في أوائل السورة ، وفي الباب عن أبى عبيدة بن عبد اللّه بن مسعود عن أبيه كما سيأتى قريبا.
(2). قوله «و روى أنه قال لهم : إن شئتم قتلتم وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم : فقالوا : بلى. نأخذ الفداء فاستشهدوا بأحد» أخرجه الطبري من طريق أشعث بن سوار عن محمد بن سيرين عن عبيدة هو ابن عمرو قال «أسر المسلمون من المشركين سبعين وقتلوا سبعين ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم اختاروا أن تأخذوا منهم الفداء ، فتتقووا به على عدوكم ويقتل منكم سبعين ، أو تقتلوهم ، فقالوا : بل نأخذ الفدية منهم ويقتل منا سبعون ، قال فأخذوا منهم الفدية ، وقتل سبعون ورواه ابن مردويه موصولا من طريق ابن عون. عن ابن سيرين عن عبيدة عن على وزاد فيه : قال «و كان آخر السبعين ثابت بن قيس بن شماس» وروى الواقدي في المغازي من طريق يحيى ابن أبى كثير. عن على. قال «أتى جبريل النبي صلى اللّه عليه وسلم يوم بدر فخيره في الأسرى. أن يضرب أعناقهم.
أو يأخذ منهم الفداء ويستشهد منكم في قابل عدتهم. الحديث مع ضعفه وهو منقطع.
(3). قوله «و كان فداء الأسارى عشرين أوقية وفداء العباس أربعين أوقية والأوقية أربعون درهما وستة دنانير» أما كون الفداء كان عشرين أوقية. فروى الطبري من طريق عبيدة بن عمر قال «كان فداء أسارى بدر مائة أوقية والأوقية أربعون درهما ومن الدنانير ستة دنانير. وأما فداء العباس رضى اللّه عنه. فروى ابن مردويه من طريق على وابن عباس ، قال كان العباس يوم بدر أسيرا فافتدى نفسه بأربعين أوقية ذهب» وروى ابن مردويه. من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال «لما كان يوم بدر أسر سبعون فجعل عليهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أربعين أوقية ذهبا وجعل على عمه العباس مائة أوقية : وعلى عقيل ثمانين ، فقال القرابة صنعت هذا. الحديث.

وروى أنهم لما أخذوا الفداء نزلت الآية ، فدخل عمر على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان «1» فقال : يا رسول اللّه أخبرنى ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت ، فقال : أبكى على أصحابك في أخذهم الفداء ، ولقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه - وروى أنه قال: لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمرو سعد بن معاذ ، رضى اللّه عنهما ، لقوله كان الإثخان في القتل أحب إلىّ «2» عَرَضَ الدُّنْيا حطامها ، سمى بذلك لأنه حدث قليل اللبث ، يريد الفداء وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ يعنى ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل. وقرئ : يريدون ، بالياء. وقرأ بعضهم واللّه يريد الآخرة ، بجرّ الآخرة على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على حاله ، كقوله : أَكُلَّ امْرِىءٍ تَحْسَبِينَ امْرَأً وَنَارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارَا «3»

ومعناه واللّه يريد عرض الآخرة. على التقابل ، يعنى ثوابها وَاللَّهُ عَزِيزٌ يغلب أولياءه على أعدائه ويتكنون منهم قتلا وأسراً ويطلق لهم الفداء ، ولكنه حَكِيمٌ يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا وهم يعجلون لَوْلا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لولا حكم منه سبق إثباته في اللوح وهو أنه لا يعاقب أحد بخطإ ، وكان هذا خطأ في الاجتهاد ، لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم وتوبتهم ، وأنّ فداءهم يتقوّى به على الجهاد في سبيل اللّه ، وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم وأفل لشوكتهم. وقيل كتابه أنه سيحل لهم الفدية التي أخذوها. وقيل : إن أهل بدر مغفور لهم. وقيل : إنه لا يعذب قوماً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهى ، ولم يتقدم نهى عن ذلك فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ روى أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدّوا أيديهم إليها ، فنزلت.

(1). أخرجه أحمد والطبري. من رواية الأعمش عن عمر بن سمرة عن أبى عبيدة عن عبد اللّه فذكره مطولا.
(2). أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق قال «لم يكن أحد من المؤمنين ممن حضر بدراً إلا أحب الغنائم غير عمر بن الخطاب فانه جعل لا يلقى أسيرا إلا ضرب عنقه وقال سعد بن معاذ : يا رسول اللّه الإثخان في القتل أحب إلى من استبقاء الرجال فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «لو نزل من السماء عذاب لما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ» ورواه الواقدي في المغازي من وجه آخر منقطع بمعناه. وروى ابن مردويه من حديث ابن عمر رفعه «لو نزل العذاب. ما أفلت منه إلا ابن الخطاب».
(3). لأبى دواد. وقيل لحارثة بن حمران الأيادي ، وهو من أبيات الكتاب. والهمزة للاستفهام الإنكاري ، يخاطب امرأة ، أو نفسه ، أى : لا تحسبي أن كل رجل رجل كامل ، ولا تحسبي أن كل نار تتوقد في الليل نار متوقدة لقرى الضيفان ، يعنى أن الرجل هو الكريم الشجاع ، والنار هي نار القرى لا غير. وحذف المضاف مع بقاء المضاف إليه على حالة الاضافة مطرد ، إذا عطف على مثله ليدل عليه كما هنا ، وإلا فهو سماعي ، بل مطرد عند الكوفيين ولو بغير عطف. ونار مجرور بمضاف محذوف ، ولا يصح عطفه على امرئ. وعطف المنصوب على المنصوب لئلا يلزم العطف على معمولى عاملين مختلفين ، وهما «كل» و«تحسبين» وهو ممنوع عند سيبويه ومن وافقه.

وقيل : هو إباحة للفداء ، لأنه من جملة الغنائم وَاتَّقُوا اللَّهَ فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه.

[سورة الأنفال (8) : آية 69]

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69)

فإن قلت : ما معنى الفاء؟ قلت : التسبيب والسبب محذوف ، معناه : قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم. وحلالا : نصب على الحال من المغنوم ، أو صفة للمصدر ، أى أكلا حلالا. وقوله إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ معناه أنكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه ، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم.

[سورة الأنفال (8) : آية 70]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70)

فِي أَيْدِيكُمْ في ملكتكم ، كأن أيديكم قابضة عليهم. وقرئ : من الأسرى فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً خلوص إيمان وصحة نية يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ من الفداء ، إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه ، أو يثيبكم في الآخرة. وفي قراءة الأعمش : يثبكم خيراً. وعن العباس رضى اللّه عنه أنه قال : كنت مسلماً ، لكنهم استكرهوني. فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إن يكن ما تذكره حقا فاللّه يجزيك» فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا «1» وكان أحد الذين ضمنوا إطعام أهل بدر وخرج بالذهب لذلك. وروى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال للعباس : «افد ابني أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث ، فقال : يا محمد ، تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت. فقال له : فأين الذهب الذي دفعته إلى أمّ الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها : لا أدرى ما يصيبني في وجهى هذا ، فإن حدث بى حدث فهو لك ولعبد اللّه وعبيد اللّه والفضل ، فقال العباس وما يدريك؟ قال «أخبرنى به ربى» قال العباس : فأنا أشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا اللّه وأنك عبده ورسوله ، واللّه لم يطلع عليه أحد إلا اللّه ، ولقد دفعته إليها في سواد الليل ، ولقد كنت مرتاباً في أمرك ، فأمّا إذ أخبرتنى بذلك فلا ريب. قال العباس رضى اللّه عنه : فأبدلنى اللّه خيراً من ذلك ، لي الآن عشرون عبداً ، إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً ، وأعطانى زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة ، وأنا أنتظر المغفرة من ربى «2». وروى أنه قدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مال البحرين ثمانون ألفاً ،

(1). أخرجه ابن إسحاق في المغازي ، والحاكم من طريقه - حدثني يحيى بن عباد عن أبيه عن عائشة قالت : لما بعث أهل مكة في فداء أسرهم وبعثت زينب في فداء أبى العاص قال العباس يا رسول اللّه إنى كنت مسلما. فذكره

(2). هو الذي قبله بتمامه بالإسناد المذكور. ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريق إسحاق : حدثني بعض أصحابنا عن مقسم عن ابن عباس. بمعناه مطولا. ورواه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بمعناه ، وفيه محمد بن حميد الرازي ، وهو ضعيف ، وقوله «و كان العباس أحد الذين ضمنوا إطعام بدر ، وخرج بالذهب لذلك» لم أجد هذا.

فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه ، وأمر العباس أن يأخذ منه ما قدر على حمله ، وكان يقول : هذا خير مما أخذ منى وأرجو المغفرة «1» وقرأ الحسن وشيبة : مما أخذ منكم ، على البناء للفاعل.

[سورة الأنفال (8) : آية 71]

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71)

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ نكث ما بايعوك عليه من الإسلام والردّة واستحباب دين آبائهم فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم إن أعادوا الخيانة. وقيل : المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء.

[سورة الأنفال (8) : آية 72]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72)

الذين هاجروا : أى فارقوا أوطانهم وقومهم حبا للّه ورسوله : هم المهاجرون. والذين آووهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم : هم الأنصار بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ أى يتولى بعضهم بعضاً في الميراث ، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون ذوى القرابات ، حتى نسخ ذلك بقوله تعالى وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ وقرئ : من ولايتهم ، بالفتح والكسر ، أى من توليهم في الميراث. ووجه الكسر أن تولى بعضهم بعضا شبه بالعمل والصناعة ، كأنه بتوليه صاحبه يزاول أمراً ويباشر عملا فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ

فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين إِلَّا عَلى قَوْمٍ منهم بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عهد فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم لأنهم لا يبتدؤون بالقتال ، إذ الميثاق مانع من ذلك.

[سورة الأنفال (8) : آية 73]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ (73)

(1). أخرجه الطبري حدثنا بشرين بن معاذ حدثنا يزيد. حدثنا سعد بن أبى عروبة. عن قتادة هكذا. وروى الحاكم في فضائل العباس من طريق سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال. عن أبى موسى «أن العلاء بن الحضرمي بعث إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من البحرين بثمانين ألفا فأمر بها فنثرت على الحصير ونودي بالصلاة ... الحديث»

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ظاهره إثبات الموالاة بينهم كقوله تعالى في المسلمين أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ومعناه : نهى المسلمين عن موالاة الذين كفروا ومواريثهم وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم وإن كانوا أقارب ، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضا ثم قال : إِلَّا تَفْعَلُوهُ أى إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضاً حتى في التوارث ، تفضيلا لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار.

ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة ، لأنّ المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك ، كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً. وقرئ كثير بالثاء.

[سورة الأنفال (8) : الآيات 74 إلى 75]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75)

أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه ، بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والانسلاخ من المال لأجل الدين ، وليس بتكرار لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم «1» مع الموعد الكريم ، والأولى للأمر بالتواصل وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة ، كقوله وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ ألحقهم بهم وجعلهم منهم تفضلا منه وترغيبا وَأُولُوا الْأَرْحامِ أولو القرابات أو أولى بالتوارث ، وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة فِي كِتابِ اللَّهِ تعالى في حكمه وقسمتَه. وقيل في اللوح. وقيل في القرآن ، وهو آية المواريث وقد استدل به أصحاب أبى حنيفة رحمه اللّه على توريث ذوى الأرحام.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة ، وشاهد أنه بريء من النفاق وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة ، وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته في الدنيا» «2»

(1). قوله «و الشهادة لهم» لعله : والشهادة لهم بالايمان. (ع)
(2). ذكرت أسانيده في تفسير آل عمران.

سورة التوبة

(مدنية [إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان] وآياتها 130 وقيل 129 [نزلت بعد المائدة]) لها عدة أسماء : براءة ، التوبة ، المقشقشة ، المبعثرة ، المشردة ، المخزية ، الفاضحة ، المثيرة ، الحافرة ، المنكلة ، المدمدمة ، سورة العذاب ، لأنّ فيها التوبة على المؤمنين ، وهي تقشقش من النفاق أى تبرئ منه ، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث «1» عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشرد بهم وتخزيهم وتدمدم عليهم. وعن حذيفة رضى اللّه عنه : إنكم تسمونها سورة التوبة ، وإنما هي سورة العذاب ، واللّه ما تركت أحداً إلا نالت منه. فإن قلت : هلا صدرت بآية التسمية كما في سائر السور؟ قلت : سأل عن ذلك عبد اللّه بن عباس عثمان رضى اللّه عنهما فقال : إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا نزلت عليه السورة أو الآية قال : اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا ، وتوفى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولم يبين لنا أين نضعها ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، «2» فلذلك قرنت بينهما ، وكانتا تدعيان القرينتين «3». وعن أبى كعب : إنما توهموا ذلك ، لأنّ في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود. وسئل ابن عيينة رضى اللّه عنه فقال : اسم اللّه سلام وأمان ، فلا يكتب في النبذ والمحاربة ، قال تعالى وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً قيل : فإنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم قد كتب إلى أهل الحرب : بسم اللّه الرحمن الرحيم. قال : إنما ذلك ابتداء يدعوهم ولم ينبذ إليهم ، ألا تراه يقول وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى «4» فمن دعى إلى اللّه عزّ وجلّ فأجاب ودعى «5» إلى الجزية فأجاب فقد اتبع الهدى ، وأمّا النبذ فإنما هو البراءة واللعنة ،

(1). قوله «تبحث» لعله أى تبحث. (ع)
(2). قوله «شبيهة بقصتها» هذا الضمير للأنفال ، بدليل التشبيه ، وإن لم يجر لها ذكر هنا. وعبارة الخازن ولم يبين لنا أين نضعها ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت التوبة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها ... الخ. (ع)
(3). أخرجه أصحاب السنن ، وابن حبان وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والبزار. من طريق يوسف بن مهران.
ويزيد الفارسي. عن ابن عباس. قال «سألت عثمان بن عفان ، ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين ، فقرنتم بينهما فذكر الحديث بطوله سوى قوله وكانتا تدعيان القرينتين ، فلم يذكرها إلا إسحاق [.....]
(4). هو في حديث ابن عباس الطويل عن أبى سفيان. وهو متفق عليه. وفيه فقرأ الكتاب فإذا فيه بسم اللّه الرحمن الرحيم. من محمد رسول اللّه إلى هر قل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. الحديث.
(5). قوله «و دعى» لعله : أو دعى. (ع)

وأهل الحرب لا يسلم عليهم ، ولا يقال : لا تفرق ولا تخف ، ومترس «1» ولا بأس : هذا أمان كله. وقيل : سورة الأنفال والتوبة سورة واحدة ، كلتاهما نزلت في القتال ، تعدّان السابعة من الطول «2» وهي سبع وما بعدها المئون ، وهذا قول ظاهر ، لأنهما معاً مائتان وست ، فهما بمنزلة إحدى الطول. وقد اختلف أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال بعضهم : الأنفال وبراءة سورة واحدة. وقال بعضهم : هما سورتان ، فتركت بينهما فرجة لقول من قال : هما سورتان ، وتركت بسم اللّه الرحمن الرحيم لقول من قال : هما سورة واحدة.

[سورة التوبة (9) : الآيات 1 إلى 2]

بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ (2)

بَراءَةٌ خبر مبتدإ محذوف أى هذه براءة ومِنَ لابتداء الغاية ، متعلق بمحذوف وليس بصلة ، كما في قولك : برئت من الدين. والمعنى : هذه براءة واصلة من اللّه ورسوله إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ كما يقال : كتاب من فلان إلى فلان. ويجوز أن يكون بَراءَةٌ مبتدأ لتخصيصها بصفتها ، والخبر إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ كما تقول : رجل من بنى تميم في الدار. وقرئ «براءة» بالنصب ، على : اسمعوا براءة. وقرأ أهل نجران «من الله» بكسر النون ، والوجه الفتح مع لام التعريف لكثرته. والمعنى أن اللّه ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين وأنه «3» منبوذ إليهم. فإن قلت : لم علقت البراءة باللّه ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟ قلت : قد أذن اللّه في معاهدة المشركين أوّلا فاتفق المسلمون مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعاهدوهم ، فلما نقضوا العهد أوجب اللّه تعالى النبذ إليهم ،

(1). قوله «و مترس» بفتح الميم والتاء وسكون الراء : فارسى ، معناه : أمان. (ع)
(2). قوله «من الطول» الطول - بكسر ففتح - بمعنى الطويلة. أفاده الصحاح. وعبارة غيره : الطوال.
(3). قال محمود معناه : «أن اللّه ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين ... الخ» قال أحمد :

ورواه ما ذكره سر آخر هو المرعي ، والله أعلم. وذلك أن نسبة العهد إلى الله ورسوله في مقام نسب إليه النبذ من المشركين ، لا تحسن شرعا. ألا ترى إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمراء السرايا حيث يقول لهم : وإذا نزلت بحصن فطلبوا التزول على حكم الله فأنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى أصادفت حكم الله فيهم أولا؟ وإن طلبوا ذمة الله فأنزلهم على ذمتك ، فلأن تخفر ذمتك خير من أن تخفر ذمة الله. فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام بتوقير ذمة الله مخافة أن تخفر وإن كان لم يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع ، فتوقير عهد الله وقد تحقق من المشركين النكث ، وقد تبرأ من الله ورسوله بأن لا ينسب العهد المنبوذ إلى الله أحرى وأجدر ، فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه ، والله أعلم»

فخوطب المسلمون بما نجدّد من ذلك فقيل لهم : اعلموا أنّ الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين. وروى أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب ، فنكثوا إلا ناساً منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فبذ العهد إلى الناكثين ، وأمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاءوا لا يتعرّض لهم ، وهي الأشهر الحرم في قوله فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها ، وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان ، وكان الأمير فيها عتاب بن أسيد ، فأمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه على موسم سنة تسع ، ثم أتبعه علياً رضى الله عنه راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم ، فقيل له : لو بعثت بها إلى أبى بكر رضى الله عنه؟ فقال : لا يؤدى عنى إلا رجل منى ، فلما دنا علىّ سمع أبو بكر الرغاء ، فوقف ، وقال : هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما لحقه قال : أمير أو مأمور؟ قال : مأمور. وروى أنّ أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، لا يبلغنّ رسالتك إلا رجل منك ، فأرسل علياً ، فرجع أبو بكر رضى الله عنهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أشىء نزل من السماء قال : نعم ، فسر وأنت على الموسم ، وعلىّ ينادى بالآى. فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضى الله عنه وحدثهم عن مناسكهم ، وقام على رضى الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال : يا أيها الناس ، إنى رسول رسول الله إليكم. فقالوا : بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية «1». وعن مجاهد رضى الله عنه ثلاث عشرة آية ، ثم قال : أمرت بأربع : أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة ،

(1). «قلت» هذا ملفق من مواضع. فصدره مذكور في مغازي ابن إسحاق. وقوله «و هم بنو ضمرة وبنو كنانة أى الذين نكثوا إلا من استثنى منهم كما يفهم من ظاهره. وسيأتى بيان ذلك قريبا بعد أحاديث. وذلك أن العهد كان في سنة ست والنكث ونزولها والفتح في سنة ثمان كما سيأتى بعد قليل : أن المدة التي بلا نكث كانت ثمانية عشر شهرا. فعلى هذا كان أول النكث. في شهر ربيع الآخر سنة ثمان هذا هو التحقيق في النقل ، وأما قوله «و كان الأمير بها أى في سنة ثمان على مكة وعلى الحج. فهذا ذكره الواقدي في المغازي. وأما قوله «فأمر أبو بكر على موسم سنة تسع إلى آخره» فهو في الصحيح من حديث أبى هريرة بمعناه. وأما قوله وأتبعه عليا فرواه أحمد ، وأبو يعلى من رواية أبى إسحاق عن يزيد بن منيع عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه «أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه ببراءة إلى أهل مكة. فذكر الحديث وفيه فسار ثلاثا ثم قال لعلى الحقه ورد على أبا بكر وبلغها قال ففعل ، فلما قدم أبو بكر بكى وقال يا رسول الله حدث في شي ء؟ قال : ما حدث فيك إلا خير. لكنني أمرت أن لا يبلغ إلا أنا أو رجل منى» وفي المستدرك من طريق جميع بن عمير «أتيت ابن عمر فسألته عن على فانتهرنى ثم قال ، ألا أحدثك عن على إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر وعمر ببراءة إلى أهل مكة فانطلقا فإذا هما براكب فقالا من هذا؟
فقال : أنا على بن أبى طالب فقال : يا أبا بكر هات الكتاب ، الحديث ، وروى.
«كذا بأحد الأصلين بياض قدر أسطر. وفي الأصل الآخر سقط الكلام ولم يترك بياضاً. اه مصححه»

وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده : فقالوا عند ذلك يا على ، أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا ، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف. وقيل : إنما أمر أن لا يبلغ عنه إلا رجل منه ، لأنّ العرب عادتها في نقض عهودها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها ، فلو تولاه أبو بكر رضى الله عنه لجاز أن يقولوا : هذا خلاف ما يعرف فينا من نقض العهود ، فأزيحت علتهم بتولية ذلك علياً رضى الله عنه. فإن قلت : الأشهر الأربعة ما هي؟ قلت : عن الزهري رضى الله عنه أنّ براءة نزلت في شوال ، فهي أربعة أشهر : شوّال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرّم ، وقيل هي عشرون من ذى الحجة ، والمحرّم ، وصفر ، وشهر ربيع الأوّل ، وعشر من شهر ربيع الآخر. وكانت حرما ، لأنهم أومنوا فيها وحرّم قتلهم وقتالهم. أو على التغليب ، لأنّ ذا الحجة والمحرّم منها. وقيل : لعشر من ذى القعدة إلى عشر من ربيع الأول ، لأنّ الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسيء الذي كان فيهم ، ثم صار في السنة الثانية من ذى الحجة. فإن قلت : ما وجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين في الأشهر الحرم وقد صانها الله تعالى عن ذلك؟ قلت : قالوا قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ لا تفوتونه وإن أمهلكم ، وهو مخزيكم : أى مذلكم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب.

[سورة التوبة (9) : آية 3]

وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (3)

وَأَذانٌ ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين ، ثم الجملة معطوفة على مثلها ، ولا وجه لقول من قال : إنه معطوف على براءة ، كما لا يقال : عمرو معطوف على زيد ، في قولك : زيد قائم ، وعمرو قاعد ، والأذان : بمعنى الإيذان وهو الإعلام ، كما أنّ الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. فإن قلت : أى فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية؟ قلت : تلك إخبار بثبوت البراءة. وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت. فإن قلت : لم علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس؟ قلت : لأنّ البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم ، وأمّا الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ يوم عرفة. وقيل : يوم النحر ، لأنّ فيه تمام الحج ومعظم أفعاله ، من الطواف. والنحر ، والحلق ، والرمي. وعن على رضى الله عنه : أن رجلا أخذ بلجام دابته فقال : ما الحج الأكبر؟ قال يومك هذا. خل عن دابتي «1». وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال «هذا يوم الحج الأكبر «2»» ووصف الحج بالأكبر لأنّ العمرة تسمى الحج الأصغر ، أو جعل الوقوف بعرفة هو الحج الأكبر لأنه معظم واجباته ، لأنه إذا فات فات الحج ، وكذلك إن أريد به يوم النحر ، لأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج - فهو الحج الأكبر. وعن الحسن رضى الله عنه : سمى يوم الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركين فيه وموافقته لأعياد أهل الكتاب ، ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده ، فعظم على قلب كل مؤمن وكافر. حذفت الباء التي هي صلة الأذان تخفيفاً. وقرئ «إن الله» بالكسر ، لأنّ الأذان في معنى القول وَرَسُولِهِ عطف على المنوي في بَرِيءٌ أو على محل «إن» المكسورة واسمها : وقرئ بالنصب ، عطفاً على اسم «إن» أو لأنّ الواو بمعنى مع : أى بريء معه منهم ، وبالجرّ على الجوار. وقيل : على القسم ، كقوله : لعمرك. ويحكى أن أعرابياً سمع رجلا يقرؤها فقال : إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه بريء ، فلببه الرجل إلى عمر ، فحكى الأعرابي قراءته ، فعندها أمر عمر رضى الله عنه بتعلم العربية «3» فَإِنْ تُبْتُمْ من الكفر والغدر فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ عن التوبة ، أو ثبتم على التولي والإعراض عن الإسلام والوفاء فاعلموا أنكم غير سابقين الله تعالى ولا فائتين أخذه وعقابه.

[سورة التوبة (9) : آية 4]

إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4)

فإن قلت : مم استثنى قوله إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ «4»؟ قلت : وجهه أن يكون مستثنى من قوله فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ لأن الكلام خطاب للمسلمين.

(1). أخرجه ابن أبى شيبة والطبري من رواية شعبة عن الحاكم عن يحيى بن الجزار عن على «أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاء رجل فأخذ بلجام دابته وسأله عن الحج الأكبر فقال : هو يومك هذا خل سبيلها
(2). أخرجه البخاري تعليقا وأبو داود والحاكم من رواية هشام بن الغاز عن نافع عن ابن عمر مطولا ورواه الطبراني والطبري وأبو نعيم في الحل؟؟؟؟ بية وابن أبى حاتم مختصراً من طريق سعيد بن عبد العزيز عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى الجمرة يوم النحر. وقال : هذا يوم الحج الأكبر» وفي الباب عن على رضى الله عنه ، أخرجه الترمذي مرفوعا وموقوفا. وعن ابن أبى أو في عند الطبراني. وعن ابن مسعود في تاريخ أصبهان لأبى نعيم في ترجمة عمر بن هارون.
(3). لم أجده بإسناده وذكره القرطبي في التذكرة عن ابن أبى مليكة قال «قدم أعرابى في زمن عمر فذكره أتم منه ، وزاد في آخره : وأمر بأبى الأسود ، فوضع النحو اه والمشهور أن الذي أمر أبا الأسود بوضع النحو على بن أبى طالب رضى الله عنه.
(4). قال محمود : «إن قلت مم هذا الاستثناء قلت وجهه أن يكون مستثنى ... الخ» قال أحمد : ويجوز أن يكون قوله فسيحوا خطابا من الله تعالى المشركين غير مضمر قبله القول ، ويكون الاستثناء على هذا من قوله إلى الذين عاهدتم ، كأنه قيل براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين لا الباقين على العهد ، فأتموا إليهم أيها المسلمون عهدهم ، ويكون فيه خروج من خطاب المسلمين في قوله إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ إلى خطاب المشركين في قوله فَسِيحُوا ثم التفات من التكلم إلى الغيبة بقوله : وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وأن الله وأصله واعلموا أنكم غير معجزي وأنى ، وفي هذا الالتفات بعد الالتفات الأول افتنان في أساليب البلاغة وتفخيم للشأن وتعظيم للأمر ثم يتلو هذا الالتفات العود إلى خطاب المسلمين بقوله : إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقصوكم فأتموا ، وكل هذا من حسنات الفصاحة وإنما بعث الزمخشري على تقدير القول قبل فَسِيحُوا مراعاة أن يطابق قوله فأتموا ، إذا المخاطب على هذا التقدير المسلمون أولا وثانيا ولا يكون فيه شيء من الالتفاتات المبنية على التأويل الذي ذكرناه ، وكلا الوجهين ممتاز بنوع من البلاغة وطرف من الفصاحة ، والله أعلم.

ومعناه : براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فقولوا لهم سيحوا ، إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقضوا فأتموا إليهم عهدهم والاستثناء بمعنى الاستدراك ، وكأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين ، ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا عليهم عهدهم ، ولا تجروهم مجراهم ، ولا تجعلوا الوفىَّ كالغادر إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ يعنى أنّ قضية التقوى أن لا يسوّى بين القبيلين فاتقوا الله في ذلك لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً لم يقتلوا منكم أحداً ولم يضروكم قط وَلَمْ يُظاهِرُوا ولم يعاونوا عَلَيْكُمْ عدوّا ، كما عدت بنو بكر على خزاعة عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظاهرتهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشد :

لَاهُمَّ إِنِّى نَاشِدٌ مُحَمَّدَا حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيكَ الأَتْلَدَا

إِن قُرَيْشا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا وَنَقَضُوا ذِمَامَكَ الْمُؤَكَّدَا

هُمْ بَيَّتُونَا بِالْحَطِيمِ هُجَّدَا وَقَتَلُونَا رُكَّعا وَسُجَّدَا «1»

(1) إن قريشا أخلفوك الموعدا وتقضوا ذمامك المؤكدا
وزعموا أن لست تنجي أحدا وهم أذل وأقل عدداً
هم بيتونا في الحطيم هجدا وقتلونا ركعا وسجدا
فانصر هداك اللّه نصراً اعتدا وادع عباد اللّه يأتوا مددا
فيهم رسول اللّه قد تجردا في فيلق كالبحر يجرى مزيدا
أبيض مثل الشمس يسمو صعدا إن شيم خطب وجهه تربدا
لعمرو بن سلام الخزاعي. لما خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من مكة أعانت قريش بنى بكر على حرب بنى خزاعة ، ففزع عمرو إليه بالمدينة وأنشده ذلك ، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم : لا نصرت إن لم أنصركم. و«لاهم» أصله اللهم ، خفف وأظهر في مقام الإضمار للدلالة على التعظيم والتهييج لما أراده. والحلف : العهد. والأتلد :
الأقدم. والتفت إلى الخطاب للاستعطاف. وجعله كالأب لهم لمراعاته مصالحهم. وعطف بثمة للترتيب في الاخبار ونزع إليه كناية عن نقض العهد. و«الذمام» العهد. وقيل : مع ذمة بمعنى العهد أيضا. وروى «ميثاقك».
وأذل ، وأقل ، بمعنى أذلاء قليلون ، فليس مفيدا للزيادة. ويجوز أنه على بابه بالنظر لزعمهم ، أى : أذل وأقل مما زعموا فيك وفي قومك. و«الحطيم» معروف ، كانوا في الجاهلية يحلفون فيه فيحطم الكاذب. ويروى «بالأتير» والأتير : الطريق ، وواحدة وتيرة. وهو هنا اسم ماء لخزاعة بأسفل مكة. و«الهجد» جمع هاجد ، وهو المتيقظ من النوم العبادة. و«العتيد» الحاضر ، يقال : عنده تعتيدا، وأعتده إعتاداً : هيأه وأحضره ، فهو عتيد وأعتد.
وفيه جعل اسم التفضيل بمعنى المفعول ، فلعله من عند إذا حضر. والأصل أعده إعداداً فأبدلت الدال تاء ، و«هداك اللّه» جملة اعتراضية دعائية. و«المدد» الزيادة : أى يأتوا زيادة لنا تعيننا على أعدائنا. وفي الاضافة إلى اللّه تهييج لهم. و«الفيلق» الجيش المزدحم المتكاثف. كالبحر في الكثرة وسرعة السير. و«المزيد» المخرج للرغوة من شدة السير والغليان. «يسمو» يعلو «صعداً» أى صعوداً. «إن شيم» أى رئي. وروى بالمهملة : أى أحق ، «تريد» أى تغير وصار مغيراً كلون الرماد. والغضب عند نزول المكروه أمارة الشجاعة. وهذا كان سبب فتح مكة.

فقال عليه الصلاة والسلام : لا نصرت إن لم أنصركم» «1» وقرئ : لم ينقضوكم ، بالضاد معجمة أى لم ينقضوا عهدكم. ومعنى فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ فأدّوه إليهم تامّاً كاملا. قال ابن عباس رضى اللّه عنه : بقي لحىّ من كنانة من عهدهم تسعة أشهر ، فأتمّ إليهم عهدهم.

[سورة التوبة (9) : آية 5]

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

انسلخ الشهر ، كقولك انجرد الشهر ، وسنة جرداء. والْأَشْهُرُ الْحُرُمُ التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ يعنى الذين نقضوكم وظاهروا عليكم حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ من حلّ أو حرم وَخُذُوهُمْ وأسروهم. والأخيذ : الأسير وَاحْصُرُوهُمْ وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : حصرهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام كُلَّ مَرْصَدٍ كلّ ممرّ ومجتاز «2» ترصدونهم به ، وانتصابه على الظرف كقوله لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ.

(1). أخرجه ابن إسحاق في المغازي والبيهقي في الدلائل من طريقة. قال حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالا «كان في صلح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم الحديبية ، فذكر القصة مطولة وفيها الشعر. وفيها فنكثوا في الهدنة نحو سبعة أو ثمانية عشر شهرا. وروى الطبراني من طريق على بن الحسين حدثتني ميمونة بنت الحارث قالت «كان بين النبي صلى اللّه عليه وسلم وبين قريش ، فذكرت القصة والشعر.
وأوردها الواقدي في المغازي مطولا من طرق ثم قال. حدثني عبد الحميد بن جعفر عن عمران بن أبى أنس عن ابن عباس. قال قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يجر طرف ردائه ويقول «يا عمرو لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسي».
(2). قال محمود : «المرصد المجاز والممر ... الخ» قال أحمد : ويكون انتصابه دون جره من الاتساع ، لأن المرصد ظرف مختص، والأصل قصور الفعل عن نصبه ، ويكون مثل قوله في الاتساع :
كما عسل الطريق الثعلب
ويحتمل - واللّه أعلم - أن يكون مرصد مصدراً ، لأن صيغة اسم الزمان والمكان والمصدر من فعلة واحدة ، فعلى هذا يكون منصوبا نصبا أصلياً ، لأن اقعدوا في معنى ارصدوا ، كأنه قيل : وارصدوهم كلّ مرصد ، إلا أن الظرفية يقويها قوله حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ فيقتضيها قصد المطابقة بين ظرفى المكان ، واللّه أعلم.

فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ فأطلقوا عنهم بعد الأسر والحصر. أو فكفوا عنهم ولا تتعرّضوا لهم كقوله : خَلِّ السَّبِيلَ لِمَنْ يَبْنِى الْمَنَارَ بِهِ «1»

وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : دعوهم وإتيان المسجد الحرام إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

[سورة التوبة (9) : آية 6]

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (6)

أَحَدٌ مرتفع بفعل الشرط مضمراً يفسره الظاهر ، تقديره : وإن استجارك أحد استجارك ولا يرتفع بالابتداء ، لأنّ «إن» من عوامل الفعل لا تدخل على غيره. والمعنى : وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق ، فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن ، وتبين «2» ما بعثت له فأمّنه حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ثُمَّ أَبْلِغْهُ بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم. ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة ، وهذا الحكم ثابت في كل وقت. وعن الحسن رضى اللّه عنه : هي محكمة إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير : جاء رجل من المشركين إلى علىّ رضى اللّه عنه فقال : إن أراد الرجل منا أن يأتى محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام اللّه ، أو يأتيه لحاجة قتل؟ قال : لا ، لأنّ اللّه تعالى يقول وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ ... الآية.

(1) خل السبيل لمن يبنى المنار به وابرز ببرزة حيث اضطرك القدر
قد خفت يا ابن التي ماتت منافقة من خبث بردة أن لا ينزل المطر
لجرير يهجو عمر بن لجأ التميمي. ويروى : خل الطريق. ومنار الطريق : حدوده. يقول له : اترك سبيل المعالي لمن يبنى الأعلام فيه ويقيم شعائره ويبين حدوده. شبه الخصال الحميدة بالطريق الجادة بجامع الوصول بكل إلى المراد وعدم الميل عن كل على سبيل التصريحية ، وبناء المنار ترشيح : والمراد به : إقامة الشعائر الجميلة وتحسين شأنها لتتبعها الناس. أو نصب دلائل على الكرم لتهتدى إليه العفاة. وببرزة هي أم عمر ، وقيل : الأرض الواسعة. وعليه فمنع صرفه ضرورة ، ولكن البيت الثاني يؤيد ما قلنا ، أى اخرج بأمك القبيحة إلى ما ألجأك إليه القدر الأزلى ، وهو ما انطبعت عليه من الخصال الخسيسة. والمراد بالأمر في الموضعين : بيان حاله التي هو عليها لا حقيقة الأمر. ويحتمل أن الأول أمر بترك التفاخر ، فتكون صورة الأمر الثاني للمشاكلة ، أو بمعنى طلب اعترافه بحال نفسه. وجعله النحويون من قبيل التحذير ومثلوا به لذكر عامل المحذر منه ، وهو يزيد على مجرد الأمر بالتخلية بأن بينه وبين ذلك السبيل منافرة حتى صح تحذيره منه. وخفت بضم التاء ، ولكن فتحها أبلغ في الهجو. وتكرير اسم برزة للتنكير والتعيير بها ، أى أنها شؤم على الناس يخاف منها الجدب. [.....]
(2). قوله «و تبين» لعله و«يتبين» عطفاً على يسمع. (ع)

وعن السدّى والضحاك رضى اللّه عنهما : هي منسوخة بقوله تعالى فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ. ذلِكَ أى ذلك الأمر ، يعنى الأمر بالإجارة في قوله فَأَجِرْهُ. بسبب بِأَنَّهُمْ قوم جهلة لا يَعْلَمُونَ ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه ، فلا بدّ من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق.

[سورة التوبة (9) : الآيات 7 إلى 8]

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (8)

كَيْفَ استفهام في معنى الاستنكار والاستبعاد ، لأن يكون للمشركين عهد عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهم أضداد وغرة صدورهم «1» ، يعنى : محال أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا في ذلك ولا تحدثوا به نفوسكم ولا تفكروا في قتلهم. ثم استدرك ذلك بقوله إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ أى ولكن الذين عاهدتم منهم عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ ولم يظهر منهم نكث كبني كنانة وبنى ضمرة ، فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ على العهد فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ على مثله إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ يعنى أن التربص بهم من أعمال المتقين كَيْفَ تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد «2» ، وحذف الفعل لكونه معلوماً كما قال :

وَخَبَّرْتُمَانِى أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَى فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَة وَقَلِيبُ «3»

يريد : فكيف مات ، أى : كيف يكون لهم عهد وَحالهم أنهم إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق ،

(1). قوله «و غرة صدورهم» أى ملتهبة من الغيظ. (ع)
(2). قال محمود : «كيف تكرار لاستبعاد ثبات ... الخ» قال أحمد السر في تكرار كيف - والله أعلم - أنه لما ذكره أولا لاستبعاد ثبات عهدهم عند الله ولم يذكر إذ ذاك سبب البعد للغاية باستثناء الباقين على العهد وطال الكلام ، أعيدت «كيف» تطرية للذكر ، وليأخذ بعض الكلام بحجزة بعض ، فلم يقصد مجرد التكرار ، بل هذا السر الذي انطوى عليه ، وقد تقدمت له أمثال ، والله الموفق.
(3) لعمر أبى إن البعيد الذي مضى وإن الذي يأتى غداً لقريب
وخبرتمانى أنما الموت بالقرى فكيف وهاتا هضبة وقليب
لكعب الغنوي في مرثية أخيه. و«الهضبة» الصخرة العظيمة. وجعل الخطاب لاثنين على عادة العرب ولو لم يوجدا. وإنما بالكسر على الحكاية ، أو بالفتح على المفعولية : أى وأخبرتمانى أن الموت والوباء في القرى فقط ، فكيف تدعيان ذلك وقد مات أخى في هذه البرية. أو كيف مات أخى فيها. والقليب : البئر لأنه قلب ترابه من بطن الأرض إلى ظهرها. وهاتا : إشارة للبرية. ويجوز أنها للهضبة : أى وهذا قليب.

لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقوا عليكم لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا لا يراعوا حلفاً. وقيل : قرابة. وأنشد لحسان رضى الله عنه :

لَعَمْرُكَ إنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْش كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأَلِ النَّعَامِ «1»

وقيل إِلًّا إلها. وقرئ : إيلا ، بمعناه. وقيل : جبرئيل ، وجبرئيل ، من ذلك. وقيل : منه اشتق الآل بمعنى القرابة، كما اشتقت الرحم من الرحمن ، والوجه أن اشتقاق الإلّ بمعنى الحلف ، لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه ، من الأول وهو الجؤار ، وله أليل : أى أنين يرفع به صوته. ودعت ألليها : إذا ولولت «2» ، ثم قيل لكل عهد وميثاق : إلّ. وسميت به القرابة ، لأن القرابة عقدت بين الرجلين مالا يعقده الميثاق يُرْضُونَكُمْ كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن ، مقرّر لاستبعاد الثبات منهم على العهد. وإباء القلوب مخالفة ما فيها من الأضغان ، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ متمرّدون خلعاء لا مروءة تزعهم «3» ، ولا شمائل مرضية تردعهم ، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة ، من التفادى عن الكذب والنكث ، والتعفف عما يثلم العرض ويجرّ أحدوثة السوء.

[سورة التوبة (9) : الآيات 9 إلى 10]

اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (9) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10)

اشْتَرَوْا استبدلوا بِآياتِ اللَّهِ بالقرآن والإسلام ثَمَناً قَلِيلًا وهو اتباع الأهواء والشهوات فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم. وقيل : هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم هُمُ الْمُعْتَدُونَ المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة.

[سورة التوبة (9) : آية 11]

فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11)

(1). لحسان بن ثابت. والال - بالكسر - الحلف والعهد والقرابة. والسقب : حوار الناقة. والرأل : ولد النعام. يقول : وحياتك إن قرابتك من قريش بعيدة أو معدومة ، كقرابة ولد الناقة من ولد النعام. ويروى :
كآل السيف. والوجه أنه تحريف.
(2). قوله «و دعت اليها إذا ولولت» في الصحاح : وأما قول الكميت يمدح رجلا :
وأنت ما أنت في غبراء مظلمة إذا دعت ألليها الكاعب الفضل
فيجوز أن يريد الألل ، ثم ثنى كأنه يريد صوتا بعد صوت. اه (ع)
(3). قوله «لا مروءة تزعهم» أى تكفهم. اه صحاح (ع)

فَإِنْ تابُوا عن الكفر ونقض العهد فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ فهم إخوانكم على حذف المبتدإ ، كقوله تعالى فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ. وَنُفَصِّلُ الْآياتِ ونبينها. وهذا اعتراض ، كأنه قيل : وإن من تأمّل تفصيلها فهو العالم بعثاً وتحريضاً على تأمّل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين ، وعلى المحافظة عليها.

[سورة التوبة (9) : آية 12]

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12)

وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ وثلبوه وعابوه فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ فقاتلوهم ، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم : إشعاراً بأنهم إذا نكثوا في حال الشرك تمرّداً وطغيانا وطرحاً لعادات الكرام الأوفياء من العرب ، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخوانا للمسلمين في الدين ، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود ، وقعدوا يطعنون في دين اللّه ويقولون ليس دين محمد بشيء ، فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدّم فيه ، لا يشق كافر غبارهم. وقالوا : إذا طعن الدمى في دين الإسلام طعنا ظاهراً ، جاز قتله ، لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن ، فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمّة إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ جمع يمين. وقرئ : لا إيمان لهم ، أى لا إسلام لهم. أو لا يعطون الأمان بعد الردّة والنكث ، ولا سبيل إليه. فإن قلت : كيف أثبت لهم الأيمان في قوله وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ ثم نفاها عنهم؟

قلت : أراد أيمانهم التي أظهروها ثم قال : لا أيمان لهم على الحقيقة ، وأيمانهم ليست بأيمان. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه اللّه على أن يمين الكافر لا تكون يمينا. وعند الشافعي رحمه اللّه : يمينهم يمين. وقال : معناه أنهم لا يوفون بها ، بدليل أنه وصفها بالنكث لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ متعلق بقوله فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ أى ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم أن تكون المقاتلة سببا في انتهائهم عما هم عليه. وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد. فإن قلت : كيف لفظ أئمة؟ قلت : همزة بعدها همزة بين بين ، أى : بين مخرج الهمزة والياء «1». وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة ، وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين. وأما التصريح بالياء فليس بقراءة. ولا يجوز أن تكون قراءة. ومن صرح بها فهو لا حن محرف.

[سورة التوبة (9) : آية 13]

أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13)

(1). قوله «بين مخرج الهمزة والياء : لعله «مخرجي الهمزة والياء». (ع)

أَلا تُقاتِلُونَ دخلت الهمزة على لا تُقاتِلُونَ تقريراً بانتفاء المقاتلة. ومعناه : الحض عليها على سبيل المبالغة نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ التي حلفوها في المعاهدة وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ من مكة حين تشاوروا في أمره بدار الندوة ، حتى أذن اللّه تعالى له في الهجرة ، فخرج بنفسه وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أى : وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ، لأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جاءهم أولا بالكتاب المنير وتحداهم به ، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادءون بالقتال والبادئ أظلم ، فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله ، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم؟ وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها. ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب ، حقيق بأن لا تترك مصادمته ، وأن يوبخ من فرط فيها أَتَخْشَوْنَهُمْ تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ فتقاتلوا أعداءه إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ يعني أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يبالى بمن سواه ، كقوله تعالى وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ.

[سورة التوبة (9) : الآيات 14 إلى 15]

قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15)

لما وبخهم اللّه على ترك القتال ، جرّد لهم الأمر به فقال قاتِلُوهُمْ ووعدهم - ليثبت قلوبهم ويصحح نياتهم - أنه يعذبهم بأيديهم قتلا ، ويخزيهم أسراً ، ويوليهم النصر والغلبة عليهم وَيَشْفِ صُدُورَ طائفة «1» من المؤمنين ، وهم خزاعة ، قال ابن عباس رضى اللّه عنه : هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا ، فلقوا من أهلها أذى شديداً ، فيعثوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يشكون إليه ، فقال : أبشروا فإن الفرج قريب وَيُذْهِبْ غَيْظَ قلوبكم «2» لما لقيتم منهم من المكروه ، وقد حصل اللّه لهم هذه المواعيد كلها ، فكان ذلك دليلا على صدق

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وصحة نبوّته وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ ابتداء كلام ، وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره ، وكان ذلك أيضا ، فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم. وقرئ :

(1). قوله «و يشف صدور طائفة» هذا لفظ التلاوة ، والأنسب ويشفى ، عطفاً على يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ لأنه من جملة الوعد. (ع)
(2). قوله «و يذهب غيظ قلوبكم» التلاوة غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ولعل بعض الناسخين فهم أنه من البشرى ، فغيره بلفظ الخطاب. والمتجه غَيْظَ قُلُوبِهِمْ لما لقوا ، ثم قوله وَيُذْهِبْ بالرفع عطف على يعذبهم بأيديكم ، لأنه من جملة الوعد كما سيشير إليه. (ع)

ويتوب بالنصب بإضمار «أن» ودخول التوبة في جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى وَاللَّهُ عَلِيمٌ يعلم ما سيكون ، كما يعلم ما قد كان حَكِيمٌ لا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة.

[سورة التوبة (9) : آية 16]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (16)

أَمْ منقطعة ، ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على وجود الحسبان. والمعنى : أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه ، حتى يتبين الخلص منكم ، وهم الذين جاهدوا في سبيل اللّه لوجه اللّه ، ولم يتخذوا وليجة أى بطانة ، من الذين يضادّون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين رضوان اللّه عليهم وَلَمَّا معناها التوقع ، وقد دلت على أن تبين ذلك ، وإيضاحه متوقع كائن ، وأن الذين لم يخلصوا دينهم للّه يميز بينهم وبين المخلصين. وقوله وَلَمْ يَتَّخِذُوا معطوف على جاهدوا ، داخل في حيز الصلة ، كأنه قيل : ولما يعلم اللّه المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون اللّه.

والوليجة : فعيلة من ولج ، كالدخيلة من دخل. والمراد بنفي العلم نفى المعلوم ، كقول القائل. ما علم اللّه منى ما قيل فىّ ، يريد : ما وجد ذلك منى.

[سورة التوبة (9) : آية 17]

ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ(17)

ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ ما صح لهم وما استقام أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ يعنى المسجد الحرام ، لقوله وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان ، أحدهما : أن يراد المسجد الحرام ، وإنما قيل مساجد لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها ، فعامره كعامر جميع المساجد ، ولأن كل بقعة منه مسجد. والثاني : أن يراد جنس المساجد ، وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها ، دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس ومقدمته وهو آكد ، لأنّ طريقته طريقة الكناية ، كما لو قلت : فلان لا يقرأ كتب اللّه ، كنت أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك. وشاهِدِينَ حال من الواو في يَعْمُرُوا والمعنى : ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين : عمارة متعبدات اللّه ، مع الكفر باللّه وبعبادته. ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر : ظهور كفرهم وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت ، وكانوا يطوفون عراة ويقولون : لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي ، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها. وقيل : هو قولهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك. وقيل : قد أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر فعيروهم بالشرك ، فطفق علىّ ابن أبى طالب رضى اللّه عنه يوبخ العباس بقتال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقطيعة الرحم ، وأغلظ له في القول. فقال العباس : تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا. فقال : أو لكم محاسن؟ قالوا : نعم ونحن أفضل منكم أجراً : إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقي الحجيج ونفك العاني ، فنزلت حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ التي هي العمارة والحجابة والسقاية وفك العناة. وإذا هدم الكفر أو الكبيرة الأعمال «1» الثابتة الصحيحة إذا تعقبها ، فما ظنك بالمقارن. وإلى ذلك أشار في قوله شاهِدِينَ حيث جعله حالا عنهم ودل على أنهم قارنون بين العمارة والشهادة بالكفر على أنفسهم في حال واحدة ، وذلك محال غير مستقيم.

[سورة التوبة (9) : آية 18]

إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18)

إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ وقرئ بالتوحيد ، أى : إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتدا بها ، والعمارة تتناول رمّ ما استرمّ منها ، وقمها وتنظيفها ، وتنويرها بالمصابيح ، وتعظيمها ، واعتيادها للعبادة والذكر ، ومن الذكر درس العلم ، بل هو أجله وأعظمه ، وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا فضلا عن فضول الحديث. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «يأتى في آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقاعدون فيها حلقاً «2» ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم فليس للّه بهم حاجة «3»» وفي الحديث «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش «4»» وقال عليه السلام : «و قال اللّه تعالى : إن بيوتي في أرضى المساجد ، وإنّ زوّارى فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي ، فحق على المزور أن يكرم «5» زائره.

(1). قال محمود : «إذا هدم الكفر أو الكبيرة الأعمال ... الخ» قال أحمد : كلام صحيح إلا قوله «إن الكبيرة تهدم الأعمال ، فانه تفريع على قاعدة المعتزلة ، والحق خلافها.
(2). قوله «فيقاعدون فيها حلقا» في نسخة : فيعدون. وفي أخرى : فيغدون. وليحرر. (ع)
(3). أخرجه الطبراني من رواية أبى وائل عن ابن مسعود رفعه «سيكون في آخر الزمان قوم يجلسون في المساجد حلقا حلقا ، مناهم الدنيا لا تجالسوهم. فليس للّه فيهم حاجة» وفيه بديع أبو الخليل راويه عن الأعمش عنه.
وهو متروك وقال الدارقطني : إنه تفرد به ، وفيه نظر. فقد أخرجه ابن حبان في صحيحه من طريق عيسى بن يونس عن الأعمش بلفظ «سيكون في آخر الزمان قوم يكون حديثهم في مساجدهم ليس للّه فيهم حاجة» وفي الباب عن أنس رفعه «يأتى على الناس زمان يتحلقون في مساجدهم ، وليس همتهم إلا الدنيا لا تجالسوهم فليس للّه فيهم حاجة» أخرجه الحاكم من طريق الثوري عن عوف عن الحسن عنه.
(4). يأتى في لقمان. [.....]
(5). لم أجده هكذا وفي الطبراني عن سلمان عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء.
ثم أتى المسجد فهو زائر للّه ، وحق على المزور أن يكرم زائره» وروى عبد الرزاق ومن طريقه الطبري عن معمر عن ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون. قال «و كان أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقولون : إن بيوت اللّه في الأرض المساجد ، وإن حقا على اللّه أن يكرم من زاره فيها» ومن هذا الوجه. أخرجه عبد اللّه بن المبارك في الزهد.

وعنه عليه السلام «من ألف المسجد ألفه اللّه «1»» وقال عليه السلام «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان «2»» وعن أنس رضى اللّه عنه : من أسرج في مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه «3»». فإن قلت : هلا ذكر الإيمان برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ قلت : لما علم وشهر أن الإيمان باللّه تعالى قرينته الإيمان بالرسول عليه السلام لاشتمال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما مقترنين مزدوجين كأنهما شيء واحد غير منفك أحدهما عن صاحبه ، انطوى تحت ذكر الإيمان باللّه تعالى الإيمان بالرسول عليه السلام. وقيل : دلّ عليه بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. فان قلت : كيف قيل وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ والمؤمن يخشى المحاذير ولا يتمالك أن لا يخشاها؟ قلت : هي الخشية والتقوى في أبواب الدين ، وأن لا يختار على رضا اللّه رضا غيره لتوقع مخوف ، وإذا اعترضه أمران : أحدهما حق اللّه ، والآخر حق نفسه أن يخاف اللّه ، فيؤثر حق اللّه على حق نفسه. وقيل : كانوا يخشون الأصنام ويرجونها ، فأريد نفى تلك الخشية عنهم فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء «4» وحسم لأطماعهم من الانتفاع «5» بأعمالهم التي استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها ، بأن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشية والتقوى ، اهتداؤهم دائر بين عسى ولعل ، فما بال المشركين يقطعون أنهم مهتدون ونائلون عند اللّه الحسنى. وفي هذا الكلام ونحوه لطف للمؤمنين في ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاغترار باللّه تعالى.

[سورة التوبة (9) : آية 19]

أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19)

(1). أخرجه ابن عدى. والطبراني في الأوسط من رواية ابن لهيعة عن دراج بن الهيثم عن أبى سعيد به.
(2). أخرجه الترمذي وابن ماجة. وابن حبان. والحاكم من رواية أبى الهيثم عن أبي سعيد.
(3). رواه الحارث بن أسامة من رواية الحكم بن سفلة العبدى. عن أنس رضى اللّه عنه. من أسرج في مسجد سراجا لم يزل مرفوعا ومن طريق الحارث أخرجه سليم الرازي في كتاب الترغيب وفي الطبراني في مسند الشاميين من حديث على بن أبى طالب رفعه «من علق قنديلا في مسجد صلى عليه سبعون ألف ملك - الحديث بمعناه».
(4). قال محمود : «في هذه الآية تبعيد للمشركين ... الخ» قال أحمد : وأكثرهم يقول : إن «عسى» من اللّه واجبة بناء منهم على أن استعمالها غير مصروفة للمخاطبين ، والحق فيما قال الزمخشري ، ولكن الخطاب مصروف إليهم أى فحال هؤلاء المؤمنين حال مرجوة ، والعاقبة عند اللّه معلومة ، وللّه عاقبة الأمور.
(5). قوله «من الانتفاع» لعله «في» كعبارة النسفي. (ع)

السقاية والعمارة : مصدران من سقى وعمر ، كالصيانة والوقاية. ولا بد من مضاف محذوف تقديره أَجَعَلْتُمْ أهل سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وتصدقه قراءة ابن الزبير وأبى وجزة السعدي «1» - وكان من القراء - : سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام. والمعنى إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين ، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة ، وأن يسوى بينهم. وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر. وروى أن المشركين قالوا لليهود : نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام ، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت لهم اليهود : أنتم أفضل. وقيل : إن عليا رضي الله عنه قال للعباس : يا عمّ ألا تهاجرون ، ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال : ألست في أفضل من الهجرة : أسقى حاجّ بيت الله ، وأعمر المسجد الحرام ، فلما نزلت قال العباس : ما أرانى إلا تارك سقايتنا. فقال عليه السلام «أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيراً «2»

[سورة التوبة (9) : الآيات 20 إلى 22]

الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21) خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(22)

هم أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ من أهل السقاية والعمارة عندكم وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ لا أنتم والمختصون بالفوز دونكم. قرئ : يُبَشِّرُهُمْ بالتخفيف والتثقيل. وتنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرّف. وعن ابن عباس رضى الله عنه : هي في المهاجرين خاصة «3»

[سورة التوبة (9) : الآيات 23 إلى 24]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (24)

(1). قوله «و أبى وجزة السعدي» في الصحاح : أنه شاعر ومحدث. (ع)
(2). ذكره الثعلبي عن الحسن بغير إسناد لكن سنده إليه في أول الكتاب في تفسير عبد الرزاق عن معمر عن عمر ، وهو ابن عبيد عن الحسن قال «نزلت في على والعباس ، وعثمان وشيبة تكلموا في ذلك. فقال العباس : ما أرانى إلا تاركا سقايتنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فذكره.
(3). أخرجه الثعلبي من رواية جويبر عن الضحاك عنه.

وكان قبل فتح مكة من آمن لم يتمّ إيمانه إلا بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم. فقالوا يا رسول الله : إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا وخرجت ديارنا ، وبقينا ضائعين ، فنزلت ، فهاجروا ، فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ، ثم رخص لهم بعد ذلك. وقيل نزلت في التسعة الذين ارتدّوا ولحقوا بمكة «1» فنهى الله تعالى عن موالاتهم.

وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحبّ في الله ويبغض في الله : حتى يحب في الله أبعد الناس ، ويبغض في الله أقرب الناس إليه» «2». وقرئ : عشيرتكم ، وعشيراتكم.

وقرأ الحسن : وعشائركم فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وعيد. عن ابن عباس : هو فتح مكة. وعن الحسن : هم عقوبة عاجلة أو آجلة. وهذه آية شديدة لا ترى أشدّ منها ، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حبل اليقين ، فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرّد منها لأجله؟ أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته ، فلا يدرى أى طرفيه أطول؟ ويغويه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين ، فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره؟

[سورة التوبة (9) : الآيات 25 إلى 27]

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (26) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27)

(1). ذكره الثعلبي أيضا عن مقاتل ، وسنده إليه في أول الكتاب.
(2). لم أجده بهذا اللفظ وفي الطبراني عن عمرو بن الحمق أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول «لا يجد العبد صريح الايمان حتى يحب في اللّه ويبغض في اللّه ، وفي إسناده رشد بن سعد. وهو ضعيف ، وفي الباب عن أبى أمامة رواه أبو داود ، وعن معاذ بن أنس رواه أبو يعلى وغيره.

مواطن الحرب : مقاماتها ومواقفها «1» قال :

وَكَمْ مَوْطِنٍ لَوْلَايَ طُحْتَ كَمَا هَوَي بِأَجْرَامِهِ مِنْ قُلَّةِ النِّيقِ مُنْهَوِى «2»

(1). قال محمود : «مواطن الحرب مقاماتها ومواقفها ... الخ» قال أحمد : لا مانع - واللّه أعلم - من عطف الظرفين المكاني والزمانى أحدهما على الآخر ، كعطف أحد المفعولين على الآخر والفعل واحد ، إذ يجوز أن تقول ضرب زيد عمرا في المسجد ويوم الجمعة ، كما تقول : ضربت زيداً وعمرا ، ولا يحتاج إلى إضمار فعل جديد غير الأول ، هذا مع أنه لا بد من تغاير الفعلين الواقعين بالمفعولين في الحقيقة ، فإنك إذا قلت : أضرب زيدا اليوم وعمراً غداً ، لم يشك في أن الضربين متغايران بتغاير الظرفين ، ومع ذلك الفعل واحد في الصناعة. فعلى هذا يجوز في الآية - واللّه أعلم - بقاء كل واحد من الظرفين على حاله غير مؤول إلى الآخر ، على أن الزمخشري أوجب تعدد الفعل وتقدير ناصب لظرف الزمان غير الفعل الأول. وإن كانا عنده جميعاً زمانين ، لعلة أن كثرتهم لم تكن ثابتة في جميع المواطن.
يريد : ولو ذهبت إلى اتحاد الناصب للزم ذلك ، وهذا غير لازم. ألا تراك لو قلت : أضرب زيداً حين يقوم وحين يقعد ، لكان الناصب للظرفين واحداً وهما متغايران ، وإنما يمتنع عمل الفعل الواحد في ظرفى زمان مختلفين عند عدم العطف المتوسط بينهما ، واللّه أعلم.
(2) تكاشرنى كرها كأنك ناصح وعينك تبدى أن صدرك لي دوى
لسانك ماذي وعينك علقم وشرك مبسوط وخيرك منطوى
فليت كفافاً كان خيرك كله وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى
وكم موطن لولاى طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق منهوى
جمعت وفحشا غيبة ونميمة ثلاث خصال لست عنها بمرعوى
ليزيد بن الحكم بن أبى العاص الثقفى. والمكاشرة : المضاحكة ، واختارها في التعبير إشارة إلى أنها ليست مضاحكة حقيقة يوافقها القلب ، وإنما هي إظهار الأسنان فقط أمامه ليريه أنه ناصح الرجل كمرض فسد قلبه ، ودوى أى خالص المودة. ودوى صدر «أيضاً حقد ، فهو دوى بالتخفيف كعمي ، أو التشديد كغنى ، على فعل أو فعيل ، وعلى التشديد فتخفيفه للوزن.
و«الماذي» عسل النحل لأنه يمذى منها ، وتسمى الخمرة ماذية لسهولتها. و«العلقم» الحنظل وكل شجر مر وكل شيء مر ، أى لسانك كالعسل في حلاوة الكلام. وعينك كالعلقم في كراهية النفس ونفرتها عن كل ، حيث تنظر لي نظر الحسود المغتاظ ، وشبه الشر والخير ببساطين على سبيل المكنية ، والبسط والطى تخييل. واسم ليت ضمير الشأن أو ضمير المخاطب محذوفا ، وخيرك اسم كان ، وكفافا خبرها. وشرك عطف على خيرك. ويجوز أنه من باب التنازع عن من أجازه في الحروف ، لأن «ليت» مقتضية للعمل في خيرك ، و«كان» مقتضية للعمل فيه ، فأعمل فيه الثاني وحذف ضميره من الأول ، لأنه وإن كان عمدة ، مشبهة للفضلة في نصبه ، وكما أجاز حذفه الكوفيون في باب كان وباب ظن ، نعلمه من مفسره ، أى : فليت الحال والشأن كان خيرك كله وشرك ، كفافا : بالفتح ، أى مغنيا كافياً لك عنى ، ولو كسر «كفافا» على أنه مفاعلة من الكف لجاز ، ويكون المصدر بمعنى اسم الفاعل ، مبالغة : أى كافا لك ، أو منكفا عنى ما دام «مرتو» يرتوى الماء ، أى : يستقيه ، يعنى دائما ، وكم :
خبرية للتكثير ، أى كثير من مواطن الحرب لولا وجودى لطحت بكسر الطاء وضمها من باب باع ، وقال :
أى هلكت فيها كما هوى منهو ، أى سقط ساقط من قلة النيق. ويروى : قنة النيق ، والمعنى واحد ، أى : من رأس الجبل العالي ، ومذهب سيبويه أن «لولا» حرف جر إذا وليها ضمير نصب ، ومذهب الأخفش أنه وضع ضمير النصب موضع ضمير الرفع على الابتداء ، وأنكر المبرد وروده ، وهو محجوج بهذا. وقال أبو على الفارسي : الفعل ومطاوعه قد يكونان لازمين معا ، كهوى وانهوى، وغوى وانغوى ، بدليل نحو هذا البيت. وحمله الجمهور على الضرورة. والقياس : هاو وغاو. وبعضهم على أنهما مطاوعان لأهديته وأغويته ، لكن مطاوعه : انفعل لا فعل شاذة ، ولو قيل : انهوى مطاوع لهوى به لجاز. لكنه ليس قياسياً ، ثم قال له : جمعت غيبة ونميمة وفحشا ، فقدم المعطوف للضرورة. وجعله ابن جنى مفعولا معه ، وأجاز تقديمه على مصاحبه ممسكا بذلك ، ويمكن أن يكون ضرورة أيضاً. وفيه إشارة من أول وهلة إلى إرادة التعدد والتكثير وثلاث خصال بدل مما قبله ، ولست عنها : أى لست بمنزجر عنها، فقدم المعمول للاهتمام ، والياء في القافية للإطلاق.

وامتناعه من الصرف لأنه جمع ، وعلى صيغة لم يأت عليها واحد ، والمواطن الكثيرة : وقعات بدر ، وقريظة، والنضير ، والحديبية ، وخيبر ، وفتح مكة. فإن قلت : كيف عطف الزمان والمكان وهو يَوْمَ حُنَيْنٍ على المواطن؟ قلت : معناه وموطن يوم حنين. أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين. ويجوز أن يراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين ، على أنّ الواجب أن يكون يوم حنين منصوباً بفعل مضمر لا بهذا الظاهر. وموجب ذلك أنّ قوله إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ بدل من يوم حنين ، فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح ، لأنّ كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن «1» ولم يكونوا كثيراً في جميعها ، فبقى أن يكون ناصبه فعلا خاصاً به ، إلا إذا نصبت «إذ»

بإضمار «اذكر» وحنين : واد بين مكة والطائف ، كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفاً الذين حضروا فتح مكة ، منضما إليهم ألفان من الطلقاء ، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فيمن ضامّهم من إمداد سائر العرب فكان الجمّ الغفير ، فلما التقوا قال رجل من المسلمين : لن نغلب اليوم من قلة ، فساءت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وقيل قائلها رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم. وقيل أبو بكر رضى اللّه عنه «2» وذلك قوله إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فاقتتلوا قتالا شديداً وأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة ، وزلّ عنهم أن اللّه هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة ، وبقي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وحده وهو ثابت في مركزه لا يتحلحل ، ليس معه إلا عمه العباس رضى اللّه تعالى عنه آخذ بلجام دابته وأبو سفيان بن الحرث ابن عمه ،

(1). قوله «لم تعجبهم في جميع تلك المواطن» إنما يلزم كون كثرتهم أعجبتهم في جميعها ، مع أنه خلاف الواقع لو جعل إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ بدلا من المواطن أيضاً ، فتدبر. (ع) [.....]
(2). لم أجده بهذا السياق وقوله : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قالها : قد ورد أنه قال «لن تغلب اثنا عشر ألفا عن قلة» في حديث غير هذا. وأما هذا فان كان المصنف وقع على شيء من ذلك فما كان قوله «و أدركتهم كلمة الاعجاب بالكثرة ونزل عنهم إلى آخره بلائق. وأما قوله «و قيل قالها أبو بكر» فلم أقف عليه وقوله «و من هوازن وثقيف وفي أربعة آلاف غلام مسح» والصواب أن هوازن وثقيفا كانوا من المشركين والذي في مسلم من حديث العباس «شهدت مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم حنين - فذكرت القصة ، وفيها تغير ونقص عما ساقه المصنف وليس فيها «فخذا فخذا» وإنما فيه «أن عباسا نادى أصحاب السمرة ونادى أصحاب الشجرة. قال فعطوا عطف البقرة على أولادها ، وروى يونس بن بكر في زيادة المغازي عن أبى جعفر الرازي بن الربيع يعنى ابن أنس «أن رجلا قال يوم حنين : لن نغلب اليوم من قلة. فشق ذلك على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأنزل اللّه - وذكر الآية قال الربيع وكانوا اثنى عشر ألفا منهم ألفان من أهل مكة.

وناهيك بهذه الوحدة شهادة صدق على تناهى شجاعته ورباطة جأشه «1» صلى اللّه عليه وسلم ، وما هي إلا من آيات النبوّة ، وقال : يا رب ائتني بما وعدتني. وقال صلى اللّه عليه وسلم للعباس - وكان صيتا : صيح بالناس ، فنادى الأنصار فخذاً فخذاً ، ثم نادى : يا أصحاب الشجرة ، يا أصحاب البقرة ، فكرّوا عنقاً واحداً «2» وهم يقولون : لبيك لبيك ، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بلق ، فنظر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى قتال المسلمين فقال : هذا حين حمى الوطيس ، ثم أخذ كفا من تراب فرماهم به ثم قال : انهزموا ورب الكعبة فانهزموا ، قال العباس : لكأنى أنظر إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يركض. خلفهم على بغلته بِما رَحُبَتْ ما مصدرية ، والباء بمعنى مع ، أى مع رحبها «3» وحقيقته ملتبسة برحبها ، على أنّ الجارّ والمجرور في موضع الحال ، كقولك : دخلت عليه بثياب السفر ، أى ملتبسا بها لم أحلها ، تعنى مع ثياب السفر. والمعنى : لا تجدون موضعا تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط الرعب ، فكأنها ضاقت عليكم ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثم انهزمتم سَكِينَتَهُ رحمته التي سكنوا بها وآمنوا وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ الذين انهزموا. وقيل : هم الذين ثبتوا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين وقع الهرب وَأَنْزَلَ جُنُوداً يعنى الملائكة ، وكانوا ثمانية آلاف ، وقيل خمسة آلاف ، وقيل ستة عشر ألفا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا بالقتل والأسر ، وسبى النساء والذراري ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ أى يسلم بعد ذلك ناس منهم. وروى أنّ ناسا منهم جاءوا فبايعوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على الإسلام وقالوا : يا رسول اللّه ، أنت خير الناس وأبرّ الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا. قيل : سبى يومئذ ستة آلاف نفس ، وأخذ من الإبل والغنم مالا يحصى ، فقال : إنّ عندي ما ترون ، إنّ خير القول أصدقه ، اختاروا : إما ذراريكم ونساءكم ، وإما أموالكم. قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا. فقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : إن هؤلاء جاءوا مسلمين ، وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئا ، فمن كان بيده شيء وطابت نفسه أن يردّه فشأنه ، ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه. قالوا : رضينا وسلمنا ، فقال : إنى لا أدرى لعل فيكم من لا يرضى ، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا، فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا «4».

(1). قوله «و رباطة جأشه» الجأش : رواع القلب عند الفزع. ورابط الجأش : من يربط نفسه عن الفرار لشجاعته. (ع)
(2). قوله «عنقا واحدا» ويقال هم عنق إليك أى مائلون إليك كذا في الصحاح. (ع)
(3). قوله «مع رحبها» في الصحاح «الرحب» بالضم : السعة. (ع)
(4). ذكره الثعلبي بغير سند وهذه القصة قد ذكرها ابن إسحاق في المغازي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بطوله ، وذكرها البخاري من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان ، ورواها الطبري وغيره من رواية زهير ابن حرد ، وفيه الشعر الذي أنشده زهير.

[سورة التوبة (9) : آية 28]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28)

النجس : مصدر ، يقال : نجس نجساً ، وقذر. قذراً. ومعناه ذو ونجس ، لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس ، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات ، فهي ملابسة لهم. أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها ، مبالغة في وصفهم بها. وعن ابن عباس رضى الله عنه : أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير. وعن الحسن : من صافح مشركا توضأ. وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين. وقرئ : نجس ، بكسر النون وسكون الجيم ، على تقدير حذف الموصوف ، كأنه قيل ، إنما المشركون جنس نجس ، أو ضرب نجس ، وأكثر ما جاء تابعا لرجس وهو تخفيف نجس ، نحو : كبد ، في كبد فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ فلا يحجوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية بَعْدَ عامِهِمْ هذا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة حين أمّر أبو بكر على الموسم ، وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه ، ويدل عليه قول علىّ كرم الله وجهه حين نادى ببراءة : ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك. ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم. وعند الشافعي: يمنعون من المسجد الحرام خاصة. وعند مالك : يمنعون منه ومن غيره من المساجد. وعن عطاء رضى الله عنه أن المراد بالمسجد الحرام : الحرم ، وأن على المسلمين أن لا يمكنوهم من دخوله ، ونهى المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه «1» وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً أى فقرا بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق والمكاسب فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ من عطائه أو من تفضله بوجه آخر ، فأرسل السماء عليهم مدرارا ، فأغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم ، وأسلم أهل تبالة وجرش «2»

(1). قال محمود : «هذا النهى راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه» قال أحمد : وقد يستدل به من يقول : إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، وخصوصا بالمناهى ، فان ظاهر الآية توجه النهى إلى المشركين ، إلا أنه بعيد ، لأن المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهى ، والمقصود تطهير المسجد الحرام بابعادهم عنه ، فلا يحصل هذا المقصود إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه ، ويرشد إلى أن المخاطب في الحقيقة المسلمين ، تصدير الكلام بخطابهم في قوله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وتضمينه نصا بخطابهم بقوله وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً وكثيرا ما يتوجه النهى على من المراد خلافه ، وعلى ما المراد خلافه إذا كانت ثم ملازمة ، كقوله : لا أرينك هاهنا ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، والله أعلم.
(2). قوله «و أكثر ميرهم ... الخ» المير : إطعام الطعام. ويقال : بلد باليمن. وجرش : موضع منه أيضا ، أفاده الصحاح. (ع)

فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به ، فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته. وعن ابن عباس رضى الله عنه : ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف وقال : من أين تأكلون؟ فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم بالجزية. وقيل : بفتح البلاد والغنائم. وقرئ : عائلة ، بمعنى المصدر كالعافية ، أو حالا عائلة. ومعنى قوله إِنْ شاءَ اللَّهُ. إن أوجبت الحكمة إغناءكم وكان مصلحة لكم في دينكم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بأحوالكم حَكِيمٌ لا يعطى ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب.

[سورة التوبة (9) : آية 29]

قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ (29)

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بيان للذين مع ما في حيزه. نفى عنهم الإيمان بالله لأنّ اليهود مثنية والنصارى مثلثة. وإيمانهم باليوم الآخر لأنهم فيه على خلاف ما يجب وتحريم ما حرم الله ورسوله ، لأنهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة. وعن أبى روق : لا يعملون بما في التوراة والإنجيل ، وأن يدينوا دين الحق ، وأن يعتقدوا دين الإسلام الذي هو الحق وما سواه الباطل. وقيل : دين الله ، يقال : فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينه ومعتقده. سميت جزية ، لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أى يقضوه ، أو لأنهم يجزون بها من منّ عليهم بالإعفاء عن القتل عَنْ يَدٍ إما أن يراد يد المعطى أو الآخذ «1» فمعناه على إرادة يد المعطى حتى يعطوها عن يد : أى عن يد مؤاتية غير ممتنعة «2» لأنّ من أبى وامتنع لم يعط يده ، بخلاف المطيع المنقاد ، ولذلكقالوا : أعطى ، بيده ، إذا انقاد وأصحب «3». ألا ترى إلى قولهم. نزع يده عن الطاعة ، كما يقال : خلع ربقة الطاعة عن عنقه ، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة ، لا مبعوثا على يد أحد. ولكن عن يد المعطى إلى يد الآخذ ، وأما على إرادة يد الآخذ فمعناه حتى يعطوها «4» عن يد قاهرة مستولية ، أو عن إنعام عليهم.

(1). قال محمود : «إما أن يراد يد المعطى أو الأخذ ... الخ» قال أحمد : فيكون كاليد في قوله عليه السلام «لا تبيعوا الذهب ... إلى قوله إلا يدا بيد».
(2). قوله «أى عن يد مؤاتية غير ممتنعة» في الصحاح : آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة ، إذا وافقته وطاوعته.
والعامة تقول : وأتيته. (ع)
(3). قوله «و أصحب» أى سهل بعد صعوبة. انتهى صحاح. (ع)
(4). عاد كلامه قال : وإن أريد به الآخذ فمعناه حتى يعطوها ... الخ» قال أحمد : وهذا الوجه أملأ بالفائدة ، والله أعلم.

لأن قبول الجزية منهم وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة عليهم وَهُمْ صاغِرُونَ أى تؤخذ منهم على الصغار والذل. وهو أن يأتى بها بنفسه ما شيأ غير راكب ، ويسلمها وهو قائم - والمتسلم جالس ، وأن يتلتل تلتلة «1» ويؤخذ بتلبيبه ، ويقال له : أدّ الجزية ، وإن كان يؤدّيها ويزخ في قفاه. وتسقط بالإسلام عند أبى حنيفة ولا يسقط به خراج الأرض. واختلف فيمن تضرب عليه ، فعند أبى حنيفة : تضرب على كل كافر من ذمي ومجوسي وصابئ وحربى ، إلا على مشركي العرب وحدهم. روى الزهري أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم صالح عبدة الأوثان على الجزية ، إلا من كان من العرب «2» وقال لأهل مكة : هل لكم في كلمة إذا قلتموها دانت لكم بها العرب وأدّت إليكم العجم الجزية وعند الشافعي لا تؤخذ من مشركي العجم. والمأخوذ عند أبى حنيفة في أوّل كل سنة من الفقير الذي له كسب : اثنا عشر درهما. ومن المتوسط في الغنى : ضعفها ، ومن المكثر : ضعف الضعف ثمانية وأربعون ، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له. وعند الشافعي : يؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار ، فقيراً كان أو غنيا ، كان له كسب أو لم يكن.

[سورة التوبة (9) : آية 30]

وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30)

عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ مبتدأ وخبر ، كقوله : المسيح ابن اللّه ، وعزير : اسم أعجمى كعازر وعيزار وعزرائيل ، ولعجمته وتعريفه : امتنع صرفه. ومن نوّن فقد جعله عربياً. وأما قول من قال : سقوط التنوين لالتقاء الساكنين كقراءة من قرأ «أحد الله» أو لأنّ الابن وقع وصفا والخبر محذوف وهو معبودنا ، فتمحل عنه مندوحة ، وهو قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة ، وما هو بقول كلهم عن ابن عباس رضى اللّه عنه : جاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاش بن قيس ومالك بن الصيف ، فقالوا ذلك. وقيل : قاله فنحاص. وسبب هذا القول أنّ اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام ، فرفع اللّه عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم ، فخرج عزير وهو غلام يسيح في الأرض ، فأتاه جبريل عليه السلام : فقال له إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم فحفظه التوراة. فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفا ، فقالوا ما جمع اللّه التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه «3». والدليل على أن هذا القول كان فيهم :

(1). قوله «و أن يتلتل تلتلة» أى يزعزع ويزلزل. وقوله «يزخ» أى يدفع كما في الصحاح. (ع)
(2). أخرجه عبد الرزاق في تفسيره : أخبرنا معمر عن الزهري بهذا ، وزاد «و قيل الجزية من البحرين وكانوا مجوسا».
(3). قلت أورد المخرج منضما إلى الذي قبله ولم يذكر من أخرجه والصواب أنه حديث آخر أخرجه. [.....]

أن الآية تليت عليهم ، فما أنكروا ولا كذبوا ، مع تهالكهم على التكذيب. فإن قلت : كل قول يقال بالفم فما معنى قوله ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ؟ قلت : فيه وجهان. أحدهما : أن يراد أنه قول لا يعضده برهان ، فما هو إلا لفظ يفوهون به ، فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان. وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب. ومالا معنى له مقول بالفم لا غير ، والثاني : أن يراد بالقول المذهب ، كقولهم : قول أبى حنيفة ، يريدون مذهبه وما يقول به ، كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب ، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة في انتفاء الولد يُضاهِؤُنَ لا بدّ فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم ، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه ، فانقلب مرفوعا.

والمعنى : أن الذين كانوا في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم ، يعنى أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث. أو يضاهي قول المشركين : الملائكة بنات اللّه تعالى اللّه عنه. وقيل : الضمير للنصارى ، أى يضاهي قولهم : المسيح ابن اللّه ، قول اليهود : عزير ابن اللّه ، لأنهم أقدم منهم. وقرئ يضاهؤن بالهمز من قولهم : امرأة ضهيأ على فعيل ، وهي التي ضاهأت الرجال في أنها لا تحيض وهمزتها «1» مزيدة كما في غرقئ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أى هم أحقاء بأن يقال لهم هذا ، تعجباً من شناعة قولهم ، كما يقال لقوم ركبوا شنعاء : قاتلهم اللّه ما أعجب فعلهم أَنَّى يُؤْفَكُونَ كيف يصرفون عن الحق؟

[سورة التوبة (9) : آية 31]

اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)

اتخاذهم أربابا : أنهم أطاعوهم في الأمر بالمعاصي وتحليل ما حرم اللّه وتحريم ما حلله ، كما تطاع الأرباب في أوامرهم. ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به : عباده ، بل كانوا يعبدون الجن يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ وعن عديّ بن حاتم رضى اللّه عنه : انتهيت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال : «أ ليسوا يحرّمون ما أحلّ اللّه فتحرّمونه ، ويحلون ما حرّمه فتحلونه»؟ قلت : بلى. قال : فتلك عبادتهم «2». وعن فضيل رضى اللّه عنه :

(1). قوله «أنها لا تحيض وهمزتها مزيدة» هذا لا يناسب قوله «على فعيل» فلعله «أو همزة ... الخ». (ع)
(2). الواقدي من طريق عامر بن سعد عن عدى بن حاتم بهذا ، وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن عطاء ابن يسار عن عدى بن حاتم ، ورواه الترمذي من طريق مصعب بن سعد عن عدى بن حاتم بهذا وأتمم منه ، إلا قوله «فتلك عبادتهم» وقال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب عن عطيف بن أعين ، وعطيف ليس بمعروف ، وأخرجه ابن أبى شيبة والطبراني والطبري وأبو يعلى من هذا الوجه رواه البيهقي في المدخل كذلك وزاد «فتلك عبادتهم».

ما أبالى أطعت مخلوقا في معصية الخالق ، أو صليت لغير القبلة. وأمّا المسيح فحين جعلوه ابنا للّه فقد أهلوه للعبادة. ألا ترى إلى قوله قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ. وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً أمرتهم بذلك أدلة العقل والنصوص في الإنجيل والمسيح عليه السلام : أنه من يشرك باللّه فقد حرّم اللّه عليه الجنة سُبْحانَهُ تنزيه له عن الإشراك به ، واستبعاد له. ويجوز أن يكون الضمير في وَما أُمِرُوا للمتخذين أرباباً ، أى : وما أمر هؤلاء الذين هم عندهم أرباب إلا ليعبدوا اللّه ويوحدوه ، فكيف يصح أن يكونوا أربابا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم.

[سورة التوبة (9) : الآيات 32 إلى 33]

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33)

مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوّة محمد صلى اللّه عليه وسلم بالتكذيب ، بحال من يريد ان ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق ، يريد اللّه أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق أو الإضاءة ، ليطفئه بنفخه ويطمسه لِيُظْهِرَهُ ليظهر الرسول عليه السلام عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ على أهل الأديان كلهم. أو ليظهر دين الحق على كل دين. فإن قلت : كيف جاز ، أبى اللّه إلا كذا ، ولا يقال : كرهت أو أبغضت إلا زيداً «1»؟ قلت : قد أجرى «أبى» مجرى «لم يرد» ألا ترى كيف قوبل يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا بقوله وَيَأْبَى اللَّهُ وكيف أوقع موقع ولا يريد اللّه إلا أن يتمّ نوره.

[سورة التوبة (9) : الآيات 34 إلى 35]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35)

(1). قال : محمود «إن قلت كيف جاز أبى اللّه إلا كذا ولا يقال كرهت ... الخ» قال أحمد : ولا يقال على هذا إن الاباء عدم الارادة ، فكما صح الإيجاب بعد نفى الارادة ، فينبغي أن يصح بعد ما هو في معناها مطلقا ، لأنا نقول لوجود حرف النفي أثر في تصحيح مجيء حرف الإيجاب بعد فلا يلزم ذلك ، واللّه أعلم.

معنى أكل الأموال على وجهين : إما أن يستعار الأكل للأخذ. ألا ترى إلى قولهم : أخذ الطعام وتناوله. وإمّا على أن الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل. ومنه قوله :

إِنَّ لَنَا أَحْمِرَةً عِجَافَا يَأْكُلْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ إكافَا «1»

يريد : علفاً يشترى بثمن إكاف. ومعنى أكلهم بالباطل : أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام ، والتخفيف والمسامحة في الشرائع وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان ، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم : أخذ البراطيل.

وكنز الأموال ، والضنّ بها عن الإنفاق في سبيل الخير. ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنافقين ، ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى ، تغليظا ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ، ومن لا يعطى منكم طيب ماله : سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم.

وقيل : نسخت الزكاة آية الكنز. وقيل : هي ثابتة ، وإنما عنى بترك الإنفاق في سبيل اللّه منع الزكاة. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «ما أدّى زكاته فليس بكنز وإن كان باطناً ، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهراً» «2» وعن عمر رضى اللّه عنه أنّ رجلا سأله عن أرض له باعها فقال : أحرز مالك الذي أخذت ، احفر له تحت فراش امرأتك. قال : أليس بكنز؟ قال : ما أدّى زكاته فليس بكنز «3» وعن عمر رضى اللّه عنه: كل ما أدّيت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين ،

(1). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 216 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). أخرجه البيهقي من طريق محمد بن جبير عن سفيان عن عبد اللّه بن دينار عن ابن عمر مرفوعا بلفظ «كل ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا ، وكل مالا يؤدى زكاته فهو كنز وإن كان ظاهرا» قال البيهقي : ليس هذا بمحفوظ ، والمشهور عن سفيان بن عبيد اللّه عن نافع عن ابن عمر قوله. ورواه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن عدى من طريق سويد بن عبد العزيز عن عبيد اللّه بسنده مرفوعا ، ولفظه «كل مال وإن كان تحت سبع أرضين يؤدى زكاته فليس بكنز ، وكل مال لا يؤدى زكاته وإن كان ظاهرا فهو كنز» قال ابن عدى : وفيه سويد وغيره يرويه موقوفا والموقوف رواه عبد الرزاق عن عبيد اللّه العمرى موقوفا والشافعي عن ابن عيينة عن ابن عجلان عن نافع نحوه ، وفي الباب عن أم سلمة قالت «جئت ألبس أوضاحا من ذهب فقلت يا رسول اللّه أكنز هو؟ فقال : ما بلغ الذي يؤدى زكاته فليس بكنز» أخرجه أبو داود والحاكم.
(3). أخرجه عبد الرزاق من طريق بشر بن سعيد أن رجلا باع رجلا حائطا أو مالا بمال عظيم فقال له عمر ابن الخطاب رضى اللّه عنه : أحسن موضع هذا المال - الحديث» ورواه ابن أبى شيبة من طريق أخرى عن سعيد ابن أبى سعيد أن عمر سأل رجلا - فذكره.

وما لم يؤدّ زكاته فهو الذي ذكر اللّه تعالى وإن كان على ظهر الأرض «1» فإن قلت : فما تصنع بما روى سالم بن الجعد رضى اللّه عنه أنها لما نزلت قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «تباً للذهب تبا للفضة» قالها ثلاثاً. فقالوا له : أىّ مال نتخذ؟ قال «لساناً ذاكراً ، وقلباً خاشعاً ، وزوجة تعين أحدكم على دينه «2» وبقوله عليه الصلاة والسلام «من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها» «3» وتوفى رجل فوجد في مئزره دينار ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «كية» وتوفى آخر فوجد في مئزره ديناران ، فقال «كيتان» «4» قلت : كان هذا قبل أن تفرض الزكاة ، فأمّا بعد فرض الزكاة ، فاللّه أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أذن له فيه ، ويؤدّى عنه ما أوجب عليه فيه ، ثم يعاقبه. ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد اللّه وعبيد اللّه رضى اللّه عنهم يقتنون الأموال ويتصرفون فيها ، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية ، لأنّ الإعراض اختيار للأفضل ، وإلا دخل في الورع والزهد في الدنيا ، والاقتناء مباح موسع لا يذمّ صاحبه ، ولكل شيء حدّ. وما روى عن علىّ رضى اللّه عنه :

(1). تقدم الكلام عليه.
(2). كذا ذكره مرسلا ، وهو معروف من رواية سالم بن ثوبان أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط من طريق موثل بن إسماعيل عن الثوري عن الأعمش ومنصور وعمرو بن مرة عن سالم بن أبى الجعد عن ثوبان بهذا ، ورواه الترمذي وأحمد في الزهد من رواية إسرائيل عن منصور ومده به ، وليس فيه «تبا الذهب تبا الفضة» بل فيه : فقال بعض أصحابه «لو علمنا أى المال خير فنتخذه» قال البخاري وغيره : سالم لم يسمع من ثوبان ، ورواه ابن ماجة وأحمد وأبو نعيم في الحلية من رواية عبد اللّه بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم عن ثوبان ، ورواه ابن ماجة وأحمد وأبو نعيم في الحلية من رواية عبد اللّه بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم عن ثوبان قال «لما نزلت قالوا : فأى المال نتخذ؟ قال عمر : فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بعيره فأدرك النبي صلى اللّه عليه وسلم وأنا في أثره فقال :
يا رسول اللّه أى المال نتخذ؟ - الحديث» وفي الباب عن على أخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن أبى حصين عن أبى الضحى عن جعدة بن سبرة عنه ، وعن بريدة أخرجه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه. وعن بعض الصحابة أخرجه أحمد من رواية سعيد عن سالم بن عطية عن عبد اللّه بن عطية عن عبد اللّه بن أبى الهذيل حدثني صاحب لي أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال «تبا للذهب تبا للفضة» فحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر ، فقال : يا رسول اللّه. فذكر نحوه.
(3). أخرجه البخاري في التاريخ والطبري وابن مردويه من طريق عبد اللّه بن عبد الواحد الثقفي عن أبى النجيب الشامي «كان نعل سيف أبى هريرة من فضة ، فنهاه عنه أبو ذر وقال : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها» وفي الباب عن أبى أمامة ، أخرجه الطبراني بلفظ «ما من عبد يموت فيترك صفراء أو بيضاء إلا كوى بها» وعن ثوبان أخرجه ابن مردويه والطبراني في مسند الشاميين من رواية أرطاة بن المنذر عن ابن عامر عنه ، بلفظ «ما من أحد يترك صفراء أو بيضاء من ذهب أو فضة إلا جعل صفائح ثم كوى بها».
(4). أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبراني والطبري من طريق شهر بن حوشب عن أبى أمامة ، بلفظ مروه في الموضعين. ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني.

أربعة آلاف فما دونها نفقة ، فما زاد فهو كنز «1» : كلام في الأفضل. فإن قلت : لم قيل : ولا ينفقونها ، وقد ذكر شيئان؟ قلت : ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ : لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير

ودراهم ، فهو كقوله وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا وقيل : ذهب به إلى الكنوز. وقيل : إلى الأموال. وقيل : معناه ولا ينفقونها والذهب ، «2» كما أن معنى قوله :

فَإِنِّى وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ «3»

وقيار كذلك. فإن قلت : لم خصا بالذكر من بين سائر الأموال؟ قلت : لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء ، ولا يكنزهما إلا من فضلا عن حاجته ، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعدم سائر أجناس المال ، فكان ذكر كنزهما دليلا على ما سواهما ، فإن قلت : ما معنى قوله يُحْمى عَلَيْها؟ وهلا قيل : تحمى ، من قولك : حمى الميسم «4» وأحميته ، ولا تقول : أحميت على الحديد؟ قلت : معناه أن النار تحمى عليها ، أى توقد ذات حمى وحرّ شديد ، من قوله نارٌ حامِيَةٌ ولو قيل : يوم تحمى ، لم يعط هذا المعنى. فإن قلت : فإذا كان الإحماء للنار ، فلم ذكر الفعل؟ قلت : لأنه مسند إلى الجار والمجرور ، أصله : يوم تحمى النار عليها ، فلما حذفت النار قيل : يحمى عليها ، لانتقال الاسناد عن النار إلى عليها ، كما تقول : رفعت القصة إلى الأمير ، فإن لم تذكر القصة قلت : رفع إلى الأمير. وعن ابن عامر أنه قرأ : تحمى ، بالتاء. وقرأ أبو حيوة : فيكوى بالياء. فإن قلت : لم خصت هذه الأعضاء؟ قلت : لأنهم لم يطلبوا بأموالهم - حيث لم ينفقوها في سبيل اللّه - إلا الأغراضَ الدنيوية ، من وجاهة عند الناس ، وتقدّم ، وأن يكون ماء وجوههم مصوناً عندهم ، يتلقون بالجميل ، ويحيون بالإكرام ، ويبجلون ويحتشمون ، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم ، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم ، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم ، لا يخطرون ببالهم قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ذهب أهل الدثور بالأجور» «5» وقيل : لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم وإياه مجلس زوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم.

(1). أخرجه عبد الرزاق والطبري بإسناده الماضي عن على رضى اللّه عنه قبل بحديثين.
(2). قوله «و الذهب» لعله و«الذهب كذلك». (ع)
(3). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 629 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(4). قال محمود : «إن قلت : هلا قيل تحمى ، كما يقال : حمى الميسم وأحميته ... الخ» قال أحمد : وفي هذا الفصل دقائق إعراب يشوب حسنها إغراب ، واللّه الموفق. [.....]
(5). أخرجه مسلم من طريق أبى الأسود عن أبى ذر «أن أناسا من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم : قالوا: يا رسول اللّه ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى - الحديث.

وقيل : معناه يكون على الجهات الأربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم هذا ما كَنَزْتُمْ على إرادة القول.

وقوله لِأَنْفُسِكُمْ أى كنزتموه لننتفع به نفوسكم وتلتذ وتحصل لها الأغراض التي حامت حولها وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتعذب وهو توبيخ لهم فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ وقرئ : تكنزون ، بضم النون ، أى وبال المال الذي كنتم تكنزونه أو وبال كونكم كانزين.

[سورة التوبة (9) : آية 36]

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36)

فِي كِتابِ اللَّهِ فيما أثبته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصوابا. وقيل في اللوح أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثلاثة سرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ، وواحد فرد وهو رجب. ومنه قوله عليه السلام في خطبته في حجة الوداع : ألا إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض «1». السنة اثنا عشر شهراً : منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرّم. ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. والمعنى : رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه ، وعاد الحج في ذى الحجة ، وبطل النسيء الذي كان في الجاهلية ، وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة ، وكانت حجة أبى بكر رضى اللّه عنه قبلها في ذى القعدة ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ يعنى أنّ تحريم الأشهر الأربعة هو الدين المستقيم ، دين إبراهيم وإسماعيل ، وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما ، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ويحرمون القتال فيها ، حتى لو لقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه ، وسموا رجبا : الأصم ومنصل الأسنة ، حتى أحدثت النسيء فغيروا فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ في الحرم أَنْفُسَكُمْ أى لا تجعلوا حرامها حلالا. وعن عطاء. تاللّه ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا ، وما نسخت ، وعن عطاء الخراساني رضى اللّه عنه : حلت القتال في الأشهر الحرم براءة من اللّه ورسوله. وقيل : معناه لا تأثموا فيهن ، بيانا لعظم حرمتهن ، كما عظم أشهر الحج بقوله تعالى فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ

... الآية وإن كان ذلك محرما في سائر الشهور كَافَّةً حال من الفاعل أو المفعول مَعَ الْمُتَّقِينَ ناصر لهم ، حثهم على التقوى بضمان النصر لأهلها.

(1). متفق عليه من حديث أبى بكرة وفي الباب عن ابن عمر رضى اللّه عنهما أخرجه الطبري من رواية موسى ابن عبيدة عن صدقة بن يسار عنه بلفظ المصنف. وهو ضعيف. وعن ابن عباس أخرجه ابن مردويه.

[سورة التوبة (9) : آية 37]

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (37)

والنسيء : تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر ، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم ، فكانوا يحرمون من شق شهور العام أربعة أشهر وذلك قوله تعالى لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ أى ليوافقوا العدّة التي هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين ، وربما زادوا في عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت. ولذلك قال عز وعلا إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً يعنى من غير زيادة زادوها. والضمير في : يحلونه ، ويحرمونه للنسيء. أى إذا أحلوا شهراً من الأشهر الحرم عاما ، رجعوا فحرموه في العام القابل. وروى أنه حدث ذلك في كنانة لأنهم كانوا فقراء محاويج إلى الغارة ، وكان جنادة بن عوف الكناني مطاعاً في الجاهلية ، وكان يقوم على جمل في الموسم فيقول بأعلى صوته : إنّ آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم يقوم في القابل فيقول : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه. جعل النسيء زيادة في الكفر ، لأن الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفراً ، فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، كما أن المؤمن إذا أحدث الطاعة ازداد إيماناً فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وقرئ «يضل» على البناء للمفعول ، و«يضل» بفتح الياء والضاد ، ويُضَلُّ على أن الفعل للّه عز وجل. وقرأ الزهري: ليوطئوا بالتشديد. والنسيء مصدر نسأه إذا أخره. يقال نسأه نسأ ونساء ونسيئاً ، كقولك : مسه مساً ومساساً ومسيساً. وقرئ بهنّ جميعا. وقرئ النسى ، بوزن الندى. والنسى بوزن النهى ، وهما تخفيف النسيء والنسيء. فإن قلت : ما معنى قوله فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ؟ قلت : معناه فيحلوا بمواطأة العدّة وحدها من غير تخصيص ما حرّم اللّه من القتال ، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ خذلهم اللّه فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة وَاللَّهُ لا يَهْدِي أى لا يلطف بهم بل يخذلهم. وقرئ : زين لهم سوء أعمالهم ، على البناء للفاعل ، وهو اللّه عزّ وجل.

[سورة التوبة (9) : الآيات 38 إلى 41]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (38) إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41)

اثَّاقَلْتُمْ تثاقلتم. وبه قرأ الأعمش ، أى تباطأتم وتقاعستم. وضمن معنى الميل والإخلاد فعدى بإلى. والمعنى : ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه ، ونحوه : أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ وقيل : ملتم إلى الإقامة بأرضكم وديياركم : وقرئ اثاقلتم؟ على الاستفهام الذي معناه الإنكار والتوبيخ. فإن قلت : فما العامل في «إذا» وحرف الاستفهام مانعة أن يعمل فيه «1»؟ قلت : ما دلّ عليه قوله اثَّاقَلْتُمْ أو ما في ما لَكُمْ من معنى الفعل ، كأنه قيل : ما تصنعون إذا قيل لكم كما تعمله في الحال إذا قلت : مالك قائماً ، وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف ، استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو ، فشق عليهم. وقيل : ما خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في غزوة إلا ورّى عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك «2» ليستعدّ الناس تمام العدة مِنَ الْآخِرَةِ أى بدل الآخرة كقوله : لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً. فِي الْآخِرَةِ في جنب الآخرة إِلَّا تَنْفِرُوا سخط عظيم على المتثاقلين «3» حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين ، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيراً منهم وأطوع ، وأنه غنى عنهم في نصرة دينه ، لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً : وقيل : الضمير للرسول : أى ولا تضروه ، لأنّ اللّه وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره ، ووعد اللّه كائن لا محالة ، وقيل يريد بقوله قَوْماً غَيْرَكُمْ أهل اليمن. وقيل : أبناء فارس ، والظاهر مستغن عن للتخصيص.

(1). قوله «و حرف الاستفهام» لعله : وأحرف الاستفهام ، بدليل قوله «مانعة». وقوله «أن يعمل فيه» لعله : أن يعمل فيه «اثاقلتم». (ع)
(2). متفق عليه من حديث كعب بن مالك.
(3). قال محمود : «في هذه الآية سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم عذابا أليما ... الخ» قال أحمد : ويقرب إعادة الضمير إلى الرسول أن الضمير في قوله إِلَّا تَنْصُرُوهُ عقيب ذلك عائد إليه اتفاقا ، والله أعلم.

فإن قلت : كيف يكون قوله فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ جواباً للشرط؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد ، فدلّ بقوله فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ على أنه ينصره في المستقبل ، كما نصره في ذلك الوقت. والثاني : أنه أوجب له النصرة وجعله منصوراً في ذلك الوقت : ، فلن يخذل من بعده. وأسند الإخراج إلى الكفار كما أسند إليهم في قوله مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ لأنهم حين هموا بإخراجه أذن الله له في الخروج ، فكأنهم أخرجوه ثانِيَ اثْنَيْنِ أحد اثنين ، كقوله ثالِثُ ثَلاثَةٍ وهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضى الله عنه. يروى أَنّ جبريل عليه السلام لما أمره بالخروج قال : من يخرج معى؟ قال أبو بكر ، وانتصابه على الحال : وقرئ ثانى اثنين ، بالسكون. وإِذْ هُما بدل من إذ أخرجه. والغار : ثقب في أعلى ثور ، وهو جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة ، مكثا فيه ثلاثا إِذْ يَقُولُ بدل ثان. قيل طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : إن تصب اليوم ذهب دين الله «1» فقال عليه الصلاة والسلام : «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» : وقيل : لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا في أسفله ، والعنكبوت فنسجت عليه «2».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اللهم أعم أبصارهم «3»» : فجعلوا يتردّدون حول الغار ولا يفطنون. وقد أخذ الله بأبصارهم عنه. وقالوا : من أنكر صحبة أبى بكر رضى الله عنه فقد كفر ، لإنكاره كلام الله ، وليس ذلك لسائر الصحابة سَكِينَتَهُ ما ألقى في قلبه من الأمنة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه. والجنود الملائكة يوم بدر ، والأحزاب وحنين. وكلمة الذين كفروا : دعوتهم إلى الكفر وَكَلِمَةُ اللَّهِ دعوته إلى الإسلام. وقرئ «كلمة الله» بالنصب ، والرفع أوجه. وهِيَ فصل أو مبتدأ ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلوّ ، وأنها المختصة به دون سائر الكلم خِفافاً وَثِقالًا خفافا في النفور لنشاطكم له ، وثقالا عنه لمشقته عليكم ، أو خفافا لقلة عيالكم وأذيالكم ، وثقالا لكثرتها. أو خفافا من السلاح وثقالا منه. أو ركبانا ومشاة. أو شبابا وشيوخا. أو مهازيل

(1). لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال «نظرت إلى أقدام المشركين على رءوسنا ونحن في الغار. فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا. فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.
(2). أخرجه البزار من طريق عوف بن عمرو عن أبى مصعب المكي : سمعت أنس بن مالك وغيره «أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الغار أمر الله تعالى صخرة فثبتت في وجه النبي صلى الله عليه وسلم فسترته وأمر العنكبوت فنسجت في وجهه فسترته. وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار - الحديث».
(3). لم أجده

وسمانا. أو صحاحا ومراضا. وعن ابن أمّ مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أعلىّ أن أنفر؟ قال : نعم ، حتى نزل قوله لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ. وعن ابن عباس : نسخت بقوله لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وعن صفوان بن عمرو : كنت والياً على حمص ، فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو. فقلت : يا عمّ لقد أعذر الله إليك فرفع حاجبيه وقال : يا بن أخى استنفرنا الله خفافا وثقالا ، إلا أنه من يحبه الله يبتله. وعن الزهري : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه ، فقيل له : إنك عليل صاحب ضرر ، فقال : استنفرنا الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن ، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة.

[سورة التوبة (9) : آية 42]

لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (42)

العرض : ما عرض لك من منافع الدنيا. يقال : الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر ، أى لو كان ما دعوا إليه غنما قريبا سهل المنال وَسَفَراً قاصِداً وسطا مقاربا الشُّقَّةُ المسافة الشاطة الشاقة. وقرأ عيسى بن عمر: بعدت عليهم الشقة ، بكسر العين والشين.

ومنه قوله :

يَقُولُونَ لَا تَبْعُدْ وَهُمْ يَدْفِنُونَهُ وَلَا بُعْدَ إلّا مَا تُوَارِى الصَّفَائِحُ «1»

بِاللَّهِ متعلق بسيحلفون. أو هو من جملة كلامهم. والقول مراد في الوجهين ، أى سيحلفون يعنى المختلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون باللّه لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ أو سيحلفون باللّه يقولون : لو استطعنا، وقوله لَخَرَجْنا سدّ مسدّ جوابي القسم ولو جميعا ، والإخبار بما سوف يكون بعد القفول من حلفهم واعتذارهم ، وقد كان من جملة المعجزات.

ومعنى الاستطاعة : استطاعة العدّة ، أو استطاعة الأبدان ، كأنهم تمارضوا. وقرئ : لو استطعنا ،

(1). يقال «بعد» ككرم وتعب ، ومصدرهما : البعد بفتحتين ، وبضم فسكون. وقد اشتهر باب تعب في معنى الهلاك ، ولا تبعد - بالفتح - كلمة جارية على لسانهم عند المصيبة ، دالة على تناهى الجزع ، ولا بعد : معناه لا بعد إلا بعد ما تواريه الصفائح. أو ولا ذو بعد إلا ما تواريه. أو لا بعيد إلا ما تواريه ، على أن المصدر بمعنى الوصف.
واستعمل «ما» في العاقل ، لأن المراد بها الوصف. أو المراد بها الأجسام والأشباح مجردة عن الإدراكات والأرواح. والصفائح : أحجار عراض يسقف بها القبر ، أى البعيد ، حقيقته هو ما يستره القبر ، كناية عن موته.

بضم الواو تشبيها لها بواو الجمع في قوله فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ. يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ إما أن يكون بدلا من سيحلفون ، أو حالا بمعنى مهلكين. والمعنى : أنهم يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب وما يحلفون عليه من التخلف. ويحتمل أن يكون حالا من قوله لَخَرَجْنا أى لخرجنا معكم ، وإن أهلكنا أنفسنا وألقيناها في التهلكة بما نحملها من المسير في تلك الشقة. وجاء به على لفظ الغائب ، لأنه مخبر عنهم. ألا ترى أنه لو قيل : سيحلفون باللّه لو استطاعوا لخرجوا ، لكان سديدا. يقال : حلف باللّه ليفعلنّ ولأفعلنّ ، فالغيبة على حكم الإخبار ، والتكلم على الحكاية.

[سورة التوبة (9) : آية 43]

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ (43)

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ كناية عن الجناية ، لأنّ العفو رادف لها «1». ومعناه : أخطأت وبئس ما فعلت «2». ولِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ بيان لما كنى عنه بالعفو. ومعناه : مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالإذن حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ من صدق في عذره ممن كذب فيه. وقيل شيئان فعلهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولم يؤمر بهما : إذنه للمنافقين وأخذه من الأسارى فعاتبه اللّه تعالى.

[سورة التوبة (9) : آية 44]

لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44)

لا يَسْتَأْذِنُكَ ليس من عادة المؤمنين «3» أن يستأذنوك في أن يجاهدوا ، وكان الخلص من المهاجرين والأنصار يقولون : لا نستأذن النبي أبدا ، ولنجاهدنّ أبدا معه بأموالنا وأنفسنا.

(1). قال محمود : «هذا كناية عن الجناية ، لأن العفو رادف لها ... الخ» قال أحمد رحمه اللّه : ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير ، وهو بين أحد أمرين : إما أن لا يكون هو المراد. وإما أن يكون هو المراد ، ولكن قد أجل اللّه نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب ، وخصوصا في حق المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فالزمخشرى على كلا التقديرين ذاهل عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام. ولقد أحسن من قال في هذه الآية:
إن من لطف اللّه تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب ، ولو قال له ابتداء : لم أذنت لهم؟ لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام ، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام.
(2). قوله «و معناه أخطأت وبئس ما فعلت» خاطب اللّه رسوله خطاب الرقة والرأفة ، وفسره المصنف بخطاب الغلظة والقسوة ، وشتان ما بينهما. (ع)
(3). عاد كلامه. قال : وقوله لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ - إلى قوله - إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... الآية قال : معناه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا ... الخ» قال أحمد : وهذا الأدب يجب أن يقتفى مطلقا ، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه في أن يسدى إليه معروفا ، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه في أن يقدم إليه طعاما ، فإن الاستئذان في أمثال هذه المواطن أمارة التكلف والتكره ، وصلوات اللّه على خليله وسلامه لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه ، أنه كان لا يتعاطى شيأ من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم ، فلذلك مدحه اللّه تعالى على لسان رسوله صلى اللّه عليه وسلم بهذه الخلة الجميلة والآداب الجليلة ، فقال تعالى فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ أى ذهب على خفاء منهم كيلا يشعروا به ، والمهتم بأمر ضيفه بمرأى منه ربما يعد كالمستأذن له في الضيافة ، فهذا من الآداب التي ينبغي أن يتمسك بها ذوو المروءة وأولو الفتوة ، وأشد من الاستئذان في الخروج للجهاد ونصرة الدين

التثاقل عن المبادرة إليه بعد الحض عليه والمناداة ، وأسوأ أحوال المتثاقل - وقد دعى الناس إلى الغزاة - أن يكون متمسكا بشعبة من النفاق نعوذ بالله من التعرض لسخطه.

ومعنى أَنْ يُجاهِدُوا في أن يجاهدوا ، أو كراهة أن يجاهدوا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين ، وعدة لهم بأجزل الثواب.

[سورة التوبة (9) : الآيات 45 إلى 48]

إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاَّ خَبالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كارِهُونَ (48)

إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ يعنى المنافقين ، وكانوا تسعة وثلاثين رجلا يَتَرَدَّدُونَ عبارة عن التحير ، لأن التردّد ديدن المتحير، كما أنّ الثبات والاستقرار ديدن المستبصر. قرئ : عدّه ، بمعنى عدّته ، فعل بالعدّة ما فعل بالعدة من قال : وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الأَمْرِ الَّذِى وَعَدُوا «1»

من حذف تاء التأنيث ، وتعويض المضاف إليه منها. وقرئ : عدّة ، بكسر العين بغير إضافة ، وعدّه بإضافة. فإن قلت : كيف موقع حرف الاستدراك؟ قلت : لما كان قوله وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ معطياً معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو. قيل وَلكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ كأنه قيل : ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم ، كما تقول : ما أحسن إلىّ زيد ، ولكن أساء إلىّ فَثَبَّطَهُمْ فكسلهم وخذلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث وَقِيلَ اقْعُدُوا جعل إلقاء الله في قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود. وقيل : هو قول الشيطان بالوسوسة.

(1). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 323 فراجعه إن شئت اه مصححه

وقيل : هو قولهم لأنفسهم. وقيل : هو إذن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لهم في القعود.

فإن قلت : كيف جاز أن يوقع اللّه تعالى في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قبيحة ، وتعالى اللّه عن إلهام القبيح «1»؟ قلت : خروجهم كان مفسدة ، لقوله لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسناً ومصلحة. فإن قلت : فلم خطأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الإذن لهم فيما هو مصلحة؟ قلت : لأنّ إذن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لهم لم يكن للنظر في هذه المصلحة ولا علمها إلا بعد القفول بإعلام اللّه تعالى ، ولكن لأنهم استأذنوه في ذلك واعتذروا إليه ، فكان عليه أن يتفحص عن كنه معاذيرهم ولا يتجوّز في قبولها ، فمن ثم أتاه العتاب. ويجوز أن يكون في ترك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الإذن لهم مع تثبيط اللّه إياهم مصلحة أخرى ، فبإذنه لهم فقدت تلك المصلحة ، وذلك أنهم إذا ثبطهم اللّه فلم ينبعثوا وكان قعودهم بغير إذن من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قامت عليهم الحجة ولم تبق لهم معذرة.

ولقد تدارك اللّه ذلك حيث هتك أستارهم وكشف أسرارهم وشهد عليهم بالنفاق ، وأنهم لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر. فإن قلت : ما معنى قوله مَعَ الْقاعِدِينَ؟ «2» قلت : هو ذمّ لهم وتعجيز ، وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت ، وهم القاعدون والخالفون والخوالف ، ويبينه قوله تعالى رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ. إِلَّا خَبالًا ليس من الاستثناء المنقطع في شيء كما يقولون لأن الاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه ، كقولك : ما زادوكم خيراً إلا خبالا ، والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور ، وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء ، فكان استثناء متصلا ، لأنّ الخبال بعض أعمّ العام ، كأنه قيل : ما زادوكم شيئاً إلا خبالا. والخبال ، الفساد والشرّ وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ولسعوا بينكم بالتضريب «3» والنمائم وإفساد ذات البين. يقال : وضع البعير وضعاً إذا أسرع وأوضعته أنا. والمعنى : ولأوضع ركائبهم بينكم ، والمراد الإسراع بالنمائم ، لأنّ الراكب أسرع من الماشي.

(1). قال محمود : «إن قلت كيف جاز أن يوقع اللّه في نفوسهم كراهة الخروج للغزو ... الخ» قال أحمد : وهذا الفصل من كلامه مبنى على قاعدتين فاسدتين : إيجاب مراعاة المصالح على اللّه تعالى ، والتحسين والتقبيح. وقد تكرر بطلان ذلك فاحذره. واعلم أن معتقد أهل السنة أن اللّه تعالى ألقى كراهة الخروج في قلوبهم ، لأنه أراد شقاوتهم ، وانضاف إلى ذلك إرادة راحة المخلصين من مرافقتهم ، إذ الأمر ليس شرطا في نفوذ المشيئة ، واللّه الموفق. [.....]

(2). عاد كلامه. قال : «فان قلت فما معنى قوله مع القاعدين ... الخ» قال أحمد : وهذا من تنبيهاته الحسنة ، ونزيده بسطاً فنقول : لو قيل اقعدوا مقتصراً عليه ، لم يفد سوى أمرهم بالقعود ، وكذلك : كونوا مع القاعدين ، ولا تحصل هذه الفائدة مع إلحاقهم بهؤلاء

الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد ، الموسومين بهذه السمة ، إلا من عبارة الآية ، ولعن الله فرعون : لقد بالغ في توعد موسى عليه السلام بقوله : لأجعلنك من المسجونين ، ولم يقل : لأجعلنك مسجونا ، لمثل هذه النكتة من المبالغة
(3). قوله «بالتضريب» أى بالإغراء. (ع)

وقرأ ابن الزبير رضى الله عنه : ولأرقصوا ، من رقصت الناقة رقصاً إذا أسرعت وأرقصتها. قال :

وَالرَّاقِصَات إِلَى مِنْى فَالغَبْغَبِ

وقرئ : ولأوفضوا. فإن قلت : كيف خطّ في المصحف : ولا أوضعوا ، بزيادة ألف؟ قلت : كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربي ، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع ، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً ، وفتحتها ألفاً أخرى ، ونحو : أو لا أذبحنه. يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ يحاولون أن يفتنوكم. بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغزاكم وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ أى نمامون يسماعون حديثكم فينقلونه إليهم. أو فيكم قوم يسماعون للمنافقين ويطيعونهم لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ أى العنت ونصب الغوائل والسعى في تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك ، كما فعل عبد الله بن أبىّ يوم أحد حين انصرف بمن معه وعن ابن جريج رضى الله عنه : وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلا ليفتكوا به مِنْ قَبْلُ من قبل غزوة تبوك وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ودبروا لك الحيل والمكايد ، ودوّروا الآراء في إبطال أمرك. وقرئ : وقلبوا بالتخفيف حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وهو تأييدك ونصرك وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وغلب دينه وعلا شرعه.

[سورة التوبة (9) : آية 49]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (49)

ائْذَنْ لِي في القعود وَلا تَفْتِنِّي ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم ، بأن لا تأذن لي فإنى إن تخلفت بغير إذنك أثمت. وقيل : ولا تلقني في الهلكة ، فإنى إذا خرجت معك هلك مالى وعيالي وقيل : قال الجدّ بن قيس : قد علمت الأنصار أنى مستهتر بالنساء «1» فلا تفتني ببنات الأصفر ، يعنى نساء الروم ، ولكنى أعينك بمال فاتركنى. وقرئ : ولا تفتني ، من أفتنه أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا أى إنّ الفتنة هي التي سقطوا فيها ، وهي فتنة التخلف. وفي مصحف أبىّ رضى الله عنه : سقط ، لأنّ «من» موحد اللفظ مجموع المعنى لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ يعنى أنها تحيط بهم يوم القيامة. أو هي محيطة بهم الآن ، لأنّ أسباب الإحاطة معهم فكأنهم في وسطها.

[سورة التوبة (9) : آية 50]

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50)

(1). قوله «إنى مستهتر» أى مولع لا أبالى بما يقال في شأنى انتهى. (ع)

إِنْ تُصِبْكَ في بعض الغزوات حَسَنَةٌ ظفر وغنيمة تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ نكبة وشدّة في بعضها نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك ، وَيَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا أى أمرنا الذي نحن متسمون به ، من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم مِنْ قَبْلُ من قبل ما وقع. وتولوا عن مقام التحدّث بذلك والاجتماع له إلى أهاليهم وَهُمْ فَرِحُونَ مسرورون. وقيل : تولوا : أعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[سورة التوبة (9) : آية 51]

قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلاَّ ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51)

قرأ ابن مسعود رضى الله عنه : قل هل يصيبنا. وقرأ طلحة رضى الله عنه : هل يصيبنا ، بتشديد الياء. ووجهه أن يكون «يفيعل» لا «يفعل» لأنه من بنات الواو ، كقولهم : الصواب ، وصاب السهم يصوب ، ومصاوب «1» في جمع مصيبة ، فحق «يفعل» منه «يصوّب» ألا ترى إلى قولهم : صوّب رأيه ، إلا أن يكون من لغة من يقول : صاب السهم يصيب. ومن قوله «2» أسهمى الصائبات والصيب ، واللام في قوله إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا مفيدة معنى الاختصاص كأنه قيل : لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله به بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة. ألا ترى إلى قوله هُوَ مَوْلانا أى الذي يتولانا ونتولاه ، ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله ، فليفعلوا ما هو حقهم.

[سورة التوبة (9) : آية 52]

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52)

إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسن العواقب ، وهما النصرة والشهادة وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ إحدى السوأتين «3» من العواقب ، إمّا أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ وهو قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود أَوْ بعذاب بِأَيْدِينا وهو القتل على الكفر فَتَرَبَّصُوا بنا ما ذكرنا من عواقبنا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ما هو عاقبتكم ، فلا بدّ أن يلقى كلنا ما يتربصه لا يتجاوزه

(1). قوله «و مصاوب» في الصحاح : أجمعت العرب على همز المصائب ، وأصله الواو كأنهم شبهوا الأصلى بالزائد ، ويجمع أيضا على مصاوب ، وهو الأصل. (ع)
(2). قوله «و من قوله» لعله : ومنه. أو لعله : ومنها. وفي الصحاح : صاب السهم القرطاس يصيبه صيبا لغة في أصابه. (ع)
(3). قوله «إحدى السوأتين» لعله : السوأيين. (ع)

[سورة التوبة (9) : آية 53]

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (53)

أَنْفِقُوا يعنى في سبيل اللّه ووجوه البر طَوْعاً أَوْ كَرْهاً نصب على الحال ، أى طائعين أو مكرهين. فإن قلت : كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ؟ قلت : هو أمر في معنى الخبر ، كقوله تبارك وتعالى قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا ومعناه : لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً. ونحوه قوله تعالى اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وقوله :

أسِيئِى بِنَا أوْ أحْسِنِى لَا مَلُومَةً «1»

أى لن يغفر اللّه لهم ، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم. ولا نلومك - أسأت إلينا أم أحسنت.

فإن قلت : متى يجوز نحو هذا؟ قلت : إذا دلّ الكلام عليه كما جاز عكسه في قولك رحم اللّه زيداً وغفر له. فإن قلت : لم فعل ذلك؟ قلت : لنكتة فيه ، وهي أنّ كثيرا كأنه يقول لعزة : امتحنى لطف محلك عندي وقوّة محبتي لك ، وعامليني بالاساءة. والإحسان ، وانظري هل بتفاوت حالى معك مسيئة كنت أو محسنة؟ وفي معناه قول القائل : أخُوكَ الَّذِى إنْ قُمْتَ بِالسَّيْفِ عَامِدا لِتَضْرِبَهُ لَمْ يَسْتَفِثَّكَ فِى الْوَدِّ «2»

وكذلك المعنى : أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، وانظر هل ترى اختلافا بين حال الاستغفار وتركه؟ فإن قلت : ما الغرض في نفى التقبل؟ أهو ترك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تقبله منهم وردّه عليهم ما يبذلون منه؟

(1) أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت
لكثير صاحب عزة ، يقول : امتحنيني في المحبة ، وعامليني بالاساءة والإحسان ، وانظري هل يتغير حالى ، وافعلي ما يجبرك زوجك عليه من شتمي ، كما يأتى في كلامه ، ولا تتحرجى عنه فانه مثل إحسانك ، ولهذا ذكر الإحسان والمعنى : لا لوم ولا بغض ، سواء أسأت أو أحسنت ، فالأمر بمعنى الخبر ، ثم التفت وقال : ليست عزة ملومة عندنا ولا مبغضة إن تبغضت ، أى تكلفت البغض لنا وأظهرته. ويجوز أن المعنى : لا ملومة أنت ولا مقلية ، فالالتفات في قوله «إن تبغضت ، فقط.
(2) أخوك الذي إن قمت بالسيف عامداً لتضربه لم يستفثك في الود
ولو جئت تبغى كنفه لتبيتها تبادر إشفاقا عليك من الرد
يرى أنه في الود وان مقصر على أنه قد زاد فيه عن الجهد
روى يستفشك «بالشين بدل الثاء. والمعنى متقارب. والسين والتاء للعد ، أى لم يعدك خائنا مضراً. وتبينها تقطعها. والإشفاق : الخوف. والوانى : المتوانى. يقول : إن أخاك الصدق هو الذي لو قصدته بالمكاره لم يعدها غشا منك في المودة ، بل يبادرك بكل ما طلبته خوفا عليك من أذى المنع ، يظن أو يعتقد أنه مقصر في الود ، مع أنه جاوز فيه الحد ، وتكلف غير طاقته.

أم هو كونه غير مقبول عند اللّه تعالى ذاهباً هباء لا ثواب له؟ قلت : يحتمل الأمرين جميعاً. وقوله طَوْعاً أَوْ كَرْهاً معناه طائعين من غير إلزام من اللّه ورسوله ، أو ملزمين. وسمى الإلزام إكراها ، لأنهم منافقون ، فكان إلزامهم الإنفاق شاقا عليهم كالإكراه. أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم ، لأنّ رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه ، أو مكرهين من جهتهم. وروى أنها نزلت في الجدّ بن قيس

حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هذا مالى أعينك به فاتركنى إِنَّكُمْ تعليل لردّ إنفاقهم. والمراد بالفسق : التمرّد والعتو.

[سورة التوبة (9) : آية 54]

وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسالى وَلا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارِهُونَ (54)

أَنَّهُمْ فاعل منع. وهم ، وأن تقبل : مفعولاه. وقرئ : أن تقبل ، بالتاء والياء على البناء للمفعول. ونفقاتهم ، ونفقتهم ، على الجمع والتوحيد. وقرأ السلمى : أن يقبل منهم نفقاتهم ، على أن الفعل للّه عزّ وجلّ كُسالى بالضم والفتح ، جمع كسلان ، نحو سكارى وغيارى ، في جمع سكران وغيران ، وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثوابا ، ولا يخشون بتركها عقابا فهي ثقيلة عليهم كقوله تعالى وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ وقرأت في بعض الأخبار أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كره للمؤمن أن يقول : كسلت ، كأنه ذهب إلى هذه الآية ، فإنّ الكسل من صفات المنافقين ، فما ينبغي أن يسنده المؤمن إلى نفسه. فإن قلت : الكراهية خلاف الطواعية ، وقد جعلهم اللّه تعالى طائعين في قوله طَوْعاً ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون. قلت : المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أو من رؤسائهم ، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار، لا عن رغبة واختيار.

[سورة التوبة (9) : آية 55]

فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ (55)

الإعجاب بالشيء : أن يسرّ به سرور راض به متعجب من حسنه. والمعنى : فلا تستحسن ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا ، كقوله تعالى وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ فإن اللّه تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب ، بأن عرّضه للتغنم والسبي ، وبلاهم فيه بالآفات والمصائب ، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير ، وهم كارهون له على رغم أنوفهم ، وأذاقهم أنواع الكلف والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم. فإن قلت : إن صح تعليق التعذيب «1» بإرادة اللّه تعالى ، فما بال زهوق أنفسهم وَهُمْ كارِهُونَ؟ قلت : المراد الاستدراج بالنعم ، كقوله تعالى إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً كأنه قيل : ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ، ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة.

[سورة التوبة (9) : الآيات 56 إلى 57]

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57)

لَمِنْكُمْ لمن جملة المسلمين يَفْرَقُونَ يخافون القتل وما يفعل بالمشركين ، فيتظاهرون بالإسلام تقية مَلْجَأً مكاناً يلتجئون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة أَوْ مَغاراتٍ أو غيرانا. وقرئ بضم الميم ، من أغار الرجل وغار إذا دخل الغور. وقيل : هو تعدية غار الشيء وأغرته أنا ، يعني : أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم. ويجوز أن يكون من : أغار الثعلب ، إذا أسرع ، بمعنى مهارب ومفارّ أَوْ مُدَّخَلاً أو نفقا يندسون فيه وينجحرون ، وهو مفتعل من الدخول. وقرئ مدخلا من دخل ، ومدخلا من أدخل : مكانا يدخلون فيه أنفسهم. وقرأ أبى بن كعب رضى اللّه عنه : متدخلا وقرئ : لو ألوا إليه لالتجؤا إليه يَجْمَحُونَ يسرعون إسراعا لا يردّهم شيء ، من الفرس الجموح ، وهو الذي إذا حمل لم يردّه اللجام. وقرأ أنس رضى اللّه عنه : يجمزون. فسئل فقال : يجمحون ويجمزون ويشتدّون «2» واحد.

[سورة التوبة (9) : آية 58]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (58)

يَلْمِزُكَ يعيبك في قسمة الصدقات ويطعن عليك. قيل : هم المؤلفة قلوبهم. وقيل هو ابن ذى الخويصرة رأس الخوارج ، كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقسم غنائم حنين فقال :

اعدل يا رسول اللّه ، فقال صلوات اللّه عليه وسلامه «ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟ «3» وقيل :

هو أبو الجواظ ، من المنافقين ، قال : ألا ترون إلى صاحبكم! إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ،

(1). قوله «فان قلت إن صح تعليق ... الخ» مبنى على أنه تعالى لا يريد الشر ، وهو مذهب المعتزلة. وعند أهلى السنة : أنه يريده كالخير. (ع)
(2). قوله «و يجمزون ويشتدون» فيقال : جمز بالجيم يجمز بالكسر : أسرع ، وحمز بالحاء يحمز يضمها : اشتد اه صحاح فتدبر. (ع)
(3). متفق عليه من حديث أبى سعيد واللفظ للبخاري. ولهما : «إذ جاء ذو الخويصرة» وهو المحفوظ

وهو يزعم أنه يعدل ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «لا أبالك أما كان موسى راعياً أما كان داود راعياً» فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام «احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون»»

وقرئ : يلمزك بالضم ، ويلمزك ويلامزك. التثقيل والبناء على المفاعلة مبالغة في اللمز.

ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم ، لا للدين وما فيه صلاح أهله ، لأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه. وإذا للمفاجأة : أى وإن لم يعطوا منها فاجئوا للسخط.

[سورة التوبة (9) : آية 59]

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (59)
جواب «لو» محذوف تقديره : ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم. والمعنى : ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قلّ نصيبهم وقالوا كفانا فضل اللّه وصنعه ، وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا اللّه غنيمة أخرى فيؤتينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أكثر مما آتانا اليوم إِنَّا إِلَى اللَّهِ في أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون.

[سورة التوبة (9) : آية 60]

إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)

إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها «2» لا يتجاوزها إلى غيرها ، كأنه قيل : إنما هي لهم لا لغيرهم. ونحوه قولك. إنما الخلافة لقريش. تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها وأن تصرف إلى بعضها ، وعليه مذهب أبى حنيفة رضى اللّه عنه. وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين رضى اللّه عنهم أنهم قالوا : في أى صنف منها وضعتها أجزأك. وعن سعيد بن جبير رضى اللّه عنه : لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعففين فأبرتهم بها كان أحب إلىّ.

(1). لم أجده.
(2). قال محمود : «هذا قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها الخ» قال أحمد : وهو مذهب مالك رضى اللّه عنه ، والقول بوجوب صرفها إلى جميع الأصناف حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذا من إشعار اللام بالتمليك كما ذهب إليه الشافعي لا يساعده السياق فان الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على أن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً فهذا هو الغرض الذي سبقت له فلا اقتضاء فيها لما سواء واللّه أعلم.

وعند الشافعىّ رضى اللّه عنه ، لا بدّ من صرفها إلى الأصناف الثمانية. وعن عكرمة رضى اللّه عنه. أنها تفرّق في الأصناف الثمانية. وعن الزهري أنه كتب لعمر ابن عبد العزيز تفريق الصدقات على الأصناف الثمانية وَالْعامِلِينَ عَلَيْها السعاة الذين يقبضونها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ أشراف من العرب كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يستألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئاً منها حين كان في المسلمين قلة. والرقاب : المكاتبون يعانون منها. وقيل : الأسارى. وقيل : تبتاع الرقاب فتعتق وَالْغارِمِينَ الذين ركبتهم الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب. وقيل الذين تحملوا الحمالات فتداينوا فيها وغرموا وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ فقراء الغزاة والحجيج المنقطع بهم وَابْنِ السَّبِيلِ المسافر المنقطع عن ماله فهو فقير حيث هو غنىّ حيث ماله فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ في معنى المصدر المؤكد ، لأنّ

قوله إنما الصدقات للفقراء معناه فرض اللّه الصدقات لهم. وقرئ فريضة بالرفع على : تلك فريضة. فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى «في» في الأربعة الأخيرة «1»؟ قلت : للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأنّ «في» للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر ، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال ، وتكرير «في» في قوله وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين. فإن قلت : فكيف وقعت هذه الآية في تضاعف ذكر المنافقين ومكايدهم؟

(1). عاد كلامه. قال : فان قلت لم عدل عن اللام إلى في في الأربعة الأخيرة ... الخ» قال أحمد : وثم سر آخر هو أظهر وأقرب وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكا ، فكان دخول اللام لائقا بهم. وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم ، بل ولا يصرف إليهم. ولكن في مصالح تتعلق بهم ، فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون ، فليس نصيبهم مصروفا إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به ، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم لا لهم. وأما سبيل اللّه فواضح فيه ذلك. وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجا في سبيل اللّه ، وإنما أفرد بالذكر تنبيها على خصوصيته ، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً ، وعطفه على المجرور باللام ممكن ، ولكنه على القريب منه أقرب واللّه أعلم. وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجها في الاستدلال لما لك على أن الغرض بيان المصرف ، واللام لذلك لام الملك، فيقول : متعلق الجار الواقع خبرا عن الصدقات محذوف ، فيتعين تقديره ، فاما أن يكون التقدير : إنما الصدقات مصروفة لفقراء ، كقول مالك : أو مملوكة للفقراء ، كقول الشافعي ، لكن الأول متعين ، لأنه تقدير يكتفى به في الحرفين جميعاً يصح تعلق اللام به وفي معا ، فيصح أن تقول : هذا الشيء مصروف في كذا وكذا ، بخلاف تقديره مملوكة ، فانه إنما يلتئم مع اللام ، وعند الانتهاء إلى «في» يحتاج إلى تقدير مصروفة ليلتئم بها ، فتقديره من اللام عام التعلق ، شامل الصحة ، متعين ، واللّه الموفق. [.....]

قلت : دل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم ، حسما لأطماعهم وإشعاراً باستيجابهم الحرمان ، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها ، فما لهم وما لها؟ وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها صلوات اللّه عليه وسلامه؟.

[سورة التوبة (9) : آية 61]

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (61)

الأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع «1» ويقبل قول كل أحد ، سمى بالجارحة التي هي آلة السماع ، كأنّ جملته أذنٌ سامعة ، ونظيره قولهم للربيئة «2». عين. وإيذاؤهم له : هو قولهم فيه هُوَ أُذُنٌ. وأذن خير ، كقولك: رجل صدق ، تريد الجودة والصلاح. كأنه قيل : نعم هو أذن ولكن نعم الأذن. ويجوز أن يريد : هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله ، وليس بأذن في غير ذلك ودلّ عليه قراءة حمزة وَرَحْمَةٌ بالجرّ عطفاً عليه أى : هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله. ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق باللّه ، لما قام عنده من الأدلة ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار ، وهو رحمة لمن آمن منكم ، أى أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر ، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم ، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين ، مراعاة لما رأى اللّه من المصلحة في الإبقاء عليكم ، فهو أذن كما قلتم ، إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه ، لا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه ، وإن كانوا قصدوا به المذمّة والتقصير بفطنته وشهامته ، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرّة.

وقيل : إنّ جماعة منهم ذمّوه صلوات اللّه عليه وسلامه وبلغه ذلك ، فاشتغلت قلوبهم فقال بعضهم : لا عليكم ، فإنما هو أذن سامعة قد سمع كلام المبلغ فأذن ، ونحن نأتيه ونعتذر إليه فيسمع عذرنا أيضاً فيرضى ، فقيل : هو أذن خير لكم. وقرئ : أذن خير لكم ، على أن أذن خبر مبتدإ محذوف ، وخير كذلك ، أى هو أذن هو خير لكم يعنى إن كان كما تقولون فهو خير لكم ،

(1). قال محمود : «الأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ... سمى الرجل بالجارحة التي هي آلة السماع ... الخ» قال أحمد : لا شيء أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه لأنه في الأول إطماع لهم بالموافقة ، ثم كر على طمعهم بالحسم واعقبهم في تنقصه باليأس منه ، ويضاهي هذا من مستعملات الفقهاء : القول بالموجب ، لأن في أوله إطماعا للحصم بالتسليم ، ثم بتا الطمع على قرب ، ولا شيء أقطع من الاطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه ، واللّه الموفق.
(2). قوله «الربيئة» في الصحاح : الربيئة الطليعة. (ع)

لأنه يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء دخلتكم «1». وقرأ نافع بتخفيف الذال. فإن قلت : لم عدّى فعل الإيمان بالباء إلى اللّه تعالى ، وإلى المؤمنين باللام؟ قلت : لأنه قصد التصديق باللّه الذي هو نقيض الكفر به ، فعدّى بالباء وقصد السماع من المؤمنين ، وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدّقه ، لكونهم صادقين عنده ، فعدّى باللام ألا ترى إلى قوله وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ ما أنبأه «2» عن الباء. ونحوه : فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ، آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ. فإن قلت : ما وجه قراءة ابن أبي عبلة : ورحمة بالنصب؟ قلت : هي علة معللها محذوف تقديره : ورحمة لكم يأذن لكم ، فحذف لأنّ قوله أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يدل عليه.

[سورة التوبة (9) : آية 62]

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (62)

لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم ، فقيل لهم : إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم اللّه ورسوله بالطاعة والوفاق. وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا اللّه ورضا رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، فكانا في حكم مرضىّ واحد ، كقولك : إحسان زيد وإجماله نعشنى وجبر منى. أو واللّه أحق أن يرضوه ، ورسوله كذلك.

[سورة التوبة (9) : آية 63]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63)

المحادّة مفاعلة من الحدّ كالمشاقة من الشقّ فَأَنَّ لَهُ على حذف الخبر ، أى. فحق أن له نارَ جَهَنَّمَ وقيل. معناه فله، وأنّ : تكرير ، لأن في قوله أَنَّهُ تأكيداً ، ويجوز أن يكون فَأَنَّ لَهُ معطوفا على أنه ، على أن جواب مَنْ محذوف تقديره : ألم يعلموا أنه من يحادد اللّه ورسوله يهلك فأن له نار جهنم. وقرئ : ألم تعلموا بالتاء

(1). قوله «على سوء دخلتكم» أى مذمتكم. وفي الصحاح أن دخلة الرجل بالضم : باطن أمره اه ، ولعلها غلبت في المذمة. (ع)
(2). قوله «ما أنباه عن الباء ونحوه» أى : ما أبعده. (ع)

[سورة التوبة (9) : آية 64]

يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (64)

كانوا يستهزؤن بالإسلام وأهله وكانوا يحذرون أن يفضحهم اللّه بالوحي فيهم ، حتى قال بعضهم : واللّه لا أرانا إلا شر خلق اللّه ، لوددت أنى قدمت فجلدت مائة جلدة ، وأن لا ينزل فينا شيء يفضحنا. والضمير في عليهم وتنبئهم للمؤمنين. وفي قلوبهم : للمنافقين. وصحّ ذلك لأن المعنى يقود إليه. ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين، لأن السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم. ومعنى تنبئهم بما في قلوبهم ، كأنها تقول لهم : في قلوبكم كيت وكيت ، يعنى أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها. وقيل : معنى يحذر : الأمر بالحذر ، أى ليحذر المنافقون. فإن قلت : الحذر واقع على إنزال السورة في قوله : يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ فما معنى قوله مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ؟ قلت : معناه محصل مبرز إنزال السورة. أو أنّ اللّه مظهر ما كنتم تحذرونه ، أى تحذرون إظهاره من نفاقكم.

[سورة التوبة (9) : الآيات 65 إلى 66]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (65) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (66)

بينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشأم وحصونه ، هيهات هيهات ، فأطلع اللّه نبيه عليه السلام على ذلك فقال : احبسوا علىّ الركب ، فأتاهم فقال : قلتم كذا وكذا ، فقالوا :

يا نبى الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك ، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر «1» أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه ، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم ، وبأنه موجود منهم ، حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء ، حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير ، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته لا تَعْتَذِرُوا لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة ، فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم قَدْ كَفَرْتُمْ قد ظهر كفركم باستهزائكم بَعْدَ إِيمانِكُمْ بعد إظهاركم الإيمان إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ مصرين على النفاق غير تائبين منه.

(1). ذكره الواحدي عن قتادة بغير سند ، ووصله الطبري.

أو إن نعف عن طائفة منكم لم يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستهزءوا فلم نعذبهم في العاجل ، نعذب في العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذين لرسول الله صلى الله عليه وسلم مستهزئين. وقرأ مجاهد : إن تعف عن طائفة على البناء للمفعول مع التأنيث ، والوجه التذكير ، لأن المسند إليه الظرف ، كما تقول : سير بالدابة ، ولا تقول : سيرت بالدابة ، ولكنه ذهب إلى المعنى ، كأنه قيل : إن ترحم طائفة «فأنث لذلك وهو غريب ، والجيد قراءة العامّة : إن يعف عن طائفة ، بالتذكير. وتعذب طائفة ، بالتأنيث. وقرئ : إن يعف عن طائفة يعذب طائفة ، على البناء للفاعل وهو الله عزّ وجل.

[سورة التوبة (9) : الآيات 67 إلى 68]

الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (68)

بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أريد به نفى أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وتقرير قوله وَما هُمْ مِنْكُمْ ثم وصفهم بما يدل على مضادّة حالهم لحال المؤمنين يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ بالكفر والمعاصي وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ عن الإيمان والطاعات وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ شحا بالمبارّ والصدقات والإنفاق في سبيل الله نَسُوا اللَّهَ أغفلوا ذكره فَنَسِيَهُمْ فتركهم من رحمته وفضله هُمُ الْفاسِقُونَ هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير ، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين حين بالغ في ذمهم ، وإذا كره رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول كسلت «1» ، لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله كُسالى فما ظنك بالفسق خالِدِينَ فِيها مقدّرين الخلود هِيَ حَسْبُهُمْ دلالة على عظم عذابها ، وأنه لا شيء أبلغ منه ، وأنه بحيث لا يزاد عليه ، نعوذ بالله منسخطه وعذابه وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وأهانهم من التعذيب ، وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين ، كما عظم أهل الجنة وألحقهم بالملائكة «2» المكرمين وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ ولهم نوع من العذاب سوى الصلى بالنار ، مقيم دائم كعذاب النار. ويجوز أن يريد :

(1). تقدم في أواخر البقرة.
(2). قوله «و ألحقهم بالملائكة» مبنى على مذهب المعتزلة ، من تفضيل الملك على البشر. (ع)

ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه ، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق ، والظاهر المخالف للباطن ، خوفا من المسلمين وما يحذرونه أبداً من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

[سورة التوبة (9) : آية 69]

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (69)

الكاف محلها رفع على : أنتم مثل الذين من قبلكم. أو نصب على : فعلتم مثل ما فعل الذين من قبلكم وهو أنكم استمتعتم وخضتم كما استمتعوا وخاضوا. ونحوه قول النمر :

كَالْيَوْمِ مَطْلُوباً وَلَا طَلَبَا «1»

بإضمار «لم أر» وقوله كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً تفسير لتشبيههم بهم ، وتمثيل فعلهم بفعلهم.

والخلاق : النصيب ، وهو ما خلق للإنسان ، أى قدّر من خير ، كما قيل له «قسم» لأنه قسم.

ونصيب ، لأنه نصب ، أى أثبت. والخوض : الدخول في الباطل واللهو كَالَّذِي خاضُوا كالفوج الذي خاضوا ، وكالخوض الذي خاضوه. فإن قلت : أى فائدة في قوله فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ وقوله كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ مغن عنه كما أغنى قوله كَالَّذِي خاضُوا عن أن يقال : وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا؟ قلت : فائدته أن يذم الأوّلين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها ، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة ، وأن يخسس أمر الاستمتاع ويهجن أمر الرضى به ، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون ، كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل فعله. وأما وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن باستناده إليه عن تلك التقدمة حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ نقيض قوله وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

(1) حتى إذا الكلاب قال لها كاليوم مطلوباً ولا طلباً
لأوس بن حجر. وقيل : للنمر بن تولب ، وفيه حذف لا يستقيم إلا به ، أى قال لها : لم أنظر كاليوم مطلوباً ، والضمير لكلبة الصيد. والكلاب : معلم الكلاب أو الصياد بها ، أى ليس المطلوب والطلب في هذا اليوم مثلهما في غيره بل أعظم ، ولعل المراد بالطلب الطالب ، ثم يحتمل أن هذا مقول القول ، ويحتمل أنه جواب إذا ومقول القول محذوف ، إشارة إلى سرعتها : أى قال لها : اذهبي مثلا.

[سورة التوبة (9) : آية 70]

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)

وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وأهل مدين وهم قوم شعيب وَالْمُؤْتَفِكاتِ مدائن قوم لوط. وقيل : قريات قوم لوط وهود وصالح ، وائتفاكهنّ : انقلاب أحوالهنّ عن الخير إلى الشر فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ فما صحّ منه أن يظلمهم وهو حكيم لا يجوز عليه القبيح وأن يعاقبهم بغير جرم ، ولكن ظلموا أنفسهم حيث كفروا به فاستحقوا عقابه.

[سورة التوبة (9) : الآيات 71 إلى 72]

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(72)

بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ في مقابلة قوله في المنافقين بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ. سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة ، فهي تؤكد الوعد ، كما تؤكد الوعيد في قولك : سأنتقم منك يوماً ، تعنى أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك ، ونحوه سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى ، سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ. عَزِيزٌ غالب على كل شيء قادر عليه ، فهو يقدر على الثواب والعقاب حَكِيمٌ واضع كلا موضعه على حسب الاستحقاق وَمَساكِنَ طَيِّبَةً عن الحسن قصوراً من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد. وعَدْنٍ علم ، بدليل قوله جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ ويدل عليه ما روى أبو الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر ، لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون ، والصدّيقون ، والشهداء. يقول الله تعالى : طوبى لمن دخلك» «1» وقيل : هي مدينة في الجنة.

(1). أخرجه البزار من طريق زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عنه ، وقال : لا نعلمه إلا من هذا الوجه وزيادة لا يعلم وروى عنه غير الليث وأخرجه الطبراني والدارقطني في المؤتلف وابن مردويه من هذا الوجه.

وقيل : نهر جناته على حافاته وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله ، لأنّ رضاه هو سبب كل فوز وسعادة ، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته ، والكرامة أكبر أصناف الثواب ، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم ، وإنما تتهنأ له برضاه ، كما إذا علم بسخطته تنغصت عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت. وسمعت بعض أولى الهمة البعيدة والنفس المرّة «1» من

مشايخنا يقول : لا تطمح عينى ولا تنازع نفسي إلى شيء مما وعد اللّه في دار الكرامة ، كما تطمح وتنازع إلى رضاه عنى ، وأن أحشر في زمرة المهديين المرضيين عنده ذلِكَ إشارة إلى ما وعد اللّه ، أو إلى الرضوان : أى هو الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وحده دون ما يعدّه الناس فوزاً. وروى «أن اللّه عز وجلّ يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا : وأى شيء أفضل من ذلك؟ قال : أُدخل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا» «2»

[سورة التوبة (9) : آية 73]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73)

جاهِدِ الْكُفَّارَ بالسيف وَالْمُنافِقِينَ بالحجة «3» وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ في الجهادين جميعاً ، ولا تحابهم وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه ، يجاهد بالحجة ، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها. عن ابن مسعود: إن لم يستطع بيده فبلسانه ، فإن لم يستطع فليكفهرّ في وجهه «4» فإن لم يستطع فبقلبه «5». يريد الكراهة والبغضاء والتبرأ منه. وقد حمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها.

[سورة التوبة (9) : آية 74]

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (74)

(1). قوله «و النفس المرة» أى القوية الشديدة العقل ، من المرة بالكسر ، وهي القوة وشدة العقل ، كما في الصحاح. (ع)
(2). متفق عليه من حديث أبى سعيد.
(3). قال محمود : «معناه جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة ... الخ» قال أحمد : والحمد للّه الذي أنطقه بالحجة لنا في إغلاظنا عليه أحيانا ، واللّه الموفق.
(4). قوله «فليكفهر في وجهه» في الصحاح «اكفهر الرجل» إذا عبس. (ع)
(5). أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية عمرو بن أبى جندب عنه. [.....]

أقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ، ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم ، منهم الجلاس بن سويد. فقال الجلاس : واللّه لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا ، فنحن شر من الحمير. فقال عامر بن قيس الأنصارى للجلاس : أجل ، واللّه إنّ محمداً لصادق وأنت شرّ من الحمار. وبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فاستحضر فحلف باللّه ما قال : فرفع عامر يده فقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق «1» فنزلت يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا فقال الجلاس : يا رسول اللّه ، لقد عرض اللّه علىّ التوبة. واللّه لقد قلته وصدق عامر ، فتاب الجلاس وحسنت «2» توبته وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وهو الفتك برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وذلك عند مرجعه من تبوك : تواثق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل ، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها ، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلاح ، فالتفت فإذا قوم متلثمون ، فقال : إليكم إليكم يا أعداء اللّه «3» ، فهربوا.

(1). قوله «تصديق الكاذب وتكذيب الصادق» لعله تصديق الصادق وتكذيب الكاذب. ويمكن أنه جعل نفسه كاذبا ، والجلاس صادقا ، لأنه مقتضى ظاهر الحلف. (ع)
(2). أخرجه الثعلبي عن الكلبي بغير سند لكن سنده إليه أول الكتاب. وروى ابن سعد وعبد الرزاق والطبري من رواية هشام بن عروة عن أبيه قال : كانت أم عمير بنت سعيد عند الجلاس بن سويد. فقال الجلاس بن سويد في غزوة تبوك إن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير. فقال له عامر بن قيس الأنصارى ، وهو ابن عمه - فذكره. وكذا ذكره موسى بن عقبة في المغازي ليس فيه كانت أم عمير إلى آخره ، بل أوله في قصة تبوك إلى أن قال :
وقال الجلاس حين سمع ما أنزل اللّه في المنافقين.
(3). أخرجه أحمد من حديث أبى الطفيل قال «لما قفل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من غزوة تبوك أمر مناديا ينادى لا يأخذن العقبة أحد ، فان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يسير وحده ، فكان النبي صلى اللّه عليه وسلم يسير وحذيفة رضى اللّه عنه يقود به ، وعمار رضى اللّه عنه يسوق به. فأقبل رهط متلثمين على الرواحل حتى غشوا النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فرجع عمار فضرب وجوه الرواحل. فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم لحذيفة : قد قد - فلحقه عمار فقال : سق سق حتى أناخ. فقال لعمار : هل تعرف القوم فقال : لا ، كانوا متلثمين. وقد عرفت علمة الرواحل. فقال : أتدري ما أرادوا برسول اللّه؟ قلت : اللّه ورسوله أعلم. فقال : أرادوا أن يمكروا برسول اللّه فطرحوه من العقبة. فلما كان بعد ذلك وقع بين عمار رضى اللّه عنه وبين رجل منهم شيء مما يكون بين الناس.

فقال : أنشدكم اللّه ، كم أصحاب العقبة الذين أرادوا أن يمكروا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فقال : ترى أنهم أربعة عشر ، فان كنت فيهم فهم خمسة عشر» ومن هذا الوجه رواه الطبراني والبزار وقال روى من طريق عن حذيفة وهذا أحسنها وأصلحها إسنادا. ورواه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البختري عن حذيفة بن اليمان. قال : كنت آخذا بخطام ناقة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أقود به. وعمار رضى اللّه عنه يسوق الناقة حتى إذا كنا بالعقبة وإذا اثنى عشر راكبا قد اعترضوه فيها قال :
فانتهت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فصرخ بهم فولوا مدبرين.

وقيل :همّ المنافقون بقتل عامر لردّه على الجلاس. وقيل : أرادوا أن يتوّجوا عبد اللّه بن أبىّ وإن لم يرض رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم وَما نَقَمُوا وما أنكروا وما عابوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى ، فأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بديته اثنى عشر ألفاً فاستغنى فَإِنْ يَتُوبُوا هي الآية التي تاب عندها الجلاس فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ بالقتل والنار.

[سورة التوبة (9) : الآيات 75 إلى 77]

وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ(77)

روى أنّ ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول اللّه ، ادع اللّه أن يرزقني مالا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «يا ثعلبة ، قليل تؤدّى شكره خير من كثير لا تطيقه «1»» فراجعه وقال : والذي بعثك بالحق لئن رزقني اللّه مالا لأعطينّ كل ذى حق حقه ، فدعا له ، فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة ، فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة ، فسأل عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقيل : كثر ماله حتى لا يسعه واد. قال : يا ويح ثعلبة ، فبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مصدّقين لأخذ الصدقات ، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ، ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الذي فيه الفرائض ، فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، وقال : ارجعا حتى أرى رأيى ، فلما رجعا قال لهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قبل أن يكلماه : يا ويح ثعلبة مرّتين ، فنزلت ، فجاءه ثعلبة بالصدقة ، فقال : إنّ اللّه منعني أن أقبل منك ،

(1). أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل والشعب وابن أبى حاتم والطبري وابن مردويه كلهم من طريق على بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أمامة. وهذا إسناد ضعيف جدا. فقال السهيلي عن ابن إسحاق ثعلبة بن حاطب قمر البدريين. وعن ابن إسحاق أيضا في المنافقين وذكر هذه الآية التي نزلت فيه. فلعلهما اثنان.

فجعل التراب على رأسه فقال : هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني ، فقبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فجاء بها إلى أبى بكر رضي اللّه عنه فلم يقبلها ، وجاء بها إلى عمر رضى اللّه عنه في خلافته فلم يقبلها ، وهلك في زمان عثمان رضى اللّه عنه. وقرئ «لنصدقن ولنكونن» بالنون الخفيفة فيهما مِنَ الصَّالِحِينَ قال ابن عباس رضى اللّه عنه : يريد الحج فَأَعْقَبَهُمْ عن الحسن وقتادة رضى اللّه عنهما : أنّ الضمير للبخل. يعنى : فأورثهم البخل نِفاقاً متمكنا فِي قُلُوبِهِمْ لأنه كان سببا فيه وداعياً إليه. والظاهر أن الضمير للّه عزّ وجل. والمعنى : فخذلهم حتى نافقوا «1».

وتمكن في قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا اللّه من التصدّق والصلاح وكونهم كاذبين. ومنه : جعل خلف الوعد ثلث النفاق. وقرئ : يكذبون ، بالتشديد.

وأ لم تعلموا ، بالتاء. عن علىّ رضى اللّه عنه.

[سورة التوبة (9) : آية 78]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (78)

سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ ما أسرّوه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين ، وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها.

[سورة التوبة (9) : آية 79]

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (79)

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ محله النصب أو الرفع على الذمّ. ويجوز أن يكون في محل الجرّ بدلا من الضمير في سرهم ونجواهم. وقرئ : يلمزون ، بالضم الْمُطَّوِّعِينَ المتطوّعين المتبرعين.

روى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حثّ على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب. وقيل : بأربعة آلاف درهم وقال : كان لي ثمانية آلاف ، فأقرضت ربى أربعة وأمسكت أربعة لعيالي ، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : بارك اللّه لك فيما أعطيت وفيما أمسكت «2» فبارك اللّه له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً ،

(1). قوله «و المعنى فخذلهم حتى نافقوا» فسره بذلك على مذهب المعتزلة ، من أنه تعالى لا يخلق الشر. (ع)
(2). أخرجه ابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس في قوله الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - الآية قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية. من ذهب إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وجاء رجل من الأنصار بصاع من تمر. فقال بعض المنافقين واللّه ما جاء عبد الرحمن بن عوف بما جاء به إلا رياء وإن كان اللّه ورسوله لغنيين عن هذا الصاع. ومن طريق عطية العوفى. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال «خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوما إلى الناس ، فنادى فيهم : أن اجمعوا صدقاتكم. فجمع الناس صدقاتهم. وجاء رجل بصاع من تمر. فقال : يا رسول اللّه بت ليلتي أجر بالجرير - الحديث. وجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول اللّه مالى ثمانية آلاف ، فأربعة آلاف لي ، وأربعة آلاف أقرضها ربى - فذكره» وقال عبد الرزاق في تفسيره أخبرنا معمر عن قتادة قال : تصدق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله. وكان له ثمانية آلاف دينار. فتصدق بأربعة آلاف دينار. فقال أناس من المنافقين : إن عبد الرحمن لعظيم الرياء. فقال اللّه عز وجل الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ وكان لرجل من الأنصار صاعان من تمر. فجاء بأحدهما. فقال أناس من المنافقين : إن كان اللّه لغنيا عن صاع هذا.
فقال اللّه عز وجل إِلَّا جُهْدَهُمْ وروى البزار من رواية عمر بن أبى مسلمة عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «تصدقوا فانى أريد أن أبعث بعثا فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول اللّه ، عندي أربعة آلاف درهم ألفان أقرضها ربى وألفان لعيالي - الحديث» وفيه «و بات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من نمر» أخرجه عن طالوت بن عبادة عن أبى عوانة عنه وقال : تفرد طالوت بوصله ثم رواه عن أبى كامل عن أبى عوانة ومن طريقه ابن مردويه وفي المغازي بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدى فتصدق بمائة وسق من تمر فألقاه في الصدقة فتضاحكوا به وقالوا : إن اللّه لغنى عن صاع أبى عقيل» انتهى وقصة أبى عقيل أخرجها إبراهيم الحربي والطبراني والطبري من رواية خالد بن يسار عن ابن أبى عقيل عن أبيه قال «بت أجر الجرير على ظهري على صاعين من تمر - الحديث» وفي إسناده موسى بن عبدة وهو ضعيف قلت : قصة أبى عقيل أخرجها البخاري من حديث أبى مسعود الأنصارى باختصار وفيه «جاء إنسان آخر بأكثر من ذلك» وفي رواية : بشيء كثير.

وتصدّق عاصم بن عدىّ بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصارى رضى اللّه عنه بصاع من تمر فقال : بت ليلتي أجرّ بالجرير «1» على صاعين ، فتركت صاعا لعيالي ، وجئت بصاع فأمره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن ينثره على الصدقات ، فلمزهم المنافقون وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن كان اللّه ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ، ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات ، فنزلت إِلَّا جُهْدَهُمْ إلا طاقتهم. قرئ بالفتح والضم سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ كقوله : اللّه يستهزئ بهم في أنه خبر غير دعاء. ألا ترى إلى قوله وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.

[سورة التوبة (9) : آية 80]

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (80)

سأل عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبىّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - وكان رجلا صالحا - أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل ، فنزلت ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إنّ اللّه قد رخص لي فسأزيد على السبعين» «2»

(1). قوله «بالجرير» هو حبل البعير. ويروى : أجر بالجرير الماء كذبها ، من أجر. (ع)
(2). لم أجده بهذا السياق وأصله في المتفق عليه عن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال «لما توفى عبد اللّه بن أبى جاء ابنه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام يصلى عليه فأخذ عمر رضى اللّه عنه بثوبه فقال : أتصلي عليه وقد نهاك اللّه أن تصلى عليه فقال إنما خيرنى فقال : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ الآية وسأزيده على السبعين فصلى عليه فأنزل اللّه تعالى وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً فتركت الصلاة عليهم - لفظ مسلم

فنزلت سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وقد ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر ، «1» كأنه قيل : لن يغفر اللّه لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، وإن فيه معنى الشرط ، وذكرنا النكتة في المجيء به على لفظ الأمر ، والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير ، قال علىّ بن أبى طالب عليه السلام :

لَأَصْبَحَنَّ الْعَاصِ وَابْنَ الْعَاصِى سَبْعِينَ أَلْفاً عَاقِدِى النَّوَاصِى «2»

فإن قلت : كيف خفى على رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام «3» وتمثيلاته ، والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار ، كيف وقد تلاه بقوله ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا ... الآية فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال : «قد رخص لي ربى فسأزيد على السبعين» قلت : لم يخف عليه ذلك، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه ، كقول إبراهيم عليه السلام وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وفي إظهار النبي صلى اللّه عليه وسلم الرأفة والرحمة : لطف لأمّته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض.

---

(1). قال محمود : «قد ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر ... الخ» قال أحمد : وما يدعيه الزمخشري في هذا وأمثاله من محذوف هو المقصود بالأمر وهذا واقع موقعه ، كقول كثير عزة. أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة.
كأنه يقول لها : امتحنى محلك عندي وقوة محبتي لك ، وعامليني بالاساءة والإحسان ، وانظري هل يتفاوت حالى معك مسيئة أو محسنة؟ وكذلك معنى الآية اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وانظر هل يغفر لهم في حالتي الاستغفار وتركه؟
وهل يتفاوت الحالان أولا؟ قال أحمد : وقد ورد بصيغة الخبر في الآية الأخرى في قوله تعالى سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ.
(2) لأصبحن العاصي وابن العاصي سبعين ألفاً عاقدى النواصي
مستحقبين حلق الدلاص قد جنبوا الخيل مع القلاص
آساد محل حين لا مناص
لعلى بن أبى طالب رضى اللّه عنه في عمرو بن العاص. وصبحه : سقاء الصبوح وقت الصباح. ويروى «لأصحبن» من الصحبة ولعله تحريف. شبه إنالة المكروه بانالة المحبوب على سبيل التهكم ، فهو استعارة تصريحية تهكمية. ويجوز أنه شبه الفرسان لإتيانهم صباحا بالصبوح على سبيل المكنية التهكمية. ولأصبحن : تخييل. وسبعين ألفاً : مفعول ثانى. والمراد به الكثرة. والعاقدين : جمع عاقد، والمراد : نواصي خيلهم أو أطراف عمائمهم من خلفهم أو شعور رؤوسهم. وعقد الناصية من أمارات الشجاعة والاشاحة في القتال. والحقاب : ما تلفه المرأة على وسطها ، ويطلق على ذات وسطها. والحقيبة : خرج صغير خلف الراكب. والحلق - بالكسر - : جمع حلقة. والدلاص : الدرع الملساء المضيئة ، يوصف به الواحد والجمع. فالمعنى : أنهم لابسون الدروع. أولا شيء في حقائبهم غيرها. والقلاص فتيات الإبل : أى جمعوا بين النوعين ، وجعلهم كآساد المحل ، أى الجدب ، ليفيد أنهم جياع وعطاش إلى لحوم الأعداء ودمائهم ، وحق اسم «لا» أن يبنى على الفتح ، فيجوز أنه كسره القافية. والأوجه أنه الاسم بمعنى غير كما في الصحاح ، أو حين غير مناص ، أو بنى على الكسر لنية الاضافة. وشبهه بنزال ، أو هو مجرور بمن الاستغراقية مقدرة كما مر في «و لات أوان» ويجوز - على بعد - أن يكون في الكلام مضاف محذوف ، أى لا حين لا وقت مناص ، أى تأخر عن الحرب ، ويمكن أن «لا» زائدة بين المتضايفين ، كافى «بثرلا حور سرى» أى حين مناص الفرسان وفرارهم.
(3). عاد كلامه. قال : فان قلت كيف خفى على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو أفصح من نطق بالضاد ...
الخ» قال أحمد : وقد أنكر القاضي رضى اللّه عنه حديث الاستغفار ولم يصححه ، وتعالى قوم في قبوله حتى إنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة ، وبنوه على أنه عليه السلام فهم من تحديد نفى الغفران بالسبعين ثبوت الغفران بالزائد عليه ، وذلك سبب إنكار القاضي عليهم.

[سورة التوبة (9) : آية 81]

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (81)

الْمُخَلَّفُونَ الذين استأذنوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من المنافقين فأذن لهم وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك ، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان بِمَقْعَدِهِمْ بقعودهم عن الغزو خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ خلفه. يقال : أقام خلاف الحي ، بمعنى بعدهم ظعنوا ولم يظعن معهم ، وتشهد له قراءة أبى حيوة : خلف رسول اللّه. وقيل : هو بمعنى المخالفة لأنهم خالفوه حيث قعدوا ونهض ، وانتصابه على أنه مفعول له أو حال ، أى قعدوا لمخالفته أو مخالفين له أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ تعريض بالمؤمنين وبتحملهم المشاق العظام لوجه اللّه تعالى وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل اللّه تعالى وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض.

وكره ذلك المنافقون. وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الايمان وداعى الإيقان قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا استجهال لهم ، لأن من تصوّن من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصوّن في مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل : ولبعضهم :

مَسَرَّةُ أحْقَابٍ تَلَقَّيْتُ بَعْدَهَا مَسَاءَةَ يَوْمٍ أرْيُهَا شِبْهُ الصَّابِ

فَكَيْفَ بِأَنْ تَلْقَى مَسرَّةَ سَاعَةٍ وَرَاءَ تَقَضِّيهَا مَسَاءَةُ أحْقَابِ «1»

[سورة التوبة (9) : آية 82]

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (82)

معناه : فسيضحكون قليلا ، ويبكون كثيرا جَزاءً إلا أنه أخرج على لفظ الأمر ، للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره. يروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا ، لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم.

(1). للزمخشري. و«الأحقاب» الأزمان الكثيرة المتتابعة ، جمع حقب بالضم بمعنى الدهر. و«الأرى» العسل. و«الشبه» المثل. و«الصاب» نبت مر الطعم. وقيل : هو الحنظل يقول إن مسرة أزمان كثيرة ترى بعدها مساءة يوم واحد ، حالها الشبيه بالعسل هو في الحقيقة شبيه بالحنظل ، فكيف الحال بعكس ذلك؟.

[سورة التوبة (9) : آية 83]

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (83)

وإنما قال إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ لأنّ منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف ، أو اعتذر بعذر صحيح. وقيل : لم يكن المخلفون كلهم منافقين ، فأراد بالطائفة : المنافقين منهم فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ يعنى إلى غزوة بعد غزوة تبوك. وأَوَّلَ مَرَّةٍ هي الخروج إلى غزوة تبوك ، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذي علم اللّه أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق ، بخلاف غيرهم من المتخلفين مَعَ الْخالِفِينَ قد مرّ تفسيره. قرأ مالك بن دينار رحمه اللّه. مع الخلفين ، على قصر الخالفين. فإن قلت مَرَّةٍ نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل ، فلم ذكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال على واحدة من المرات؟ قلت : أكثر اللغتين : هند أكبر النساء ، وهي أكبرهنّ. ثم إنّ قولك : هي كبرى امرأة ، لا تكاد تعثر عليه. ولكن هي أكبر امرأة ، وأول مرة ، وآخر مرة. وعن قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا قيل فيهم ما قيل.

[سورة التوبة (9) : الآيات 84 إلى 85]

وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ (84) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ (85)

روى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم «1» فلما

(1). لم أجده هكذا فأما أوله وهو «كان يقوم ، إلى آخره» وأما قصة عبد اللّه ففي الجائز من المستدرك من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد قال «دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على عبد اللّه ابن أبى ليعوده في مرضه الذي مات فيه. فلما عرف فيه الموت قال له : أما واللّه إن كنت لأنهاك عن حب يهود فقال : قد أبغضتهم ، أسعد بن زرارة. فما نفعه ، فلما مات أتاه ابنه فقال : قد مات فأعطنى قميصك أكفنه فيه فنزع عليه الصلاة والسلام قميصه فأعطاه إياه» وأما قوله «بعثت إليك لتستغفر لي لا لتوبخنى» فزاده الطيراني من طريق معمر عن قتادة قال «أرسل عبد اللّه ابن أبى وهو مريض إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فلما دخل عليه قال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : أهلكك حب يهود. قال : يا رسول اللّه ، أرسالات إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتوبخنى ، وسأله قميصه أن يكفن فيه ، فأعطاه إياه فاستغفر له ومات فكفنه في قميصه ، ونفث في جلده ودلاه في قبره ، فأنزل اللّه تعالى وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وفي الدلائل البيهقي من طريق الواقدي بإسناده في هذه القصة قال :
فقال «ليس هذا بحين عتاب ، هو الموت ، فان مت فاحضر غسلي وأعطنى قميصك أكفن فيه فأعطاه ثم قال : وصل على واستغفر لي» وفي رواية له فقال له ابنه - وكان يقال له الحباب ، فسماه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عبد اللّه يا رسول اللّه أعطه قميصك الذي يلي جلدك» وأما قوله الحباب اسم شيطان فرواه ابن سعد والطبري من طريق عروة وغيره قال «لما ثقل عبد اللّه بن أبى انطلق ابنه فقال : إن أبى احتضر وأحب أن تشهده وتصلى عليه ، فقال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : ما اسمك؟ قال : الحباب بن عبد اللّه قال : بلى ، أنت عبد اللّه ، إن الحباب اسم شيطان ، قال : فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وصلى عليه وأما قول عمر فقد قدمنا أنه في الصحيحين.

مرض رأس النفاق عبد اللّه بن أبىّ بعث إليه ليأتيه ، فلما دخل عليه قال : أهلكك حب اليهود.

فقال : يا رسول اللّه بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبنى «1» وسأله أن يكفنه في شعاره الذي يلي جلده ويصلى عليه ، فلما مات دعاه ابنه حباب إلى جنازته ، فسأله عن اسمه فقال : أنت عبد اللّه ابن عبد اللّه. الحباب اسم شيطان. فلما همّ بالصلاة عليه قال له عمر : أتصلي على عدوّ اللّه ، فنزلت وقيل : أراد أن يصلى عليه فجذبه جبريل «2». فإن قلت : كيف جازت له تكرمة المنافق وتكفينه في قميصه؟ قلت : كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له. وذلك أن العباس رضى اللّه عنه عم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما أخذ اسيراً ببدر لم يجدوا له قميصاً وكان رجلا طوالا «3» ، فكساه عبد اللّه قميصه «4» وقال له المشركون يوم الحديبية : إنا لا نأذن لمحمد «5» ولكنا نأذن لك ، فقال : لا ، إن لي في رسول اللّه أسوة حسنة «6» فشكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم له ذلك ، وإجابة له إلى مسألته إياه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يرد سائلا ، وكان يتوفر على دواعي المروءة ويعمل بعادات الكرام ، وإكراماً لابنه الرجل الصالح ، فقد روى أنه قال له : أسألك أن تكفنه في بعض قمصانك ، وأن تقوم على قبره ، لا يشمت به الأعداء «7» ، وعلماً بأن تكفينه في قميصه لا ينفعه مع كفره ، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان ، وليكون إلباسه إياه لطفاً لغيره ،

(1). قوله «لا لتؤنبنى» أى تعنفني باللوم. [.....]
(2). أخرجه أبو يعلى من رواية يزيد الرقاشي عن أنس «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أراد أن يصلى على عبد اللّه بن أبى فأخذ جبريل بثوبه وقال وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ ويزيد ضعيف.
(3). قوله «و كان رجلا طوالا» في الصحاح : الطوال - بالضم : الطويل. (ع)
(4). أخرجه البخاري من رواية عمرو بن دينار سمع جابراً «لما كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس ، ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي صلى اللّه عليه وسلم قميصا. فوجدوا قميص عبد اللّه بن أبى يقدر عليه فكساه النبي صلى اللّه عليه وسلم إياه فلذلك نزع النبي صلى اللّه عليه وسلم قميصه الذي ألبسه. قال ابن عتبة كانت له عند النبي صلى اللّه عليه وسلم يد فأحب أن يكافئه. ورواه الحاكم في المستدرك من حديث جابر وأدرج فيه الكلام الأخير.
(5). قوله «إنا لا نأذن لمحمد» أى في دخوله مكة. (ع)
(6). أخرجه الواقدى في المغازي : حدثنا جابر بن سليم عن صفوان بن عثمان قال «كانت قريش يوم الحديبية أرسالات إلى عبد اللّه بن أبى : إن أحببت أن تدخل فتطوف فافعل. وابنه جالس عنده. فقال له ابنه : يا أبت اذكر اللّه أن تطوف بالبيت قبل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأبى ابن أبى وقال : لا أطوف حتى يطوف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فبلغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كلامه فسر».
(7). لم أجده. وأصل سؤال ابنه في الصحيح كما تقدم.

فقد روى أنه قيل له : لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال : «إنّ قميصي لن يغنى عنه من اللّه شيئاً ، وإن أؤمل في اللّه أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب» «1» فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «2» وكذلك ترحمه واستغفاره كان للدعاء إلى التراحم والتعاطف ، لأنهم إذا رأوه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك ، دعا المسلم إلى أن يتعطف على من واطأ قلبه لسانه ورآه حتما عليه. فإن قلت : فكيف جازت الصلاة عليه؟ قلت : لم يتقدم نهى عن الصلاة عليهم ، وكانوا يجرون مجرى المسلمين لظاهر إيمانهم ، لما في ذلك من المصلحة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : ما أدرى ما هذه الصلاة ، إلا أنى أعلم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا يخادع «3» ماتَ صفة لأحد. وإنما قيل : مات ، وماتوا بلفظ الماضي - والمعنى على الاستقبال - على تقدير الكون والوجود ، لأنه كائن موجود لا محالة إِنَّهُمْ كَفَرُوا تعليل للنهى ، وقد أعيد قوله وَلا تُعْجِبْكَ لأنّ تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده ، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه ، وأن يعتقد أن العمل به مهمّ يفتقر إلى فضل عناية به ، لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه ، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه.

[سورة التوبة (9) : الآيات 86 إلى 89]

وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ (86) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (87) لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89)

(1). لم أره هكذا ، وأصله أخرجه الطبري من رواية معمر عن قتادة قال ذكر لنا أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كلمه في ذلك. فقال : وما يغنى عنه قميصي من اللّه ، وإنى لأرجو أن يسلم به ألف من قومه».
(2). لم أره هكذا إلا في مرسل قتادة الذي قبله.
(3). أخرجه سعيد بن داود في تفسيره من طريقه. قال حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرنى الحكم بن أبان سمع عكرمة عن عباس قال «لما مرض عبد اللّه بن أبى مرضه الذي مات فيه قال للنبي صلى اللّه عليه وسلم امنن علي فكفني في قميصك وصل علي قال : فكفنه في قميصه وصلى عليه. قال ابن عباس : واللّه ما أدرى ما هذه الصلاة كانت : فاللّه أعلم ، وما خادع محمدا إنسان قط».

يجوز أن يراد السورة بتمامها ، وأن يراد بعضها في قوله وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه. وقيل هي براءة ، لأنّ فيها الأمر بالإيمان والجهاد أَنْ آمِنُوا هي أن المفسرة أُولُوا الطَّوْلِ ذوو الفضل والسعة ، من طال عليه طولا مَعَ الْقاعِدِينَ مع الذين لهم علة وعذر في التخلف فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاء والهلاك لكِنِ الرَّسُولُ أى إن تخلف هؤلاء فقد نهد «1» إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقداً ، كقوله فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً ، فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ. الْخَيْراتُ تتناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ. وقيل : الحور ، لقوله فِيهِنَّ خَيْراتٌ.

[سورة التوبة (9) : آية 90]

وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ(90)

الْمُعَذِّرُونَ من عذر في الأمر ، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ : وحقيقته أنه يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له : أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين ويجوز في العربية كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها لإتباع الميم. ولكن لم تثبت بهما قراءة ، وهم الذين يعتذرون بالباطل ، كقوله : يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم وقرئ. المعذرون ، بالتخفيف : وهو الذي يجتهد في العذر ويحتشد فيه ، قيل : هم أسد وغطفان. قالوا : إن لنا عيالا : وإن بنا جهدا فائذن لنا في التخلف. وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل قالوا : إن غزونا معك أغارت أعراب طيّ على أهالينا ومواشينا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : سيغنيني اللّه عنكم. وعن مجاهد.

نفر من غفار ، اعتذروا فلم يعذرهم اللّه تعالى : وعن قتادة : اعتذروا بالكذب : وقرئ : المعذرون بتشديد العين والذال ، من تعذر بمعنى اعتذر ، وهذا غير صحيح ، لأنّ التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاى والصاد ، في المطوّعين ، وأزكى وأصدق. وقيل : أريد المعتذرون بالصحة ، وبه فسر المعذرون والمعذرون ، على قراءة ابن عباس رضى اللّه عنه الذين لم يفرطوا في العذر وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ هم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا ، وظهر بذلك أنهم كذبوا اللّه ورسوله في ادعائهم الإيمان. وقرأ أبىّ : كذبوا ، بالتشديد سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ من الأعراب عَذابٌ أَلِيمٌ في الدنيا بالقتل ، وفي الآخرة بالنار

(1). قوله «فقد نهد» أى نهض ، كما في الصحاح. (ع)

[سورة التوبة (9) : الآيات 91 إلى 92]

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (92)

الضُّعَفاءِ الهرمى والزمنى. والذين لا يجدون : الفقراء. وقيل : هم مزينة وجهينة وبنو عذرة. والنصح للّه ورسوله : الإيمان بهما ، وطاعتهما في السر والعلن ، وتوليهما ، والحب والبغض فيهما كما يفعل الموالي الناصح بصاحبه عَلَى الْمُحْسِنِينَ على المعذورين الناصحين ، ومعنى : لا سبيل عليهم : لا جناح عليهم. ولا طريق للعاتب عليهم قُلْتَ لا أَجِدُ حال من الكاف في أَتَوْكَ وقد قبله مضمرة ، كما قيل في قوله أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أى إذا ما أتوك قائلا لا أجد تَوَلَّوْا ولقد حصر اللّه المعذورين في التخلف الذين ليس لهم في أبدانهم استطاعة ، والذين عدموا آلة الخروج ، والذين سألوا المعونة فلم يجدوها. وقيل «المستحملون» أبو موسى الأشعرى وأصحابه. وقيل البكاءون ، وهم ستة نفر من الأنصار تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ كقولك. تفيض دمعاً ، وهو أبلغ من يفيض دمعها ، لأنّ العين جعلت كأن كلها دمع فائض ، و«من» للبيان كقولك : أفديك من رجل ، ومحل الجار والمجرور النصب على التمييز أَلَّا يَجِدُوا لئلا يجدوا. ومحله نصب على أنه مفعول له ، وناصبه المفعول له الذي هو حزناً.

[سورة التوبة (9) : الآيات 93 إلى 94]

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (93) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94)

فإن قلت : رَضُوا ما موقعه؟ قلت : هو استئناف ، كأنه قيل : ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل : رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ يعني أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان اللّه تعالى إياهم. فإن قلت : فهل يجوز أن يكون قوله قُلْتَ لا أَجِدُ استئنافاً مثله ، كأنه قيل : إذا ما أتوك لتحملهم تولوا ، فقيل : ما لهم تولوا باكين؟ فقيل : قلت لا أجد ما أحملكم عليه. إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض «قلت» نعم ويحسن لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ علة للنهى عن الاعتذار ، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به ، فإذا علم أنه مكذب وجب عليه الإخلال «1» وقوله قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ علة لانتفاء تصديقهم لأنّ اللّه عز وجلَّ إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد ، لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ أتتيبون أم تثبتون على كفركم ثُمَّ تُرَدُّونَ إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية ، فيجازيكم على حسب ذلك.

[سورة التوبة (9) : آية 95]

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (95)

لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ فأعطوهم طلبتهم إِنَّهُمْ رِجْسٌ تعليل لترك معاتبتهم ، يعنى أنّ المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم ، إنما يعاتب الأديب ذو البشرة. والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه ، ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار.

وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ يعنى وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً ، فلا تتكلفوا عتابهم.

[سورة التوبة (9) : آية 96]

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (96)

لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ أى غرضهم في الحلف باللّه طلب رضاهم لينفعهم ذلك في دنياهم فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان اللّه ساخطاً عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها. وقيل إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضى رضا اللّه عنهم.

قيل : هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما ، وكانوا ثمانين رجلا منافقين فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم حين قدم المدينة ، لا تجالسوهم ولا تكلموهم. وقيل : جاء عبد اللّه ابن أبىّ يحلف أن لا يتخلف عنه أبداً.

(1). قوله «وجب عليه الإخلال» أى الترك. يقال : أخل الرجل بمركزه ، إذا تركه. (ع)

[سورة التوبة (9) : آية 97]

الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97)

الْأَعْرابُ أهل البدو أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم ، ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا وأحق بجهل حدود الدن وما أنزل اللّه من الشرائع والأحكام. ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم «1» «إن الجفاء والقسوة في الفدّادين» «2» وَاللَّهُ عَلِيمٌ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر حَكِيمٌ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ومخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه.

[سورة التوبة (9) : الآيات 98 إلى 99]

وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99)

مَغْرَماً غرامة وخسراناً. والغرامة : ما ينفقه الرجل وليس يلزمه ، لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء ، لا لوجه اللّه عزّ وجلّ وابتغاء المثوبة عنده وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ دوائر الزمان : دوله وعقبه «3» لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ دعاء معترض ، دعى عليهم بنحو ما دعوا به ، كقوله عز وجل وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وقرئ السوء بالضم وهو العذاب ، كما قيل له سيئة. والسوء بالفتح، وهو ذمّ للدائرة ، كقولك : رجل سوء ، في نقيض قولك : رجل صدق ، لأنَّ من دارت عليه ذامّ لها وَاللَّهُ سَمِيعٌ لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة عَلِيمٌ بما يضمرون. وقيل هم أعراب أسد وغطفان وتميم قُرُباتٍ مفعول ثان ليتخذ. والمعنى : أنّ ما ينفقه سبب لحصول القربات

(1). متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى في أثناء حديث فيه «و إن الجفاء وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل» كذا البخاري ولمسلم «إن القسوة وغلظ القلوب».
(2). قوله «و القسوة في الفدادين» الفدادين : هم الذين تعلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم. ورجل فداد : شديد الفديد. وهو الصوت : أفاده الصحاح. (ع)
(3). قال محمود : «دوائر الزمان : دوله ، وعقبه لتذهب غلبتكم عليه ... الخ» قال أحمد : وفي آية براءة مزيد على مناسبة الدعاء الحال المدعو عليهم ولقولهم ، وذلك أن الذي نسب إليهم تربص الدوائر مطلقاً والذي دعى عليهم به دائرة السوء على التقييد بأسوإ الدوائر لا على الإطلاق ، واللّه الموفق. [.....]

عند اللّه وَصَلَواتِ الرَّسُولِ لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ، كقوله «اللهم صل على آل أبى أو في «1»» وقال تعالى وَصَلِّ عَلَيْهِمْ فلما كان ما ينفق سبباً لذلك قيل : يتخذ ما ينفق قربات وصلوات أَلا إِنَّها شهادة من اللّه للمتصدق بصحة ما اعتقد ، من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف ، مع حرفى التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه ، وكذلك سَيُدْخِلُهُمُ وما في السين من تحقيق الوعد ، وما أدل هذا الكلام على رضا اللّه تعالى عن المتصدقين ، وأن الصدقة منه بمكان «2» إذا خلصت النية من صاحبها. وقرئ قُرْبَةٌ بضم الراء. وقيل : هم عبد اللّه وذو البجادين ورهطه.

[سورة التوبة (9) : آية 100]

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)

السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ هم الذين صلوا إلى القبلتين. وقيل الذين شهدوا بدراً.

وعن الشعبي : من بايع بالحديبية وهي بيعة الرضوان ما بين الهجرتين وَمن الْأَنْصارِ أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين ، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن. وقرأ عمر رضى اللّه عنه : والأنصار بالرفع عطفا على السابقون «3». وعن عمر أنه كان يرى أنّ قوله وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ بغير واو صفة للأنصار ، حتى قال له زيد : إنه بالواو ، فقال : ائتوني بأبيّ ، فقال تصديق ذلك في أول الجمعة وَآخَرِينَ مِنْهُمْ وأوسط الحشر وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ وآخر الأنفال وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ. وروى أنه سمع رجلا يقرؤه بالواو ، فقال : من أقرأك؟ قال : أبىّ ، فدعاه فقال : أقرأنيه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وإنك لتبيع القرظ بالبقيع ، قال : صدقت ، وإن شئت قلت : شهدنا وغبتم ، ونصرنا وخذلتم ، وآوينا وطردتم «4». ومن ثم قال عمر : لقد كنت أرانا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ، وارتفع السابقون بالابتداء ، وخبره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومعناه : رضى عنهم لأعمالهم وَرَضُوا عَنْهُ لما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية وفي مصاحف أهل مكة : تجرى من تحتها ، وهي قراءة ابن كثير ، وفي سائر المصاحف : تحتها ، بغير من.

(1). متفق عليه من حديث عبد اللّه بن أبى أو في قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : اللهم صل عليه فأتى أبو أوفى بصدقة. فقال : اللهم صل على آل أبى أوفى».
(2). قال محمود : «ما أدل هذا الكلام على أن الصدقة من اللّه بمكان ... الخ» قال أحمد : وللقدرية كما علمت مذهب في أن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر ، وأنه مخلد في النار وإن كان موحداً ، وغرض الزمخشري أن يجعل الفسق الذي وسم به المنافق هو الذي يوسم به الموحد ، حتى يكون استحقاقهما الخلود واحداً. فاحذره ، واللّه أعلم.
(3). لم أره هكذا.
(4). لم أره هكذا ، وفي الطبري من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب قال «مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ فأخذ عمر بيده. وقال : من أقرأك هذا؟ قال : أبى بن كعب فقال :

[سورة التوبة (9) : آية 101]

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ (101)

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ يعنى حول بلدتكم وهي المدينة مُنافِقُونَ وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار ، كانوا نازلين حولها وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عطف على خبر المبتدأ الذي هو ممن حولكم ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدّرت : ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ، على أنّ مَرَدُوا صفة موصوف محذوف ، كقوله : أَنَا ابْنُ جَلَا .. «1» ....

وعلى الوجه الأوّل لا يخلو من أن يكون كلاما مبتدأ أو صفة لمنافقون ، فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ تمهروا فيه ، من مرن فلان عمله ، ومرد عليه : إذا درب به وضرى ، حتى لان عليه ومهر فيه ، ودلّ على مرانتهم عليه ومهارتهم فيه بقوله لا تَعْلَمُهُمْ

(1) أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
وما ذا تبتغى الشعراء منى وقد جاوزت حد الأربعين
لسحيم بن وثيل الرياحي ، كان عبداً حبشياً ، فاتهم ببنت مولاه. فقتله. وقيل للمثقب العبدى ، ونسب البيت الأول العرجى. وجلا : صفة لمحذوف ، أى ابن رجل جلا واتضح أمره بالشجاعة ، فالفعل لازم. أو جلا غمة الحرب وكشف همها ، فهو متعد ، وحذف المنعوت هنا ضرورة ، لأنه لا يطرد إلا إذا صلح النعت لمباشرة العامل ، أو كان المنعوت بعض اسم مجرور بمن ، أو في كما مر ، وإضافة «طلاع» لما بعده لفظية ، فلا تفيده تعريفا. وتوسيط الواو بين النعوت لتوكيد ربطها بالمنعوت. والثنايا : العقبات الصعبة. استعارها لعظائم الأمور على سبيل التصريح ، والطلوع ترشيح «متى أضع» بيضة الحرب على رأسى «تعرفوني» كناية عن نزول الحرب فنثبت شجاعته. وروى «تدرى» بدل «تبتغى» وهو افتعال من الدراية ، أى : ما ذا تستعلم الشعراء منى ، والحال أنى جاوزت حد الأربعين سنة ، وكسر نون الجمع لغة. ويجوز أنه جر بالكسر على لغة من يعربه كالحين.

أى يخفون عليك مع فطنتك «1» وشهامتك وصدق فراستك ، لفرط تنؤقهم «2» في تحامى ما يشكك في أمرهم ، ثم قال نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ أى لا يعلمهم إلا اللّه ، ولا يطلع على سرهم غيره ، لأنهم يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم إبطانا ، ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين ، لا تشك معه في إيمانهم ، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به ، فلهم فيه اليد الطولى سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ قيل : هما القتل وعذاب القبر. وقيل الفضيحة وعذاب القبر. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه أنهم اختلفوا في هاتين المرّتين ، فقال : قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «3» خطيبا يوم الجمعة فقال : «اخرج يا فلان فإنك منافق ، اخرج يا فلان فإنك منافق «4»» فأخرج ناسا وفضحهم ، فهذا العذاب الأوّل ، والثاني عذاب القبر. وعن الحسن : أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ إلى عذاب النار.

[سورة التوبة (9) : آية 102]

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102)
اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ أى لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا متذممين نادمين ، وكانوا ثلاثة. أبو لبابة مروان بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن حزام «5». وقيل : كانوا عشرة ، فسبعة منهم أو ثقوا أنفسهم : بلغهم ما نزل في المتخلفين فأيقنوا بالهلاك ، فأوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد ، فقدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فدخل المسجد فصلى ركعتين - وكانت عادته صلى اللّه عليه وسلم كلما قدم من سفر - فرآهم موثقين ، فسأل عنهم ، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هو الذي يحلهم ، فقال : وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم، فنزلت ،

(1). قال محمود : «معناه أنه مع شهامتك وفطنتك وصدق فراستك يخفون حالهم عليك ... الخ» قال أحمد :
وكأن قوله تعالى مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه عليه الصلاة والسلام لما لهم من الخبرة في النفاق والضراوة به واللّه أعلم.
(2). قوله «لفرط تنوقهم» أى تأنفهم. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «فقال قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» ظاهره أن القائل هو ابن عباس. (ع)
(4). أخرجه الطبري وابن مردويه والطبراني في الأوسط من طريق السدى عن أبى مالك عن ابن عباس بهذا إلى قوله «و فضحهم» وزاد «و لم يكن عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له فلقيهم عمر فاختبأ منهم ، ثم دخل المسجد فقال له رجل : يا عمر أبشر ، فقد فضح اللّه المنافقين اليوم. فهذا العذاب الأول والعذاب الثاني عذاب القبر».
(5). قوله «روى أن الذين اعترفوا بذنوبهم كانوا ثلاثة : أبو لبابة مروان بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن حزام» لم أجده.

فأطلقهم وعذرهم ، فقالوا : يا رسول اللّه ، هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا ، فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فنزلت : خذ من أموالهم «1» عَمَلًا صالِحاً خروجا إلى الجهاد وَآخَرَ سَيِّئاً تخلفا عنه. عن الحسن وعن الكلبي : التوبة والإثم. فإن قلت : قد جعل كل واحد منهما مخلوطا فما المخلوط به «2»؟ قلت: كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به ، لأنّ المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر ، كقولك : خلطت الماء واللبن ، تريد : خلطت كل واحد منهما بصاحبه. وفيه ما ليس في قولك : خلطت الماء باللبن ، لأنك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به ، وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما ، كأنك قلت : خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ، ويجوز أن يكون من قولهم : بعت الشاء شاة ودرهما ، بمعنى شاة بدرهم. فإن قلت : كيف قيل أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وما ذكرت توبتهم؟ قلت : إذا ذكر اعترافهم بذنوبهم ، وهو دليل على التوبة ، فقد ذكرت توبتهم.

[سورة التوبة (9) : آية 103]

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)

تُطَهِّرُهُمْ صفة لصدقة. وقرئ : تطهرهم ، من أطهره بمعنى طهره. وتطهرهم ، بالجزم جوابا للأمر. ولم يقرأ وَتُزَكِّيهِمْ إلا بإثبات الياء. والتاء في تُطَهِّرُهُمْ للخطاب أو لغيبة المؤنث. والتزكية : مبالغة في التطهير وزيادة فيه. أو بمعنى الإنماء والبركة في المال وَصَلِّ عَلَيْهِمْ واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم ، والسنة أن يدعو المصدّق لصاحب الصدقة «3» إذا أخذها. وعن الشافعي رحمه اللّه : أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة : أجرك اللّه فيما أعطيت ، وجعله طهوراً ، وبارك لك فيما أبقيت. وقرئ : إنّ صلاتك ، على التوحيد «4» سَكَنٌ لَهُمْ يسكنون إليه وتطمئنّ قلوبهم بأن اللّه قد تاب عليهم وَاللَّهُ سَمِيعٌ يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم عَلِيمٌ بما في ضمائرهم ، والغم من الندم لما فرط منهم.

(1). أخرجه البيهقي في الدلائل وابن مردويه من طريق على ابن أبى طلحة عن ابن عباس في هذه الآية وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ - الآية كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في غزوة تبوك فلما حضر رجوع النبي صلى اللّه عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد - الحديث».

(2). قال محمود : «إن قلت قد جعل كل واحد منهما مخلوطا فما المخلوط به ... الخ» قال أحمد : والتحقيق في هذا أنك إذا قلت خلطت الماء باللبن فالمصرح به في هذا الكلام أن الماء المخلوط واللبن مخلوط به ، والمدلول عليه لزوما لا تصريحا كون الماء مخلوطا به واللبن مخلوطا ، وإذا قلت : خلطت الماء واللبن ، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطا. وأما ما خلط به كل واحد منهما فغير مصرح به ، بل من اللازم أن كل واحد منهما مخلوط به. ويحتمل أن يكون قرينة أو غيره ، فقول الزمخشري : «إن قولك خلطت الماء واللبن يفيد ما يفيده مع الباء وزيادة» ليس كذلك ، فالظاهر في الآية - واللّه أعلم - أن العدول عن الباء إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل ، كأنه قيل : عملوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط فعبر عنهما معا به ، واللّه أعلم.

(3). قوله «يدعو المصدق لصاحب الصدقة» المصدق اسم فاعل : الذي يأخذ الصدقات ، أفاده الصحاح. (ع)

(4). قوله «و قرئ إن صلاتك على التوحيد» بدل قراءة صلواتك على الجمع. (ع) [.....]

[سورة التوبة (9) : آية 104]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104)

قرئ أَلَمْ يَعْلَمُوا بالياء والتاء ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن يراد المتوب عليهم ، يعنى : ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ إذا صحت ، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية ، وهو للتخصيص والتأكيد ، وأن اللّه تعالى من شأنه قبول توبة التائبين. وقيل : معنى التخصيص في هو : أن ذلك ليس إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، إنما اللّه سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردّها ، فاقصدوه بها ووجهوها إليه.

[سورة التوبة (9) : آية 105]

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(105)

وَقُلِ لهؤلاء التائبين اعْمَلُوا فإن عملكم لا يخفى - خيراً كان أو شراً - على اللّه وعباده كما رأيتم وتبين لكم. والثاني : أن يراد غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة ، فقد روى أنهم لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا : هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت. فإن قلت : فما معنى قوله وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ قلت : هو مجاز عن قبوله لها ، وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه : إن الصدقة تقع في يد اللّه تعالى قبل أن تقع

في يد السائل «1» والمعنى : أنه يتقبلها ويضاعف عليها ، وقوله فَسَيَرَى اللَّهُ وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة.

[سورة التوبة (9) : آية 106]

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106)

قرئ مرجون ومرجؤن من أرجيته. وأرجأته : إذا أخرته. ومنه المرجئة ، يعنى : وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ إن تابوا ، وهم ثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع :

(1). أخرجه عبد الرزاق والطبراني من طريق عبد اللّه بن قتادة المحاربي عنه. وفي الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعا «ما تصدق أحد بصدقة من طيب - ولا يقبل اللّه إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه ... الحديث.

أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شدّ أنفسهم على السواري وإظهار الجزع والغم ، فلما علموا أنّ أحداً لا ينظر إليهم فوّضوا أمرهم إلى اللّه تعالى ، وأخلصوا نياتهم ، ونصحت توبتهم ، فرحمهم اللّه «1» وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وفي قراءة عبد اللّه : غفور رحيم. وإمّا للعباد : أى خافوا عليهم «2» العذاب ، وارجوا لهم الرحمة.

[سورة التوبة (9) : الآيات 107 إلى 108]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْنى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (107) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108)

في مصاحف أهل المدينة والشام : الذين اتخذوا بغير واو ، لأنها قصة على حيالها. وفي سائرها بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم. روى أنّ بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يأتيهم ، فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف «3»

(1). لم أجده بهذا السياق. والقصة في الصحيحين من حديث كعب بن مالك : وهو حديث ابن عباس الذي قبله باختصار.
(2). قوله «و إما للعباد أى خافوا عليهم» عبارة النسفي : وإما الشك وهو راجع إلى العباد. (ع)
(3). لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد ، وليس صدره بصحيح فان مسجد قباء كان قد أسس والنبي صلى اللّه عليه وسلم بقباء أول ما هاجر ، وبنى مسجد الضرار وكان في غزوة تبوك فبينهما تسع سنين لكن روى ابن مردويه من طريق محمد بن سعد العوفى عن أبيه عن عمه عن أبيه عن جده عطية بن سعد عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال «لما بنى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مسجد قباء خرج رجال منهم عرج جد عبد اللّه بن حنيف ، ووديعة ابن حزام ، ومشجع بن حارثة ، فبنو مسجدا - الحديث» من قوله «فبنوا مسجدا إلى مسجد قباء إلى آخره «ذكره ابن إسحاق في المغازي والطبري من طريقه عن الزهري ويزيد بن رومان وغيرهما قالوا : أقبل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى نزل بذي أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار. وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه وهو متجهز لغزوة تبوك - الحديث» ولم يذكر في الذين أرسلوا إلى هدمه سوى مالك بن الدخشم ، ومعن بن عدى لم يذكر وحشيا قاتل حمزة وعامر بن السكن ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق قال : ذكر الزهري عن ابن أكيمة الليثي عن ابن أخى وهم أنه سمع أبا رهم الغفاري فذكر نحوه. وأما كونهم بنوه بسبب أبى عامر ، فرواه ابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى اللّه عنهما.

وقالوا : نبنى مسجداً ونرسل إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصلى فيه ، ويصلى فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ، ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوتهم ، وهو الذي سماه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الفاسق ، وقال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم أحد : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين.

أن استعدّوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر وآت بجنود ومخرج محمداً وأصحابه من المدينة ، فبنوا مسجداً بجنب مسجد قباء ، وقالوا للنبي صلى اللّه عليه وسلم : بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ، ونحن نحب أن يصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : إنى على جناح سفر وحال شغل ، وإذا قدمنا إن شاء اللّه صلينا فيه ، فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد ،

فنزلت عليه ، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشى قاتل حمزة ، فقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ، ففعلوا ، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ، ومات أبو عامر بالشام بقنسرين ضِراراً مضارّة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ومعازة وَكُفْراً وتقوية للنفاق وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فيغتص «1» بهم ، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم وَإِرْصاداً وإعداداً «ل» أجل لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وهو الراهب : أعدوه له ليصلى فيه ويظهر على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وقيل : كل مسجد بنى مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه اللّه أو بمال غير طيب ، فهو لاحق بمسجد الضرار. وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بنى عامر ، فقيل له : مسجد بنى فلان لم يصلوا فيه بعد ، فقال : لا أحب أن أصلى فيه ، فإنه بنى على ضرار ، وكل مسجد بنى على ضرار أو رياء أو سمعة فإنّ أصله ينتهى إلى المسجد الذي بنى ضراراً. وعن عطاء : لما فتح اللّه تعالى الأمصار على يد عمر رضى اللّه عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضارّ أحدهما صاحبه. فإن قلت : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا ما محله من الإعراب؟ قلت : محله النصب على الاختصاص.

كقوله الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وقيل : هو مبتدأ خبره محذوف ، معناه : وفيمن وصفنا الذين اتخذوا كقوله وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ، فإن قلت : بم يتصل قوله مِنْ قَبْلُ؟ قلت. باتخذوا ، أى اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف إِنْ أَرَدْنا ما أردنا ببناء هذا المسجد إِلَّا الخصلة الْحُسْنى أو الإرادة الحسنى ، وهي الصلاة.

(1). قوله «فيغتص» أى يمتلئ اه. (ع)

وذكر اللّه والتوسعة على المصلين لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى قيل هو مسجد قباء أسسه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء ، وهي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وخرج يوم الجمعة ، وهو أولى ، لأنّ الموازنة بين مسجدى قباء أوقع. وقيل : هو مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالمدينة : وعن أبى سعيد الخدري : سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى ، فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال : هو مسجدكم هذا مسجد «1» المدينة مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ من أول يوم من أيام وجوده فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا قيل لما نزلت مشى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس فقال : أمؤمنون أنتم؟ فسكت القوم ، ثم أعادها : فقال عمر : يا رسول اللّه إنهم لمؤمنون وأنا معهم. فقال صلى اللّه عليه وسلم : أترضون بالقضاء؟ قالوا : نعم. قال : أتصرون على البلاء؟ قالوا : نعم. قال : أتشكرون في الرخاء؟ قالوا : نعم. قال : صلى اللّه عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة. فجلس ثم قال : يا معشر الأنصار ، إن اللّه عزّ وجلّ قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط، فقالوا يا رسول اللّه ، نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ، ثم نتبع الأحجار الماء. فتلا النبي صلى اللّه عليه وسلم رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا «2» وقرئ : أن يطهروا ، بالإدغام. وقيل : هو عام في التطهر من النجاسات كلها. وقيل : كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ، ويتبعون الماء أثر البول. وعن الحسن : هو التطهر من الذنوب بالتوبة. وقيل : يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم ، فحموا عن آخرهم. فإن قلت : ما معنى المحبتين؟ قلت : محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء المشتهى له على إيثاره. ومحبة اللّه تعالى إياهم : أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم ، كما يفعل المحب بمحبوبه.

[سورة التوبة (9) : آية 109]

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109)

قرئ أَسس بنيانه ، وأُسس بنيانه ، على البناء للفاعل والمفعول. وأسس بنيانه ، جمع أساس.

(1). رواه مسلم بلفظه.
(2). لم أجده هكذا : وكأنه ملفق من حديثين : ذكر المخرج أولهما من الطبراني في الأوسط قال : حدثنا الهيثم ابن خلف الدوري بسنده إلى ابن عباس رضى اللّه عنهما قال «دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على عمر ومعه أناس ، فقال : أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا ، ثلاث مرات ، فقال عمر رضى اللّه عنه يا رسول اللّه ، نؤمن بما أتيتنا به ونحمد اللّه في الرخاء ، ونصبر في البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال مؤمنون ورب الكعبة» انتهى ، وهذا فيه من المخالفة بين السياقين ما لا يخفى ، وأما الثاني ، فروى ابن مردويه من طريق ابن عباس نحوه

على الإضافة ، وأساس بنيانه ، بالفتح والكسر : جمع أس ، وآساس بنيانه على أفعال ، جمع أس أيضا. وأس بنيانه. والمعنى : أفمن أسس بنيان دينه «1» على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى اللّه ورضوانه خَيْرٌ أَمْ مَنْ أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شَفا جُرُفٍ هارٍ في قلة الثبات والاستمساك ، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى ، لأنه جعل مجازا عما ينافي التقوى. فإن قلت : فما معنى قوله فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ؟ قلت : لما جعل الجرف الهائر مجازا عن الباطل قيل: فانهار به في نار جهنم ، على معنى : فطاح به الباطل في نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف ، وليصور أنّ المبطل كأنه أسس بنيانا على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها. والشفا : الحرف والشفير. وجرف الوادي : جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيا. والهار : الهائر وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط. ووزنه فعل ، قصر عن فاعل ، كخلف من خالف. ونظيره : شاك وصات ، في شائك وصائت. وألفه ليست بألف فاعل ، إنما هي عينه. وأصله هور وشوك وصوت. ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدلّ على حقيقة الباطل وكنه أمره. وقرئ : جرف. بسكون الراء.

فإن قلت : فما وجه ما روى سيبويه عن عيسى بن عمر : على تقوى من اللّه ، بالتنوين؟ قلت : قد جعل الألف للإلحاق لا للتأنيث ، كتترى فيمن نوّن ، ألحقها بجعفر. وفي مصحف أبىّ : فانهارت به قواعده. وقيل : حفرت بقعة من مسجد الضرار فرؤى الدخان يخرج منه. وروى أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار ، فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لمجمع فيؤمّهم في مسجدهم، فقال : لا ، ولا نعمة عين ، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تعجل علىّ ، فو اللّه لقد صليت بهم واللّه يعلم أنى لا أعلم ما أضمروا فيه ، ولو علمت ما صليت معهم فيه ، كنت غلاما قارئاً للقرآن وكانوا شيوخا لا يقرؤن من القرآن شيئا. فعذره وصدّقه وأمره بالصلاة بقومه.

[سورة التوبة (9) : آية 110]

لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)

رِيبَةً شكا في الدين ونفاقا ، وكان القوم منافقين. وإنما حملهم على بناء ذلك المسجد كفرهم ونفاقهم كما قال عزّ وجلّ ضِراراً وَكُفْراً فلما هدمه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ازدادوا

(1). قوله «فمن أسس بنيان دينه» هذا كما في الحديث «بنى الإسلام على خمس». (ع)

- لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم - تصميما على النفاق ومقتاً للإسلام ، فمعنى قوله لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ لا يزال هدمه سبب شكّ ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم ولا يضمحلّ أثره إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ قطعاً وتفرّق أجزاء ، فحينئذ يسلون عنه. وأمّا ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة ، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع «1» تصويراً لحال زوال الريبة عنها. ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم أو في القبور أو في النار. وقرئ : يقطع ، بالياء. وتقطع ، بالتخفيف. وتقطع ، بفتح التاء بمعنى تتقطع.

وتقطع قلوبهم ، على أن الخطاب للرسول أى إلا أن تقطع أنت قلوبهم بقتلهم. وقرأ الحسن : إلى أن. وفي قراءة عبد اللّه : ولو قطعت قلوبهم. وعن طلحة : ولو قطعت قلوبهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب. وقيل : معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفاً على تفريطهم.

[سورة التوبة (9) : آية 111]

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(111)

مثل اللّه إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشروى «2». وروى : تاجرهم فأغلى لهم الثمن. وعن عمر رضى اللّه عنه فجعل لهم الصفقتين جميعاً. وعن الحسن أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها. وروى أن الأنصار حين بايعوه على العقبة قال عبد اللّه بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت «3». قال : أشترط

لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم. قال : فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال : لكم الجنة.

قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل. ومرّ برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعرابىّ وهو يقرؤها فقال : كلام من؟ قال كلام اللّه. قال : بيع واللّه مربح لا نقيله ولا نستقيله ، فخرج إلى الغزو فاستشهد «4» يُقاتِلُونَ فيه معنى الأمر ، كقوله تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

(1). قوله «فيجوز أن يكون ذكر التقطيع» على قراءة تَقَطَّعَ بالتشديد ، مبنيا للمفعول. (ع)
(2). قوله «في سبيله بالشروى» كالجدوى. في الصحاح والوشاح هي المثل. والظن أنها هنا اسم للاشتراء. (ع)
(3). أخرجه الطبري من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب القرظي وغيره ، قال «لما بايعت الأنصار ليلة العقبة - فذكره
(4). ذكره الثعلبي هكذا بلا سند عن البصري مرسلا لكن سنده إلى الحسن البصري أول كتابه. قلت : أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق أبى شيبة عن عطاء الخراساني عن جابر «نزلت هذه الآية على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو في المسجد إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى فكبر الناس في المسجد. فأقبل رجل من الأنصار. فقال :
أنزلت هذه الآية؟ فقال : نعم ، فقال بيع رابح. لا نقيل ولا نستقيل» وأخرجه عبد بن حميد : حدثنا إبراهيم هو ابن عبد الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة «لما نزلت هذه الآية إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى ... قال رجل من الأنصار يا لها بيعة ، ما أربحها. واللّه لا نقيل ولا نستقيل» وأخرجه الطبري من طريق محمد بن كعب وغيره قالوا : قال عبد اللّه ابن رواحة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا. وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال الجنة قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل».

وقرئ : فيقتلون ويقتلون على بناء الأوّل للفاعل والثاني للمفعول ، وعلى العكس وَعْداً مصدر مؤكد. أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبته فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ كما أثبته في القرآن ، ثم قال وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ لأنّ إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم ، فكيف بالغنى الذي لا يجوز عليه القبيح قط ، ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ.

[سورة التوبة (9) : آية 112]

التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)

التَّائِبُونَ رفع على المدح. أى : هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين. ويدل عليه قراءة عبد اللّه وأبىّ رضى اللّه عنهما : التائبين ، بالياء إلى : والحافظين ، نصباً على المدح. ويجوز أن يكون جراً صفة للمؤمنين. وجوّز الزجاج أن يكون مبتدأ خبره محذوف ، أى : التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا ، كقوله وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وقيل : هو رفع على البدل من الضمير في يقاتلون. ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره العابدون ، وما بعده خبر بعد خبر ، أى : التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال. وعن الحسن : هم الذين تابوا من الشرك وتبرؤا من النفاق. والْعابِدُونَ الذين عبدوا اللّه وحده وأخلصوا له العبادة وحرصوا عليها. والسَّائِحُونَ الصائمون شبهوا بذوي السياحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم. وقيل : هم طلبة العلم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه.

[سورة التوبة (9) : آية 113]

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ(113)

قيل قال صلى اللّه عليه وسلم لعمه أبى طالب : أنت أعظم الناس علىَّ حقاً ، وأحسنهم عندي يداً ، فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي ، فأبى ، فقال : لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه «1» ، فنزلت.

وقيل : لما افتتح مكة سأل أى أبويه أحدث به عهداً؟ فقيل : أمك آمنة ، فزار قبرها بالأبواء ، ثم قام مستعبراً فقال : إنى استأذنت ربى في زيارة قبر أمى فأذن لي ، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي ، فنزلت. وهذا أصح لأنّ موت أبى طالب كان قبل الهجرة ، وهذا آخر ما نزل بالمدينة. وقيل : استغفر لأبيه. وقيل : قال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا وذوى قرابتنا وقد استغفر إبراهيم لأبيه ، وهذا محمد يستغفر لعمه ما كانَ لِلنَّبِيِّ ما صح له الاستغفار في حكم اللّه وحكمته مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ لأنهم ماتوا على الشرك.

[سورة التوبة (9) : آية 114]

وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ(114)

قرأ طلحة وما استغفر ابراهيم لأبيه ، وعنه : وما يستغفر إبراهيم ، على حكاية الحال الماضية إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ أى وعدها إبراهيم أباه ، وهو قوله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ويدل عليه قراءة الحسن وحماد الرواية : وعدها أباه. فإن قلت كيف خفى على إبراهيم أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده؟ قلت : يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى منه الإيمان جاز الاستغفار له ، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي ، لأن العقل يجوّز أن يغفر اللّه للكافر. ألا ترى إلى قوله عليه السلام لعمه : لأستغفرنّ لك ما لم أنه. وعن الحسن قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إن فلاناً يستغفر لآبائه المشركين ، فقال : ونحن نستغفر لهم فنزلت «2» وعن على رضى اللّه عنه : رأيت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت له ، فقال : أليس قد استغفر إبراهيم «3» فإن قلت : فما معنى قوله فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ؟ قلت : معناه : فلما تبين له من جهة الوحى أنه لن يؤمن وأنه يموت كافراً وانقطع رجاؤه عنه ، قطع استغفاره فهو كقوله مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ. لَأَوَّاهٌ فعال ، من أوه كلئال من اللؤلؤ ، وهو الذي يكثر التأوه. ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له ، مع شكاسته عليه «4» وقوله لأرجمنك.

(1). متفق عليه من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه في حديث ، وغفل الحاكم فاستدركه.
(2). لم أجده. [.....]
(3). أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وأحمد وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار من طريق أبى الخليل عن على قال «سمعت رجلا يستغفر لأبويه - الحديث».
(4). قوله «مع شكاسته عليه» أى صعوبته. وفي الصحاح : رجل شكس - بالتسكين - أى صعب الخلق. (ع)

[سورة التوبة (9) : الآيات 115 إلى 116]

وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (116)

يعنى ما أمر اللّه باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضلالا ، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب. وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم. وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهى عنه. وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها : وهي أنّ المهدىَّ للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات اللّه داخل في حكم الإضلال.

والمراد بما يتقون : ما يجب اتقاؤه للنهى ، فأما ما يعلم بالعقل «1» كالصدق «2» في الخبر ، وردّ الوديعة فغير موقوف على التوقيف.

[سورة التوبة (9) : آية 117]

لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (117)

تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ كقوله لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وقوله وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وهو بعث للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرون والأنصار ، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند اللّه ، وأن صفة التوابين الأوّابين صفة الأنبياء ، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح. وقيل : معناه تاب اللّه عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه ، كقوله عَفَا اللَّهُ عَنْكَ. فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ في وقتها ، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق ، كما استعملت الغداة والعشية واليوم :

(1). قال محمود : «فأما ما يدرك حظره بالعقل ... الخ» قال أحمد : هذا تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح ، وأن العقل حاكم ، والشرع كاشف لما غمض عليه ، تابع لمقتضاه. وهذه القاعدة قد سبق بطلانها في غير ما موضع ، والله الموفق.
(2). قوله «فأما ما يعلم بالعقل كالصدق» مبنى على مذهب المعتزلة أن الحكم قد يعلم بالعقل وعند أهل السنة لا حكم قبل الشرع. (ع)

غَدَاةَ طَفَتْ عَلْمَاءِ بَكْرُ بْنُ وَائِلِ «1»

وَكُنَّا حَسِبْنَا كُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً عَشِيَّةَ قَارَعْنَا جُذَامَ وَحِمْيَرَا «2»

إِذَا جَاءَ يَوْماً وَارِثِى يَبْتَغِى الْغِنَى يَجِدْ جُمْعَ كَفّ غَيْرَ مَلْأَى وَلَا صِفْرِ «3»

(1) غداة طفت علماء بكر بن وائل وعاجت صدور الخيل شطر تميم
المراد بالغداة مطلق الزمن ليناسب المدح. طفت - بالفاء - علت وارتفعت. ويروى بالغين ، والمراد : العلو أيضاً. وعلماء : أصله على الماء ، والمراد : ارتفع قدرهم في العز والمجد وانخفض غيرهم ، كما يرتفع الشيء على وجه الماء ويرسب الآخر. أو المعنى : أنهم طغوا بالغين على أطغى شيء كالماء ، فالماء طاغ على الناس وهم طاغون عليه. وفيه دلالة على الشجاعة. وبكر بن وائل : اسم أبى قبيله سميت هي باسمه. والوائل : أصله السابق الملتجئ.
وعاجت : أى أمالت صدور خيلها. وإيقاع الموج على الصدور ، لأن السير والتحول من جهة إلى أخرى يظهران بها.
وشطر : أى جهة قبيلة تميم.
(2) وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة عشية قارعنا جذام وحميرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
لزفر بن الحرث الكلابي من التابعين شهد وقعة صفين وغيرها. ويقال في المثل : ما كل بيضاء شحمة ، ولا كل سوداء تمرة فما هنا تلميح له. والمراد بالعشية : مطلق الزمن لا آخر النهار فقط ، لدلالة المقام على ذلك. والمقارعة : المضاربة بالرماح والسيوف. ويروى : ليالي لاقينا. وجذام : اسم قبيلة سميت به ، وهي من اليمن كانت تنزل جبال حسمى ، يقال : هي أول ما انحسر عنه الطوفان لارتفاعها. وحمير : أبو قبيلة أيضا سميت باسمه. ويروى : جذاما ، بالتنوين للضرورة.
والنبع : شجر تتخذ منه الرماح. يقول : كنا ظننا أنهم ضعفاء نظفر بهم كغيرهم ، فقوله «كل بيضاء شحمة» استعارة تمثيلية لذلك. وعشية : نصب بحسبنا ، فلما التقت الرماح بيننا أبت أن تتكسر. وشبهها بما يصح منه الاباء على طريق الكناية. وأبت تخييل ، وبعد ذلك فهو كناية عن قوة القبيلتين وعدم انخذالهما. وقيل : إنه يصفهما بالكرم وحسن القرى. فيكون الكلام كله بما فيه من المجاز والكناية، منقول من هيئة التقاء الصفوف في الحرب إلى هيئة التقاء الضيفان مع المضياف وعدم عجزه عن قراهم على طريق التمثيل، لكن العشية على حقيقتها. ومع توجيهنا له بذلك ، يبعده قوله «حسبنا كل بيضاء شحمة» وهو قول من لم يقف على بقية القصيدة ، فإنها مصرحة بأن المعنى محاربتهم إياهم ومكافأتهم لهم.
(3) إذا جاء يوما وارثي يبتغى الغنا يجد جمع كف غير ملأى ولا صفر
يجد فرسا مثل العنان وصارما إذا ما هز لم يرض بالهبر
وأسمر خطيا كأن كعوبه نوى القسب قد أربى ذراعا على العشر
لحاتم الطائي. والمراد باليوم : مطلق الزمن ، بخلاف النهار فانه خاص بالمحدود الطرفين ، وهكذا غالب استعمال العرب ، والمراد بالغنى : التركة ، لأنها سببه. وجمع الكف - بالضم - : الكف المقبوضة ، فهو من إضافة الصفة للموصوف. والملأى : الممتلئة. وصفر الرجل - بالكسر - وأصفر فهو مصفر : افتقر. والصفر - بالضم ، وقيل بالكسر - : الخالي. والصارم : السيف القاطع. وحسم الشيء : قطعه بالحسام الشديد القطع. ويطلق على الحديد الحد. والهبر : قطع بضعة كثيرة من اللحم. والسمرة : لون بين البياض والأدمة. والخط : موضع تنسب له الرماح الجيدة. والكعب : ما بين العقدتين. والقسب : نوع من التمر صلب النوى. وريا الشيء وأربى : زاد ، وقد تقلب باؤه ميما ، كما روى : قد أرمى. وذراعا : تمييز ، أى زاد ذراعا على العشر الأذرع ، فيكون مقداره أحد عشر ذراعا ، والجملة وصف لأسمر. ويحتمل أنها حال من النوى ، أى : زاد النوى حال كونه مقدار ذراع على العشر من النوى ، فذراعا حال في ضمن الحال وإذا أشبهت كعوبه النوى في هذه الحالة ، فكل ذراع منه يزيد على عشرة كعوب. ويجوز أن ذراعا تمييز محول عن الفاعل ، أى : زاد كل ذراع من هذا الأسمر على عشرة كعوب. يقول :
إذا طلب وارثي تركتي يجد أشياء حقيقة بأن يقبض عليها بالكف حرصا عليها ، فقوله «جمع كف» كناية عن ذلك غير ممتلئة عند من يحب المال ، وغير خالية عند ملاقى الأبطال ، ويجد الثاني بدل من الأول. وشبه فرسه بالعنان في الضمور والمكانة إذا هز أى حرك، كناية عن الضرب به ، وشبهه بمن يصح منه الرضا على طريق الكناية ولم يرض تخييل : أى يجد فرسا ضامراً وسيفا قاطعا ورمحا طويلا أو صلبا. وجزم المضارع في جواب إذا وهو قليل.

والعسرة : حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة من الظهر : يعتقب العشرة على بعير واحد.

وفي عسرة من الزاد : تزودوا التمر المدود والشعير المسوّس والإهالة الزنخة «1» ، وبلغت بهم الشدّة أن اقتسم التمرة اثنان ، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء. وفي عسرة من الماء ، حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها. وفي شدّة زمان ، من حمارّة القيظ ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ عن الثبات على الإيمان ، أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه. وفي «كاد» ضمير الشَّأنِ ، وشبهه سيبويه بقولهم : ليس خلق الله مثله. وقرئ : يزيغ ، بالياء. وفي قراءة عبد الله : من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم ، يريد المتخلفين من المؤمنين كأبى لبابة وأمثاله ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ تكرير للتوكيد. ويجوز أن يكون الضمير للفريق : تاب عليهم لكيدودتهم.

[سورة التوبة (9) : آية 118]

وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118)

الثَّلاثَةِ كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية. ومعنى خُلِّفُوا خلفوا عن الغزو. وقيل : عن أبى لبابة وأصحابه حيث تيب عليهم بعدهم. وقرئ خُلِّفُوا أى خلفوا الغازين بالمدينة ، أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم «2». وقرأ جعفر الصادق رضى اللّه عنه : خالفوا. وقرأ الأعمش : وعلى الثلاثة المخلفين بِما رَحُبَتْ برحبها ، أى : مع سعتها ، وهو مثل للحيرة في أمرهم ، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه قلقاً وجزعا مما هم فيه وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ أى قلوبهم ، لا يسعها أنس ولا سرور ، لأنها حرجت من فرط الوحشة والغمّ

(1). قوله «و الاهالة الزنخة ، أى الدهن المنتن. وحمارة القيظ بتشديد الراء شدة حره اه من الصحاح. (ع)
(2). قوله «أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم» الخالفة : الذي لا خير فيه. وخلوف الفم : تغيره : اه من الصحاح. (ع)